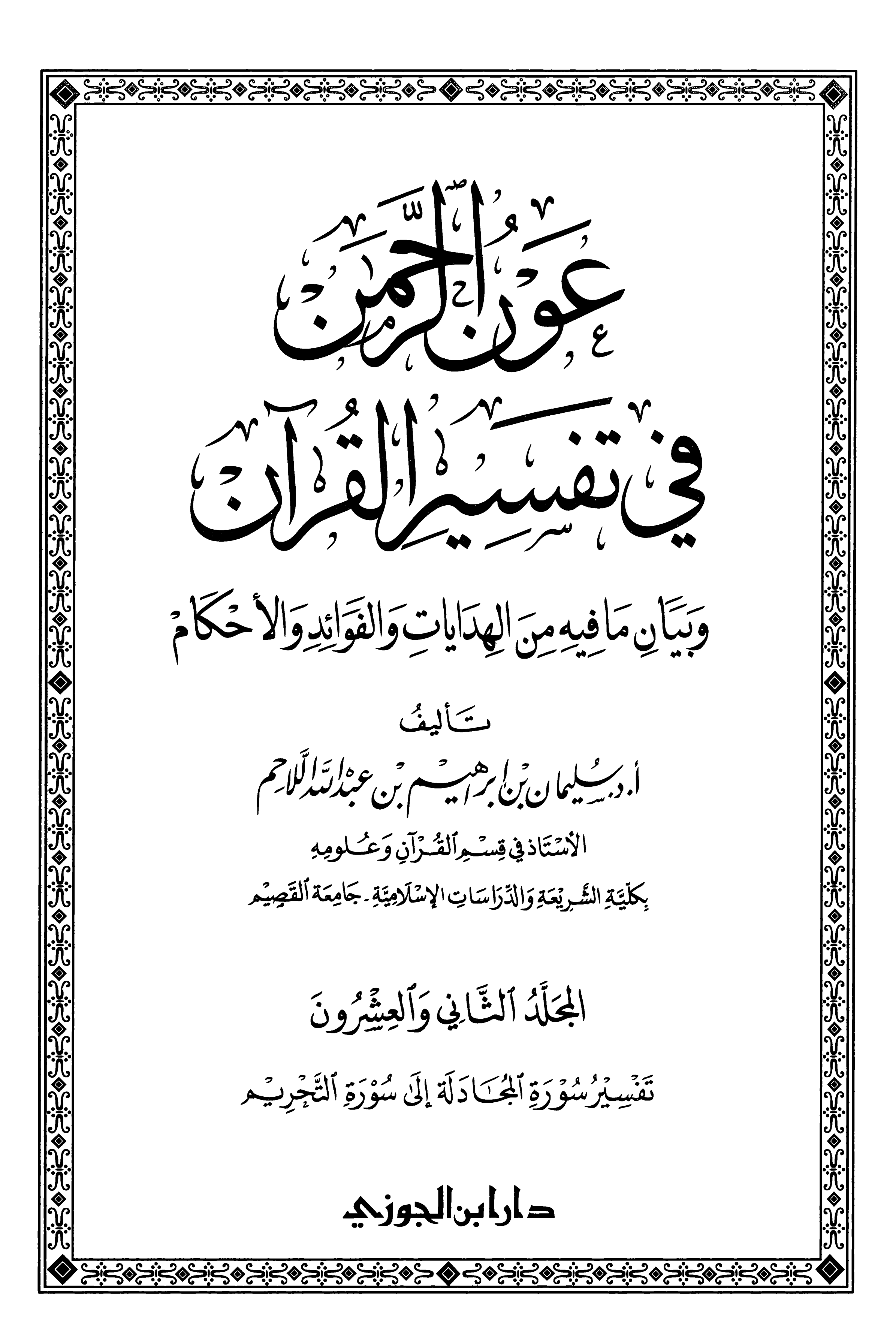


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبدالله اللاحم

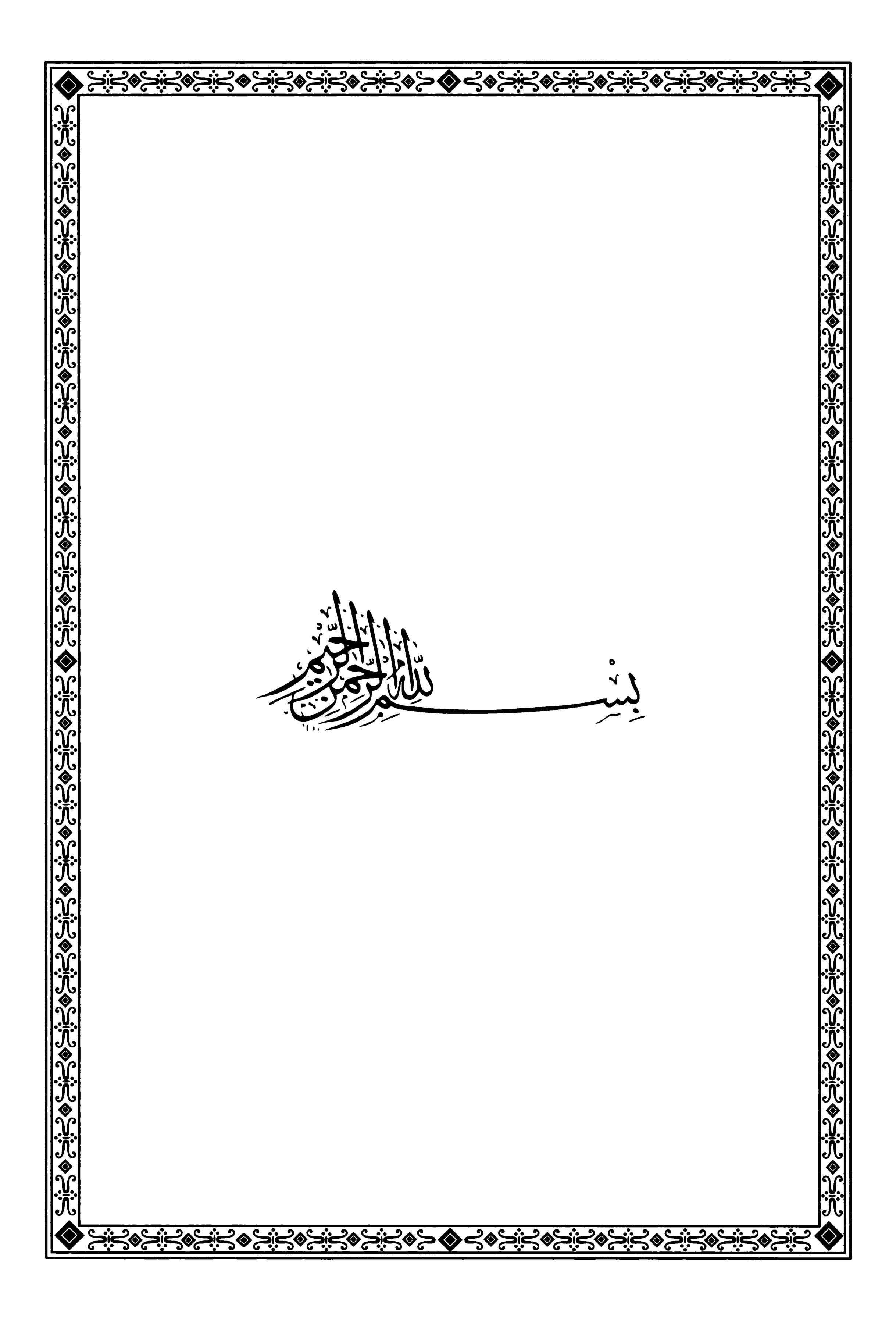
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

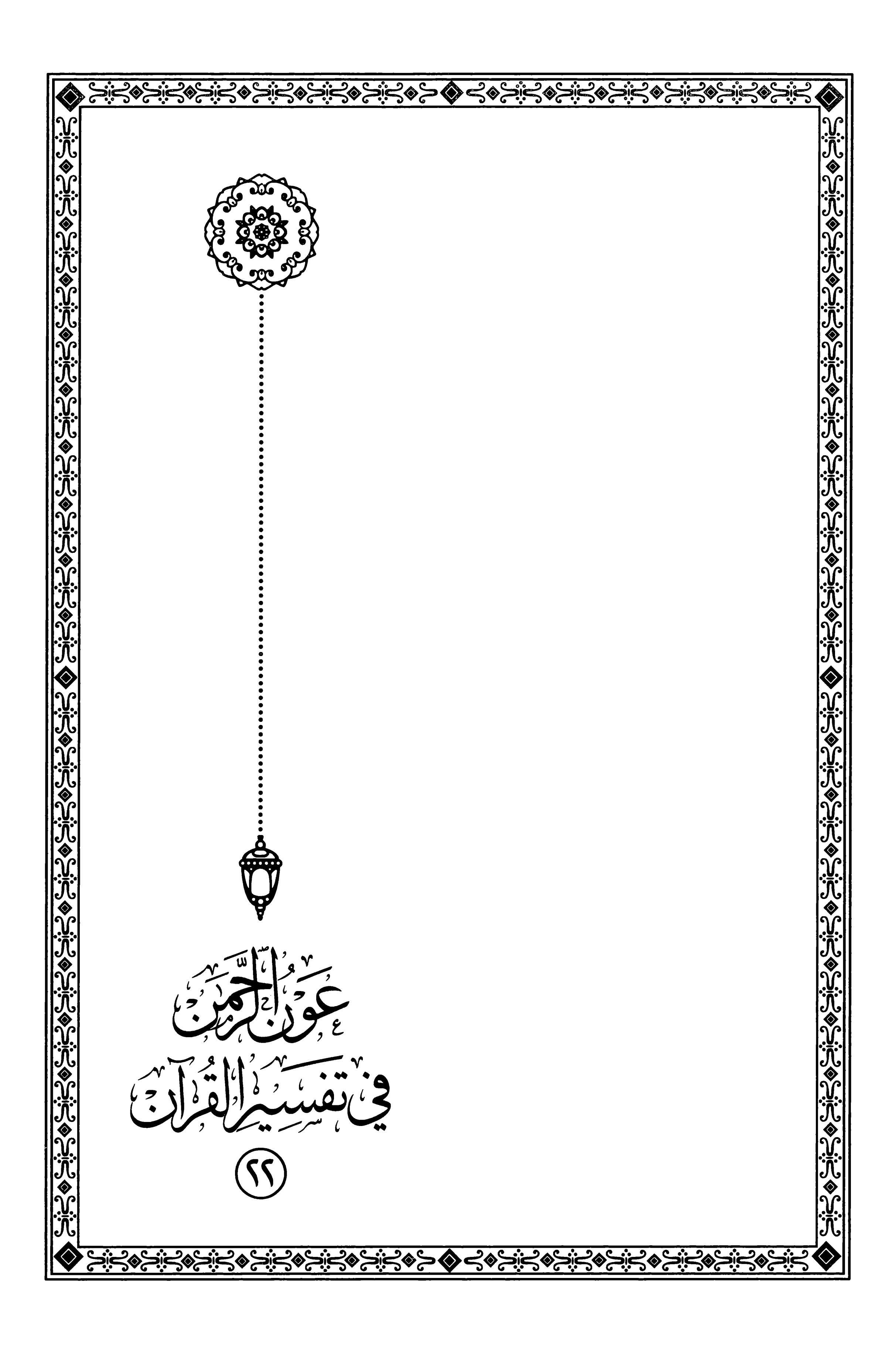
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثاني والعشرون

تفسير سورة المجادلة إلى سورة التحريم

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



عون الرحمن
في تفسير القرآن
٢٢





دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي : ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

eljawzi

aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ

٤٨٠ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام

أ. العنوان

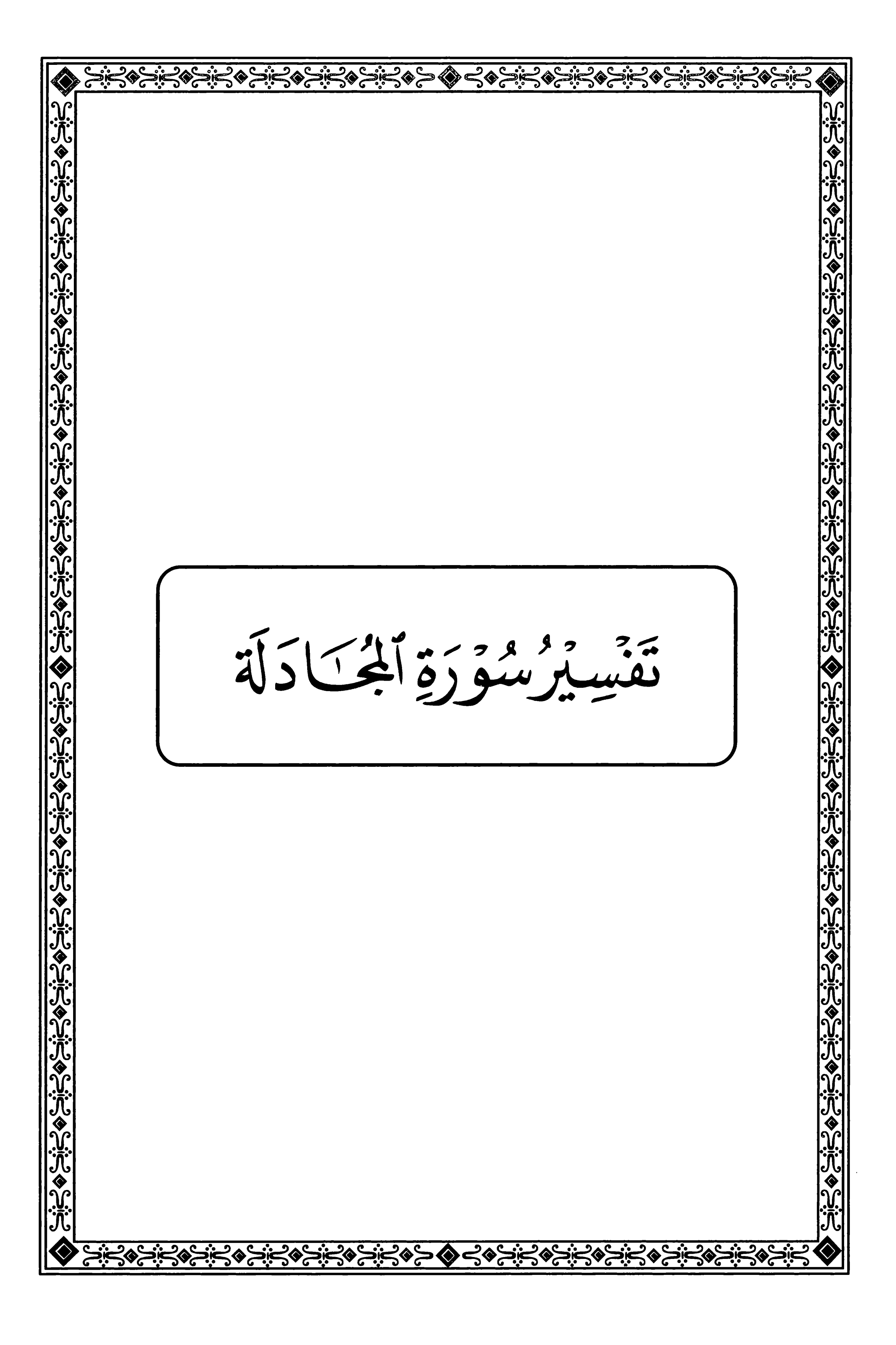
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

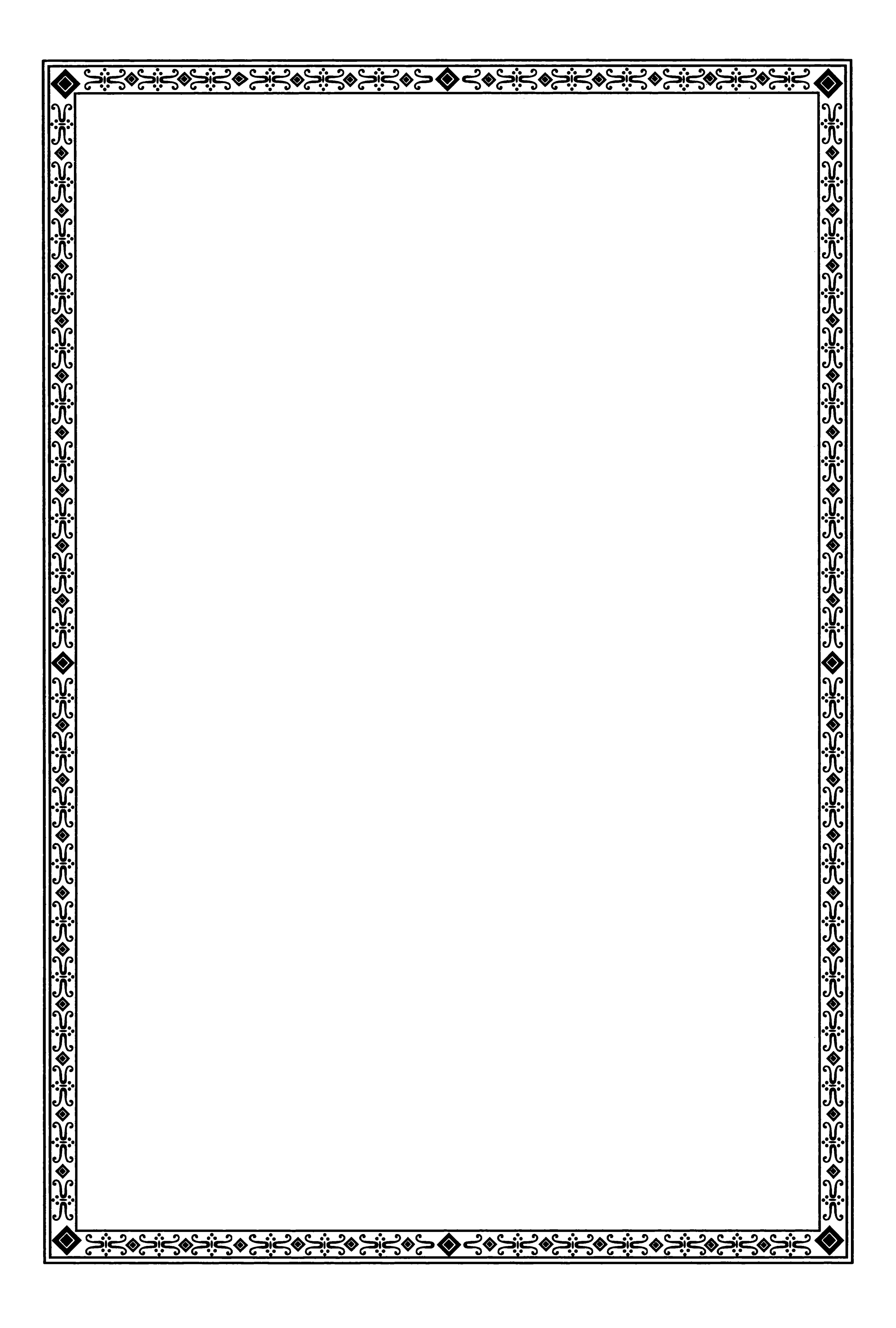
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلمُجَادَلَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المجادلة»؛ لأنها افتتحت بقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ۝١﴾، وبذكر قصة المرأة المجادلة.

و «المجادلة» بكسر الدال وفتحها، والمجادلة بالكسر يراد بها المرأة، والمجادلة بالفتح يراد بها القصة.

وتسمى: «سورة قد سمع»، و«سورة الظهار».

ويقال: إن مما تميزت به هذه السورة: أنها لم تخلُ آية منها من لفظ الجلالة.

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بذكر سماعه عز وجل قول المجادلة في زوجها، وشكواها، وبيانه عز وجل حكم الظهار: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾.

٢- التهديد والوعيد للذين يحادون الله ورسوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾.

٣- بيان سعة علم الله عز وجل، وإحاطته بالنجوى، وبأعمال العباد، وبكل شيء، والنهي عن التناجي بالإثم والعدوان ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ

نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

٤- ذكر بعض آداب المجالس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

٥- الأمر بتقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ ثم نسخ ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

٦- ذم المنافقين في توليهم اليهود، ونفاقهم، وتوعدهم بالعذاب الشديد في النار: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

٨- قطع المودة بين المؤمنين وبين المحادين لله ورسوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾.

سبب النـزول:

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية»(١).

وفي رواية عنها أنها قالت: «تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وزوجها أوس بن الصامت»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري- معلقًا- في كتاب التوحيد- باب (وكان الله سميعًا بصيرًا) «فتح الباري» ١٣/ ٣٧٢، وأخرجه موصولًا النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة- باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٨، وأحمد ٦/ ٤٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٤-٤٥٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢، والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢، والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٣.

وعن خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها قالت: «فيَّ- والله- وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه، قالت: فدخل عليّ يومًا فراجعته بشيء فغضب فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه قالت: فواثبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثوبًا، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سُرِّي عنه، فقال لي: «يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾». قالت: فقال رسول الله ﷺ «مريه فليعتق رقبه». قالت: فقلت يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: «فليصم شهرين متتابعين» فقلت: والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام قال: «فليطعم ستين مسكينًا، وسقًا من تمر» قالت: قلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ «فإنا سنعينه بعَرَقٍ[1] من تمر» قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بعَرَقٍ آخر، قال: «قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا» قالت: ففعلت»[2].

---

(١) العَرَق: بفتح العين والراء: الزنبيل أو المكتل المنسوج من الخوص انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة «عرق».

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق- باب في الظهار ٢٢١٤، وأحمد ٦/ ٤١٠-٤١١، والواحدي في «أسباب =

قال ابن كثير(١): «هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة، فأما حديث سلمة بن صخر، فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أمر بها أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام، أو الإطعام».

ثم ذكر حديث سلمة بن صخر رضي الله عنه- من رواية الإمام أحمد(٢).

وفيه: أنه ظاهر من زوجته لما دخل رمضان حتى ينسلخ خوفًا أن يقع عليها في نهار رمضان فوقع عليها ذات ليلة فأخبر النبي ﷺ بذلك وأمره بالتكفير عن ذلك بما ذكر الله عز وجل في هذه السورة.

وأيضًا فإن الثابت في الصحيحين وغيرهما في قصة سلمة بن صخر كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه- قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل، فقال: يا رسول الله هلكت قال: «مالك»؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله ﷺ: «هل تجد رقبة تعتقها»؟ قال: لا. قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين»؟ قال: لا. قال: «فهل تجد إطعام ستين مسكينًا»؟ قال: لا. قال: فمكث النبي ﷺ فبينا نحن على ذلك أُتي النبي ﷺ بعَرَق فيه تمر- والعَرَق: المكتل- قال: «أين السائل»؟. فقال: أنا. قال: «خذ هذا فتصدق به». فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله، فوالله ما بين لابتيها- يريد الحرتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «أطعمه أهلك»(٣).

=

النزول» ص ٢٧٤.

(١) في «تفسيره» ٨/ ٦٢.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣٧، وأبو داود في الطلاق- باب في الظهار ٢٢١٣، والترمذي في التفسير ٣٢٩٩، وابن ماجه في الطلاق- باب الظهار ٢٠٦٢. وقال الترمذي: «حديث حسن، محمد بن يسار- يعني راوي الحديث عن سلمة بن صخر- قال: لم يسمع عندي من سلمة بن صخر».

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٣٦، ومسلم في الصيام ١١١١، وأبو داود في الصوم ٢٣٩٠، والترمذي

=

فهذا هو الثابت المتفق عليه في قصة سلمة بن صخر، وهو أنه جامع في نهار رمضان، وليس فيه شيء عن سبب نزول الآيات في الظهار- وإن كان قد أعطي حكم المجامع في نهار رمضان حكم المظاهر من زوجته.

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

«قد» حرف تحقيق، تفيد تحقيق سماعه عز وجل قولها وشكواها، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾، أي: تحاجك وتخاصمك، وهي خولة[1] بنت ثعلبة، أو بنت مالك بن ثعلبة رضي الله عنها.

﴿فِي زَوْجِهَا﴾ أوس بن الصامت- رضي الله عنه، كما جاء في سبب النزول.

وقد رُوِيَ: «أن امرأة لقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو يسير مع الناس، فاستوقفته، فوقف لها، ودنا منها، وأصغى لها، ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حبست رجالات قريش على هذه العجوز؟! قال: ويحك! وتدري من هذه؟ قال: لا، قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها، إلا أن تحضر صلاة فأصليها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها»[2].

والمعنى: قد سمع الله قول خولة بنت ثعلبة التي جاءتك تحاجك وتخاصمك في شأن زوجها، وما حصل منه معها.

والمراد: أنها جاءت تطلب حكم الله ورسوله فيما حصل من زوجها، كما قالت في

=

في الصوم ٧٢٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٧١.

(١) يقال: خولة، ويقال خويلة: انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢- عن ابن زيد.

قصة سبب النزول: «والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه».

﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: وترفع إلى الله ضراعتها وفاقتها وحالها وحال صبيتها، وتسأله الفرج، كما في قولها: «يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك»(١).

وفي رواية أنها قالت: «أشكو إلى الله فاقتي»(٢).

ورُوي أنها قالت: «إن لي صبية صغارًا إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا»(٣).

فجادلت الرسول الله ﷺ وحاجَّته وخاصمته ليبين لها حكم الله ورسوله فيما حصل من زوجها.

وشكت إلى الله عز وجل وحده الذي إليه الشكوى فلم تشك حالها إلى النبي ﷺ لعلمها أنه ﷺ بشر، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وشكت حالها إلى الله عز وجل مع فعل السبب وهو البحث عن مخرج لها ولزوجها مما حصل منه، وذلك بمجيئها إلى رسول الله ﷺ لبيان الحكم في ذلك، ولهذا سارعت- رضي الله عنها- إلى مساعدة زوجها بعرق من تمر للتكفير عما حصل منه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطلاق- باب الظهار ٢٠٦٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢، والحاكم ٢/ ٤٨١، ومعنى «نثرت له بطني»، أي: أنها ولدت له أولادًا كثيرين، وهي شابة.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٧- عن أبي العالية.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٦.

فجمعت بين التوكل على الله برفع الشكوى إلى المولى عز وجل الذي يكشف الضر ويرفع البلوى، وبين بذل الأسباب، كما هو مقتضى الإيمان بالله عز وجل أن يعتمد المسلم على الله عز وجل، ويأخذ بالأسباب، كما قال عز وجل: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢].

وقال ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»(١).

فهو عز وجل رب العباد ومولاهم ومليكهم، وإليه المشتكى كما قيل:

.... لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه(٢)

ولقد كان من أعظم أسباب ضعف الأمة على مستوى الأفراد والجماعات والدول ضعف الاعتماد على الله، والتقصير في الأخذ بالأسباب، أو الاعتماد عليها فقط، فكم نشكو أحوالنا إلى الناس، وكم نقصر في الأخذ بالأسباب الكونية، وكم نعتمد في طلب جلب النفع ودفع الضر على الأسباب المادية فقط.

فإذا كان للإنسان حاجة كأن يريد تحقيق أمر من الأمور، أو أصابته مصيبة من فقر أو مرض أو تسلط عدو، ونحو ذلك أنزل حاجته ومصيبته بالآخرين، مع الغفلة عن مسبب الأسباب وهو الله عز وجل الذي بيده حقًا جلب النفع ودفع الضر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأنعام:

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذا شطر بيت من «القصيدة الذهبية، في الحجة المكية، والزورة المحمدية» لمجد الدين جمال الإسلام محمد بن أبي بكر بن رشد البغدادي المتوفى سنة ٦٦٢هـ، ص٤٩، رقم (١١٩). وقد نسبت هذه القصيدة خطأً للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني المتوفى سنة ١١٨٢هـ، وألحقت بمنسكه في وصف الحج وأحكامه.
والبيت بتمامه:

إليّ فإني ربهم ومليكهم لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه

١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما بموت عاجل، أو غنى عاجل»(١).

ولقد أحسن القائل:

وإذا شكوت إلى الأنام فإنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم(٢)

وقال المتنبي(٣):

لا تشكونّ لمخلوق فتورثه ... شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

ولكن ينبغي عدم الخلط بين شكوى الحال إلى الغير، وبين ما كان من باب المشورة والاستئناس برأي صديق محب، وناصح عاقل لبيب فيما قد يعرض للإنسان في حياته من أمور يحتاج فيها إلى ذلك، فإن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، فهذا ليس من الشكوى المنهي عنها، ومن هذا قول الشافعي(٤) رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يؤتاه عاصي

ولهذا قال الآخر:

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٤٥، والترمذي في الزهد ٢٣٢٦، وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

(٢) البيت ينسب لزين العابدين. انظر: «الكشكول» ١/ ٥٧. وينسب له وللشافعي. انظر: «عيون الأخبار» ٢/ ٢٨٤. وذكر في «بصائر ذوي التمييز» بلا نسبة ٣/ ٣٨١.

(٣) انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٦٢.

(٤) انظر: «ديوانه» ص٧٩.

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة   يواسيك أو يسليك أو يتوجع[(١)]

وكلنا يعرف قصة سلمان الفارسي مع أخيه أبي الدرداء رضي الله عنهما وزوجته رضي الله عنها كما في حديث أبي جحيفة عن أبيه رضي الله عنه قال: «آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كل. قال: فإني صائم قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصليا فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»[(٢)].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: دخلت عليّ خويلة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمية، وكانت عند عثمان بن مظعون، قالت: فرأى رسول الله ﷺ- بذاذة هيئتها، فقال لي: يا عائشة ما أبذ هيئة خويلة. قالت: فقلت يا رسول الله امرأة لا زوج لها، يصوم النهار ويقوم الليل، فهي كمن لا زوج لها، فتركت نفسها وأضاعتها. قالت: فبعث رسول الله ﷺ إلى عثمان بن مظعون، فجاءه. فقال: يا عثمان أرغبت عن سنتي؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب. قال: فإني أنام وأصلي، وأصوم، وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، فصم وأفطر، وصل ونم»[(٣)].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «دخل رسول الله ﷺ ذات يوم

(١) البيت لابن نباتة المصري. انظر: «ديوانه» ص٣١٥، ونسب أيضًا لبشار بن برد. انظر: «نهاية الأرب» ٣/ ٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٦٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٣.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٢٦٨.

المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة فقال: يا أبا أمامة ما لي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله قال: أفلا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله قال: «قل إذا أصبحت، وإذا أمسيت: اللهم أني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» قال: ففعلت ذلك فأذهب الله عز وجل همي وقضى عني ديني»[١].

والإنسان في هذه الحياة معرض لأنواع من المصائب والابتلاء في نفسه وأهله وولده وماله وغير ذلك، وقد تحيط به ظروف نفسية أو مرضية أو مالية أو اجتماعية ونحو ذلك يضيق بها ذرعًا وربما لو أحسن التعامل معها بتوفيق الله ثم بمشورة من يثق به من إخوانه لوجد بإذن الله عز وجل وعونه منها مخرجًا بدلًا من أن ينغلق المرء على نفسه وتحيط به الوساوس والهموم، وتحتوشه الشياطين، فمن ألمت به ملمة فلا بأس بعد اللجوء إلى الله عز وجل وسؤاله المخرج منها أن يستعين بمن يثق بهم من إخوانه من أهل الخبرة والتجربة والرأي السديد والنصح، وقد يكون الكثير منهم مر عليه مثل هذه المشكلة أو على غيره ممن يعرفهم وعرف أحوال الناس في هذا فيهوِّن على أخيه مصابه ويقوي ثقته بربه، وأن الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا مما هو فيه، كما قال عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦]، ويوجهه إلى فعل السبب المناسب بعد التوكل على الله عز وجل.

ولقد أحسن من قال:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم[٢]

ولقد ابتليت في أول عملي في التدريس- وقبل أن أجرب الناس- بزميل حصل منه

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٥٥.

(٢) البيتان لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» ٤/ ١٧٣.

بعض الأذى لي- عفا الله عني وعنه- فضقت ذرعًا بذلك، لأني لا أرى سببًا لذلك، وفكرت في الانتقال من ذلك العمل لأجل ذلك، فشرحت لأحد الإخوة من ذوي التجربة السبب الذي دعاني للتفكير في موضوع النقل، فقال لي هوِّن عليك هذا من تنافس الأقران فعرفت من حينها أن هذا الأمر- وإن كان لا يجوز- قد مر على غيري، وعرفت أن كل ذي نعمة محسود، فصبرت على ذلك وحمدت العاقبة بفضل الله وتوفيقه.

وذكر أحد الثقات أن أحد الإخوة تنكرت له زوجته بعد عشرة طيبة طويلة فشق ذلك عليه، واستشار أحد الإخوة المحبين من ذوي الخبرة والتجربة، فقال له هذا الأخ الخبير المجرب كيف أنت معها في أمر النساء «يعني الجماع»؟ فقال: لقد ركبتني ديون وهموم حتى أصبحت لا أهنأ بنوم، فكيف بأمر النساء، أي: ليس لي فيه عهد منذ زمن طويل، فقال له هذا الأخ المجرب: هذا هو السبب فيما حصل من زوجتك، فعاد الزوج معها في هذا الأمر بما تيسر له من أسباب فعادت العشرة الطيبة بينهما، وكما قيل:

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... خبير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له من ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب[1]

وهذا أمر جبلت عليه المرأة، وكذا الرجل هو الآخر يريد منها مثل ما تريد منه، فكل منهما مطالب بأداء حق الآخر، وكل فتور من أحدهما في حق الآخر، بل وفي الظهور أمامه بالمظهر الحسن، والرائحة الطيبة، والتلطف في كلام كل منهما للآخر هو سبب لبرود العلاقة بينهما.

عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، أن امرأة أتت عمر بن الخطاب بزوجٍ لها أشعث أغبر أصفر، فقالت له: يا أمير المؤمنين! لا أنا ولا هذا خلصني منه!. فنظر عمر إليه

---

(١) الأبيات لعلقمة بن عبدة الفحل الجاهلي، انظر: «غذاء الألباب» ١/ ٣٢٥، «المفضليات» ص٣٩٠ (١١٩)، «نهاية الأرب» ٣/ ٦٦.

فعرف ما كرهت منه، فأشار إلى رجلٍ وقال: اذهب به إلى الحمام فحممه وخذ من شعره، وقلم أظفاره وألبسه حلةً معافريةً، ثم ائتني به. فذهب به الرجل ففعل ذلك به ثم أتى به. فأومأ إليه عمر: أن خذ بيدها، فأخذ بيدها، فإذا هي لا تعرفه، فقالت: يا عبد الله، سبحان الله، أبين يدي أمير المؤمنين تفعل مثل هذا؟. فلما عرفتْه مضتْ[(١)].

ولهذا قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي، لأن الله تعالى ذكره قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾»[(٢)].

والأخبار في مثل هذا كثيرة مستفيضة، فكم من إنسان انغلق أمامه- بحسب تصوره- باب الرزق، أو الزواج أو زوال ما يعانيه من مشكلات مرضية أو نفسية أو اجتماعية، أو غير ذلك، فزال ذلك بتوفيق الله عز وجل وتيسيره بعد استشارة من يثق بهم من إخوانه من أهل النصح والمعرفة والتجربة.

وبالمقابل فكم من زوجين افترقا، وكم من والد وأولاده وإخوة وأقارب وجيران وأصحاب ساءت علاقاتهم وتنغصت حياتهم وتفاقم الخلاف بينهم وربما وصل الأمر بينهم إلى الهجران والتقاطع بسبب اختلاف لا يكاد يذكر وما أكثر هذا.

والسبب في هذا كله أن كثيرًا من المسلمين- وإن ولدوا في الإسلام وشبوا فيه وربما شابوا لم يربوا على ما جاء في القرآن الكريم من التوجيهات الإلهية، ولا على ما جاء في السنة المطهرة من التعاليم النبوية تجاه مشاكل الحياة وكيفية التعامل معها، فأصبح كل صاحب يريد الكمال من صاحبه والكمال في البشر نادر عزيز.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾، أي: والله يسمع ما جرى بينكما من حوار وضمير المثنى يعود إلى النبي ﷺ وإلى خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها.

---

(١) انظر: «أدب النساء» لعبد الملك بن حبيب، ص١٦٧ (٤٨).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/ ١٢٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢/ ٤١٧.

وفي هذا إثبات سماع الله عز وجل- لكلامهما معًا، كما أن في أول الآية إثبات سماع الله لكلامها هي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾، «إن» حرف توكيد ونصب، أي: إنه عز وجل ذو السمع الواسع؛ يسمع الدعاء ويجيبه، ويسمع النجوى، ويكشف البلوى، ويسمع جميع الأقوال والأصوات، السر والجهر عنده سواء؛ كما قال عز وجل: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك:١٣]، وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام:٣]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى:٧].

قال ابن القيم(١) في كلامه عن قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾: «فلا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب أنه نص صريح، لا يحتمل التأويل بوجه، في إثبات صفة السمع للرب- تعالى حقيقية، وأنه بنفسه سمع».

وقال أيضًا في «النونية» (٢):

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني

﴿بَصِيرٌ﴾، أي: ذو البصر المحيط بكل شيء، يبصر ويرى جميع المخلوقات، لا تخفى

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٥.

(٢) ص١٤٦.

عليه خافية منها، ولا من أعمال الخلق وأحوالهم وأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٦].

فهو عز وجل- يسمع ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

قال ابن القيم(١):

وهو البصير يرى دبيب النملة السـ ... ـسوداء تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويرى بياض عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ... ويرى كذاك تقلب الأجفان

فهو- سبحانه وتعالى- يسمع جميع الأقوال والأصوات، ويبصر ويرى جميع الكائنات والمخلوقات.

قال الشاعر:

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخ من بين العظام النُّحَّل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ... ما كان منه في الزمان الأول(٢)

قال السعدي(٣) في كلامه على الآية: «وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله سيزيل شكواها وبلواها».

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، «الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل

---

(١) في «النونية»، ص١٤٦.

(٢) الأبيات تنسب للزمخشري. انظر: «الكشاف» ١/ ١١٦، «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» ص٤٦٤، «ربيع الأبرار» ١/ ١٠، «المستطرف» ص٣٥٢، «الكشكول» ٢/ ٢٩١.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٠٨.

رفع مبتدأ، و«يظاهرون» صلة الموصول، وخبره: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾.

قرأ عاصم: ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء والهاء وألف بينهما في الموضعين، وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وتشديد الظاء وألف بعدها وتخفيف الهاء وفتحها: «يَظّاهرون».

وقرأ الباقون كذلك إلا أنه بتشديد الهاء من غير ألف قبلها: «يَظّهّرون».

ومعنى ﴿يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، أي: يقول أحدهم لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، أي: كما أنه يحرم عليَّ أن أركب ظهر أمي، وأن أطأها فكذلك أنت أيتها الزوجة يحرم عليِّ أن أركبك وأن أطأك.

وسُمي ظهارًا اشتقاقًا من الظهر، وقد كان هذا في الجاهلية يعد طلاقًا يحرم المرأة مطلقًا.

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية أنت عليَّ كظهر أمي حرمت عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها «خويلة» بنت ثعلبة فظاهر منها، فأسقط في يديه، وقال: ما أراك إلا قد حرمتِ عليّ، وقالت له مثل ذلك، قال: فانطلقي إلى رسول الله ﷺ فأتت رسول الله ﷺ فوجدت عنده ما شطة تمشط رأسه- فقال: «يا خويلة ما أمرنا في أمرك بشيء» فأنزل الله على رسوله ﷺ فقال: «يا خويلة أبشري» قالت: خيرًا فقرأ عليها: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾، قالت: وأي رقبة لنا؟ والله ما يجد رقبة غيري قال: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾، قالت: والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره! قال: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾ قالت: من أين؟ ما هي إلا أكلة إلى مثلها! قال: «فدعا بشطر وسق»-

ثلاثين صاعًا، والوسق: ستون صاعًا- فقال: «ليطعم ستين مسكينًا وليراجعك»(١).

وفي رواية عن مجاهد عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك، فلما ظاهر منها حسبت أن يكون ذلك طلاقًا فأتت رسول الله ﷺ- فقالت: يا رسول الله، إن أوسًا ظاهر مني، إن افترقنا هلكنا، وقد نثرت بطني منه، وقدمت صحبته، وهي تشكو ذلك وتبكي، ولم يكن جاء في ذلك شيء، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «أتقدر على رقبة تعتقها»؟ قال: لا، والله يا رسول الله ما أقدر عليها. قال: فجمع له رسول الله ﷺ حتى أعتق عنه، ثم راجع أهله» (٢).

والخطاب في قوله: ﴿مِنكُم﴾ للمؤمنين أمة الإجابة.

والمراد بـ﴿نِّسَآئِهِم﴾ زوجاتهم.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾، «ما» نافية عاملة عمل «ليس»، و«هن» اسمها مبني على الفتح في محل رفع، و«أمهات» خبرها منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم، وضمير «هم» مضاف إليه، أي: ليست أزواجهم أمهاتهم، ولا يمكن أن تكون أزواجهم أمهاتهم بمجرد هذا القول ونحوه، فنفى ما أثبتوه، وهذا تكذيب لهم.

والأمهات: جمع أم، أو جمع أمهة، وهي التي ولدت، ويدخل فيها الجدات وإن علون، من أي جهة كن، كما تدخل فيها الأمهات من الرضاع لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٨-٤٤٩. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٤: «إسناد جيد قوي، وسياق غريب».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٥. وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء:٢٣].

ولقوله ﷺ «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»(١).

﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾، «إن»حرف نفي بمعنى «ما»، أي: ما أمهاتهم.

﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: ما أمهاتهم حقيقة إلا اللائي ولدنهم، أو إنما أمهاتهم حقيقة اللائي ولدنهم.

فأبطل الله عز وجل أن تكون الزوجة أمًّا بمجرد الظهار، وبيَّن أن أم الشخص حقيقة هي التي ولدته، ثم بين نكارة هذا القول وكذبه وشده حرمته فقال:

﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ الواو عاطفة، و«إن» حرف توكيد ونصب والضمير «هم» اسمها مبني على السكون في محل نصب، وجملة ﴿لَيَقُولُونَ﴾ خبرها في محل رفع، واللام فيه للتوكيد.

﴿مُنكَرٗا﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: ليقولون قولًا منكرًا، أو مفعول ليقولون.

والمنكر: ما أنكره الشرع، وعُرْفُ المسلمين قولًا كان أو فعلًا.

وقدّم وصف القول بكونه منكرًا على الموصوف وهو القول إشارة إلى عظم نكارته وشدتها.

﴿وَزُورٗاۚ﴾، أي: وكذبا باطلًا، مزوّرا مخالفًا للحق، والزور من أكبر الكبائر.

ولهذا قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ثم قال: ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور، قال الصحابة- رضي لله عنهم- فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٤٥، ومسلم في الرضاع ١٤٤٧، والنسائي في النكاح ٣٣٠٥، وابن ماجه في النكاح ١٩٣٨- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٤، ومسلم في الإيمان ٨٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٠١- من =

فبين الله- عز وجل- أن الظهار كذب في ثلاثة مواضع الأول: في قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ فنفى ما أثبتوه، وهذا حقيقة التكذيب.

الثاني: في قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ والمنكر ما خالف الشرع والحق.

الثالث: في قوله: ﴿وَزُورٗا﴾ والزور الكذب.

وإذا كان الظهار منكرًا من القول وزورًا وكذبًا، فهو محرم غاية التحريم ومرتكبه آثم إثما عظيمًا.

قال ابن القيم(١): «الظهار حرام لا يجوز الإقدام عليه، لأنه كما أخبر الله عنه منكر من القول وزور، وكلاهما حرام، والفرق بين جهة كونه منكرًا وجهة كونه زورًا أن قوله: أنت عليَّ كظهر أمي يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاءه تحريمها، فهو يتضمن إخبارًا وإنشاءً، فهو خبرٌ زورٌ وإنشاءٌ منكرٌ، فإن الزور هو الباطل خلاف الحق الثابت».

وقال أيضًا(٢) بعد ما ذكر الاختلاف في قول المظاهر: أنت عليَّ كظهر أمي، هل هو إنشاء أو إخبار قال: «وفصل الخطاب أن قوله: أنت عليَّ كظهر أمي يتضمن إنشاءً وإخبارًا، فهو إنشاء من حيث قصد التحريم، وإخبار من حيث تشبيهها بظهر أمه، ولهذا جعله الله منكرًا من القول وزورًا، فهو منكر باعتبار الإنشاء، وزور باعتبار الإخبار».

وإنما كان الظهار قولًا منكرًا، فاحشًا شرعًا وعرفًا، وزورًا وكذبًا وباطلًا ومحرمًا غاية التحريم؛ لأن الزوجة لا تكون أمًّا بمجرد الظهار، ولا تطلق بمجرد الظهار، ولا تحرم على زوجها بمجرد ذلك.

=
حديث أبي بكرة- رضي الله عنه.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٩.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤١٨-٤١٩.

ولأن أمر التحليل والتحريم إلى الله عز وجل ولا يجوز للمسلم أن يحرم على نفسه شيئًا مما أباحه الله له، ولو حرم ذلك لم يكن حرامًا.

فقد قال عز وجل لنبيه ﷺ لما حرم على نفسه ﷺ العسل أو مارية القبطية[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ إلى قوله: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [التحريم: ١، ٢].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾، الواو: عاطفة، و«إن» حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة اسمها، و«عفو» خبرها، واللام للتوكيد، أي: وإن الله عز وجل لذو العفو الواسع، أي: ذو التجاوز عن ذنوب التائبين من عباده، فيمحوها، ولا يعاقبهم عليها.

قال ابن القيم[2]:

وهو العفو بعفوه وسع الورى لولاه غار الأرض بالسكان

بل إنه عز وجل يبدل سيئات التائبين حسنات، إذا صدقت توبتهم، كما قال عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان:٧٠].

وعفوه عز وجل عفو كامل مع القدرة على العقوبة، بخلاف عفو المخلوق فقد يكون عن ضعف وعدم قدرة ولهذا قرن الله- عز وجل- عفوه بالقدرة، فقال عز وجل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

﴿غَفُورٌ﴾ خبر ثان لـ«إن»، أي: ذو المغفرة الواسعة للتائبين من عباده، وهي: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة- كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما-

---

(١) كما جاء في سبب نزول الآيات. انظر مطلع سورة التحريم.

(٢) في «النونية» ص ١٤٨.

في المناجاة[١]. ومنه سمي «المغفر» البيضة التي توضع على الرأس في القتال، تستره وتقيه السهام.

وحيث اجتمع في هذه الآية وصف العفوِ والمغفرةِ، فالأولى «العفو» على التجاوز، وحمل «المغفرة» على الستر.

أو يحمل «العفو» على العفو عن ترك الواجب، و«الغفور» عن ارتكاب المحرم؛ لأن التأسيس أولى من التوكيد.

فهو عز وجل يتجاوز عن ذنوب التائبين من عباده، ويسترها عن الخلق.

وفي ختم الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إشعار بأن المظاهر قد عرَّض نفسه للإثم والعقوبة، لولا عفو الله- عز وجل- ومغفرته.

وبيان أن الله- عز وجل- عفوٌّ غفور لمن تاب إليه من هذا القول المنكر والزور وغيره، وعما خرج عن سبق اللسان من غير قصد ونحو ذلك.

قال ابن كثير[٢]: «﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، أي: عما كان منكم في حال الجاهلية وهكذا أيضًا عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم كما روى أبو داود أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقول لامرأته: يا أختي فقال: «أختك هي»؟

قال ابن كثير: فهذا إنكار، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك، لأنه لم يقصده، ولو قصده لحرمت عليه؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة، وما أشبه ذلك».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾.

بعد أن نفى الله- عز وجل- أن تكون الزوجات المظاهَر منهن أمهات لمن ظاهروا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٦٥.

منهن، وبيَّن أن أمهاتهم حقيقة هن اللاتي ولدنهم، وأن الظهار منكر من القول وزور وباطل بيَّن ما يلزم على الظهار من الكفارة لمن أراد العود إلى جماع زوجته.

قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾، أي: ثم يعودون ويرجعون للذي قالوه، أي: يعودون لجماع زوجاتهم، أو يعزمون على ذلك، وهذا يدل على أن الظهار لا يحرم الزوجة على زوجها، ولا يكون طلاقًا، إنما يحرم جماعها حتى يكفِّر.

عن سعيد بن جبير- رضي الله عنه قال: «كان الإيلاء والظهار طلاق الجاهلية، فوقَّت الله الإيلاء في أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة»(١).

وقيل: ثم يعودون إلى الظهار بعد تحريمه.

والصحيح القول الأول، وعليه جمهور السلف وأهل العلم، فالكفارة لا تجب بنفس الظهار، وإنما تجب بالعود إلى الجماع، والعزم عليه.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ خبر المبتدأ: ﴿وَالَّذِينَ﴾، ودخلت عليه الفاء لمشابهة المبتدأ للشرط، أي: فعليهم تحرير رقبة.

وتحرير الرقبة: تخليصها من الرق، بحيث تكون منافع الشخص الرقيق مملوكة له بعد أن كانت مملوكة لسيده، قال تعالى عن مريم عليها السلام أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥] أي: مخلصًا لعبادة الله، ولخدمة بيت المقدس.

والمراد بالرقبة: النفس المملوكة، ذكرًا كانت أو أنثى، ويشترط أن تكون الرقبة في كفارة الظهار مؤمنة؛ لقوله تعالى في كفارة القتل: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢].

ولحديث معاوية بن الحكم السلمي- رضي الله عنه- لما جاء إلى النبي ﷺ بتلك الجارية السوداء فسألها ﷺ- «أين الله»؟ قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٤.

رسول الله. قال ﷺ: «أعتقها فإنها مؤمنة»(١).

كما يشترط في الرقبة أن تكون سليمة من العيوب التي تجعلها معدومة المنافع؛ لأن التحرير معناه تمليك الرقيق منافع نفسه.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ المس: يطلق في القرآن الكريم على الجماع، كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

فقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾، أي: من قبل الجماع.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رجلًا قال: «يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفِّر فقال: «ما حملك على ذلك يرحمك الله»؟ قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر. قال: « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عز وجل»(٢).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «أتى رسول الله ﷺ رجل، فقال: إني تظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفِّر فقال رسول الله ﷺ «ألم يقل الله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾؟» قال: أعجبتني، قال: «أمسك حتى تكفِّر»(٣).

(١) أخرجه مسلم في المساجد ٥٣٧، وأبو داود في الصلاة ٩٣٠، والنسائي في السهو ١٢١٨، وأحمد ٥/ ٤٤٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢٢٢١، والنسائي في الطلاق ٣٤٥٧، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٩٩ وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

(٣) أخرجه البزار وقال: «لا يروى عن ابن عباس بأحسن من هذا» هكذا ذكره ابن كثير عنه في «تفسيره» ٨/ ٦٦.

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ الإشارة إلى ما سبق من أحكام الظهار، والتشديد فيه والميم للجماعة.

والموعظة: هي ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، والحث على فعل الطاعات، والزجر عن المعاصي.

وقد دلت الآيات على تحريم الظهار، بل على شدة تحريمه من وجوه خمسة:

الأول: وصفه بالمنكر.

والثاني: وصفه بالزور.

والثالث: إيجاب الكفارة فيه.

والرابع: الوعظ من الوقوع فيه.

والخامس: قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، وهذا إنما يكون عن الذنب.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم خبير.

و﴿خَبِيرٌ﴾ على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته عز وجل، أي: على سعة اطلاعه وعلمه بأعمالهم.

و«الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وإذا كان- عز وجل- مطلعًا على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فاطلاعه على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن اتقى الله وامتثل أمره، ووعيد لمن عصى الله وخالف أمره؛ لأن مقتضى خبرته بأعمال عباده أن يحاسبهم ويجازيهم عليها، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولا يظلم ربك أحدًا.

كما أن فيه إشارة إلى خبرته عز وجل التامة بأحوال العباد وما يصلحهم، ولهذا شرع لهم ما شرع من الأحكام التي فيها صلاحهم في الحال والمآل.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الفاء: استئنافية، و«من» اسم شرط جازم، و«لم» حرف نفي وجزم وقلب، و«يجد» فعل الشرط، أي: فمن لم يجد الرقبة، أو قيمتها.

﴿فَصِيَامُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فعليه صيام شهرين متتابعين، والجملة في محل جزم جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

﴿شَهْرَيْنِ﴾ مثنى «شهر»، والسنة اثنا عشر شهرًا، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦].

والشهر ثلاثون يومًا، أو تسعة وعشرون يومًا، كما قال ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما- أنه سمع رجلًا يقول: الليلة ليلة النصف فقال له: ما يدريك أن الليلة النصف سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشهر هكذا وهكذا، وأشار بأصابعه العشر مرتين، وهكذا في الثالثة، وأشار بأصابعه كلها، وحَبَس، أو خَنَسَ إبهامه»(١).

وفي حديث جابر رضي الله عنه: «فاعتزل النبي ﷺ نساءه شهرًا، تسعة وعشرين يومًا»(٢).

﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾، أي: متصلين، لم يفصل بينهما إفطار يوم أو أكثر لغير عذر من مرض أو سفر أو أيام يحرم صومها كيومي العيدين وأيام التشريق، وأيام الحيض والنفاس عند المرأة، وكذا لو فصل بينهما بصيام رمضان- فهذا كله لا يقطع التتابع.

فإن ابتدأ الصيام من أول الشهر كفاه إكمال شهرين حسب رؤية هلال كل واحد منهما، سواء كمل كل منهما، أو كان كل منهما تسعة وعشرين يومًا، أو كمل أحدهما

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٠٨، ومسلم في الصيام ١٠٨٠، وأبو داود في الصوم ٢٣١٩، والنسائي في الصيام ٢١٤٠

(٢) أخرجه مسلم في الصيام ١٠٨٤.

ونقص الآخر.

فالمعتبر كمال الشهرين دخولًا وخروجًا ولا يلزم كون ذلك ستين يومًا.

وإن ابتدأ الصيام في أثناء الشهر لزمه إكمال ستين يومًا.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾، أي: من قبل الجماع.

وكرر هذا لتوكيد وجوب التكفير عن الظهار قبل العودة إلى جماع الزوجة المظاهر منها ودواعيه من المباشرة ونحو ذلك، وذلك أدعى لإخراج الكفارة، بل وإلى المبادرة في إخراجها.

فإن عجز عن العتق وانتقل إلى الصيام حرم عليه وطؤها طيلة الشهرين، فإن وطئها فيهما انقطع التتابع، وقيل: لا ينقطع. والصحيح الأول.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾، أي: فمن لم يستطع صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكينًا لكل مسكين نصف صاع من الطعام؛ لقوله ﷺ لكعب بن عجرة في كفارة فدية الأذى: «هل عندك نسك؟» قال: ما أقدر عليه، فأمره أن يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين، لكل مسكينين صاع»[1].

واستحسن بعض أهل العلم أن يكون مع الطعام إدام، ولو غداهم أو عشاهم كفى.

والمسكين: هو الذي لا يجد كفايته أو لا يجد شيئًا، مأخوذ من السكون، وهو عدم الحركة لأن الفقر أسكنه وأذله. نسأل الله العافية.

ولا بد من استيفاء عدد «ستين مسكينًا» فإن لم يجد الستين أطعم من وجد بقدر إطعام ستين مسكينًا.

ولم يقل هنا ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ كما ذكره مع العتق والصيام، اكتفاء بذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٨١٤، ومسلم في الحج ١٢٠١، وأبو داود في المناسك ١٨٥٦، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٥١، والترمذي في الحج ٩٥٣، وابن ماجه في المناسك ٣٠٧٩ من حديث كعب بن عجرة- رضي الله عنه.

وعلى هذا فلا يجوز الجماع قبل التكفير مطلقًا.

وقيل: إذا كان التكفير بالإطعام جاز الجماع قبله؛ لأنه لم يقل مع الإطعام: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾. والصحيح الأول.

واختلف أهل العلم فيما إذا عجز عن الكفارة، هل تسقط عنه، أو لا؟ على قولين:

فمن أهل العلم من قال: لا تسقط بالعجز عنها، بل تبقى في ذمته، واستدلوا على هذا بأن النبي ﷺ أعان أوس بن الصامت بعَرَق من تمر، وأعانته زوجته بمثله حتى كفّر.

كما استدلوا بأن النبي ﷺ أعطى سلمة بن صخر لما جامع في نهار رمضان وعجز عن الكفارة عرَقًا من التمر من الصدقة، فلو كانت الكفارة تسقط بالعجز عنها لما تصدق عليهما ليخرجاها من الصدقة.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن الكفارة تسقط بالعجز عنها، كما تسقط الواجبات بالعجز عنها وعن أبدالها، واستدلوا على هذا بأن النبي ﷺ لما أمر سلمة بن صخر- رضي الله عنه- بالتصدق- بعَرَق التمر، قال له: «أعلى أفقر مني؟ والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتي » فقال له النبي ﷺ «أطعمه أهلك»(١) .

قالوا: فهذا يدل على سقوطها بالعجز، ولو لم تسقط عنه لما أمره بإطعامها لأهله؛ لأن الرجل لا يكون مصرفًا لكفارته، كما لا يكون مصرفًا لزكاته.

وأجاب بعض أهل العلم عن هذا بأنه إذا عجز عن الكفارة وكفر عنه غيره جاز أن يأكل منها هو وأهله لقصة سلمة بن صخر وغيره.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن سقوط الكفارة بالعجز خاص بكفارة الجماع في نهار رمضان لقصة سلمة بن صخر رضي الله عنه أما غيرها من الكفارات فلا تسقط

---

(١) سبق تخريجه.

بالعجز واختاره أبو البركات ابن تيمية رحمه الله[١].

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الإشارة لما شرع الله عز وجل من أحكام الظهار في الآيات السابقة، وما شرع فيها من الكفارة، واللام في قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ لام التعليل، أي: لأجل أن تؤمنوا بالله ورسوله.

والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، وضده الكفر.

والإيمان بالرسول ﷺ شهادة أنه محمد رسول الله، وذلك بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسم الله- عز وجل- بقوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم؛ لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله وطاعته، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

بخلاف باب المشيئة فلا يجوز فيه ذلك؛ لإنكاره ﷺ على من قال: «ما شاء الله وشئت» بقوله ﷺ: «أجعلتني والله عدلًا، بل ما شاء الله وحده»[٢].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر الله- عز وجل- من أحكام الظهار في الآيات السابقة، وإلى غير ذلك مما أنزل الله عز وجل من أحكام.

و«حدود» جمع حد، والحد: هو الشيء الفاصل بين شيئين، ومنه حدود الأرض وهي مراسيمها التي تفصل بعضها عن بعض.

وحدود الله تنقسم إلى قسمين: حدود أوامر وواجبات يجب فعلها، فلا يجوز تركها ولا تعديها، كما قال عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤٠٧-٤٠٨.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، وابن ماجه في الكفارات ٢١١٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والقسم الثاني: حدود نواهٍ ومحرمات يجب تركها وعدم الاقتراب منها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧].

والمشار إليه في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ القسمان، ففيه النهي عن الظهار، والأمر بالكفارة قبل المسيس.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الواو: عاطفة، «للكافرين» جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و«عذاب» مبتدأ مؤخر، و«أليم» صفة له.

وفي تقديم الخبر إفادة قصر العذاب الأليم على الكافرين وحصره فيهم؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

و«الكافرين»: الذين كفروا بالله فجحدوا وجوده وربوبيته وألوهيته، وأسماءه وصفاته وشرعه، أو شيئًا من ذلك، أو استكبروا عن الانقياد لذلك أو أعرضوا عنه، أو شكوا فيه. والكفر: ضد الإيمان.

و«العذاب» هو النكال والعقوبة.

و«أليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على شدة ألم عذابهم، وهو «فعيل» بمعنى «مفعل» أي مؤلم موجع حسًا ومعنى مؤلم حسًا للأجساد، ومؤلم معنى للقلوب.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات صفة السمع الواسع لله- عز وجل- وأنه سبحانه سمع قول المجادلة في زوجها وتحاورهما هي والرسول ﷺ ويسمع- عز وجل- جميع الأصوات والأقوال ويجيب الدعوات؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

٢- وجوب التحاكم إلى الله ورسوله، وأن المشتكى إلى الله- عز وجل- في جميع الأحوال فهو الذي ترفع إليه الشكوى ويكشف الضر ويرفع البلوى.

٣- ينبغي لمن أشكل عليه شيء من أمر دينه أن يسأل أهل العلم.

٤- جواز مخاطبة المرأة للرجال في حدود الحاجة والمعروف، وأن كلامها ليس بعورة.

٥- إثبات أنه- عز وجل- ذو البصر التام المحيط بكل شيء، ورؤيته واطلاعه على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿بَصِيرٌ﴾.

٦- أن الظهار من الزوجات لا يحرمهن ولا يجعلهن بحكم أمهات الأزواج وإنما أمهاتهم اللاتي ولدنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾.

٧- أن الظهار منكر شديد من القول وزور من أكبر الكبائر، ومحرم غاية التحريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

٨- إثبات صفة العفو التام والمغفرة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

٩- تحريم جماع الزوجة المظاهر منها قبل إخراج الكفارة، وهي عتق رقبة، فإن لم يجد الرقبة أو ثمنها فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع الصيام أطعم ستين مسكينًا لكل مسكين نصف صاع من الطعام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾.

١٠- يشترط في تحرير الرقبة أن تكون الرقبة سليمة من العيوب المؤثرة على منافعها، لأن معنى تحريرها تمليكها منافعها، كما يشترط أن تكون مؤمنة قياسًا على كفارة قتل الخطأ.

١١- حرص الإسلام على تحرير الرقيق وتخليصه من الرق، لهذا أوجب تحرير رقبة في كفارة الظهار، كما أوجبها في كفارة القتل، والجماع في نهار رمضان، وخيّر بينها وبين الإطعام والكسوة في كفارة اليمين.

١٢- وعظ الله- عز وجل- للمؤمنين بما أنزل من إبطال الظهار وتحريمه وتغليظ كفارته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾.

١٣- إثبات سعة علمه- عز وجل- وخبرته واطلاعه على أعمال العباد، وفي هذا وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

١٤- أن من لم يجد الرقبة أو لم يجد قيمتها فعليه صيام شهرين متصلين لا يفصل بينهما إفطار يوم أو أكثر لغير عذر من مرض أو سفر أو أيام يحرم صومها كيومي العيدين وأيام التشريق وأيام الحيض والنفاس عند المرأة، وكذا لو تخللها صيام شهر رمضان فلا يقطع التتابع.

١٥- إذا لم يستطع المظاهر صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكينًا لكل مسكين نصف صاع من الطعام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾. واختلف أهل العلم فيما إذا عجز عن الإطعام: فقال بعضهم: تسقط، وقال بعضهم: تبقى في ذمته. والأول أظهر؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

١٦- عناية الإسلام بالمساكين وحرصه على سد حاجتهم، لهذا أوجب في كفارة الظهار إطعام ستين مسكينًا على من لم يستطع التحرير والصيام.

١٧- يسر الإسلام وسماحة أحكامه حيث تدرج بمن لم يستطع التحرير إلى الصيام، وبمن لم يستطعهما إلى الإطعام.

١٨- أن الله- عز وجل- شرع أحكام الظهار، وما يترتب عليه من الكفارة وغير ذلك لأجل الإيمان به ورسوله واتباع شرعه والوقوف عند حدوده فعلًا للواجبات واجتنابا للمنهيات؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

١٩- جواز عطف وصف الرسول ﷺ على لفظ الجلالة بالواو التي تقتضي التشريك في باب الإيمان والطاعة بخلاف باب المشيئة.

٢٠- أن ما شرعه الله عز وجل من أحكام الظهار وغيرها، هي حدود الله تعالى،

أي: أوامره التي يجب امتثالها، ولا يجوز تعديها، ونواهيه التي يجب تركها، ولا يجوز قربها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

٢١- الوعيد والتهديد للكافرين بالعذاب الأليم؛ عذاب حسي للأبدان، وعذاب معنوي للقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُوا۟ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

في هذه الآية والتي بعدها وعيد شديد وتهديد أكيد لمن حادّ الله ورسوله وكفر بآياته.

والمحادة: المشاقة والمخالفة والمعاندة، مأخوذة من الحد؛ لأن المشاق والمخالف المعاند يأخذ حدًا غير حد الآخر ويكون بالحد المقابل والمخالف.

فمعنى ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، أي: يشاقون ويخالفون ويعاندون الله ورسوله، وذلك بمخالفة أمر الله ورسوله، وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسمه عز وجل «الله» بالواو؛ لأن محادة الرسول ﷺ من محادة الله عز وجل، كما أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

﴿كُبِتُوا۟﴾ خبر «إن» في محل رفع، أي: أهينوا وأذلوا وأخزوا وأغيظوا وأهلكوا.

﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الكاف بمعنى «مثل»، وهي صفة لمصدر محذوف.

أي: كبتًا مثل كبت الذين من قبلهم، أي: كما أهين وأذل وأهلك الذين من قبلهم من أشباههم من المحادين لله ورسله.

وفي هذا توكيد لقوله: ﴿كُبِتُوا۟﴾ وبيان أن هذه سنة الله- عز وجل- في المحادين له ولرسله، وإشارة إلى كمال قدرته عز وجل على ذلك.

فالذي أهان وأذل المحادين السابقين هو أقدر على إهانة المحادين اللاحقين من باب أولى، كما قال عز وجل في البعث ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُا۟ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ

عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم:٢٧]، وقال عز وجل: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٥]،

وهذه الآية كقوله: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُ﴾ [سبأ: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

فقد أكد الله- عز وجل- هذا الوعيد والتهديد للمحادين له ولرسوله بمؤكدات ثلاثة الأول: «إن»، والثاني: كون الجملة اسمية- وهذان لفظيان، والثالث: قوله: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وهذا مؤكد معنوي.

﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ﴾ توعد الله عز وجل المحادين له ولرسوله ﷺ بالكبت والإهانة والإذلال، ثم بين في قوله: ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ﴾ بأنه عز وجل قد أقام الحجة عليهم بإنزال الآيات، فلا حجة ولا عذر لهم في محادة الله ورسوله، والمخالفة والاستكبار والعناد.

والواو في قوله: ﴿وَقَدۡ﴾ حالية، و«قد» للتحقيق، أي: والحال أنا قد أنزلنا آيات بينات.

﴿ءَايَٰتِۢ﴾ جمع آية، والآية في اللغة: العلامة والدلالة.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، والمراد بها هنا الآيات الشرعية وهي القرآن الكريم.

﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ صفة لـ﴿ءَايَٰتِۢ﴾، أي: آيات واضحات مفصلات، كما قال عز وجل: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧].

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ﴾ سبق الكلام عليه.

وقوله: ﴿مُّهِينٞ﴾ صفة لـ«عذاب» ومعنى «مهين»، أي: يهينهم ويخزيهم ويذلهم

لاستكبارهم عن الإيمان بالله واتباع شرعه والانقياد والخضوع له، وهوان أمر الله عليهم، فجوزوا بالعذاب المهين لهوانهم على الله، والجزاء من جنس العمل.

فيجمع للكافرين بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي:

العذاب الحسي، كما قال الله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو ما يقاسونه من آلام العذاب في أجسامهم بإدخالهم النار وإصلائهم فيها، كما قال تعالى: ﴿جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨].

والعذاب المعنوي القلبي النفسي ما يلاقونه من الهوان والخزي والذل وتحطم المعنويات، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾﴾ [الهمزة: ٤- ٧].

فهي تحطم كل شيء فيها تحطيمًا حسيًا، وتحطم القلوب تحطيمًا معنويًا، وتطلع عليها فتذلها وتهينها وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾، «يوم» ظرف زمان منصوب، متعلق بـ «مهين».

أي: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فكأنه قيل متى ذلك، فقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾.

وذلك يوم القيامة يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، كما قال عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ الإنباء: الإخبار بأمر عظيم، وما أعظم هذا الخبر، الذي يترتب عليه الشقاء الأبدي في نار جهنم- نسأل الله السلامة.

و «ما» موصولة أو مصدرية، أي:، فيخبرهم بالذي عملوه، أو بعملهم من خير وشر قولًا كان أو فعلًا.

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، أي: عده وكتبه، وضبطه وحفظه عليهم، وأحاط به كمًا وكيفا، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿وَنَسُوهُ ۚ﴾ الواو: عاطفة، أي: وهم قد نسوا ما عملوه في غمرة اللهو والسهو والغفلة، أشبه بحال من يستدين فما درى حتى أثقلته الديون وعجز عن الوفاء.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ قدم المتعلَّق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلَّق به وهو قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾؛ لتأكيد شهادته عز وجل على كل شيء.

أي: والله على كل شيء من الأشياء كبيرًا كان أو صغيرًا خفيًا كان أو جليًا، دقيقًا كان أو جليلًا.

(شهيد)، أي: مطلع شاهد رقيب حاضر، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء ولا ينسى شيئًا كما قال عز وجل: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ

مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ توكيد لقوله قبله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، أي: فينبئهم بأعمالهم التي أحصاها عليهم؛ لأنه عز وجل على كل شيء شهيد مطلع رقيب.

ثم أكد عز وجل اطلاعه وشهادته على كل شيء بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ الآية.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ للتقرير، أي: قد رأيت، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له. والرؤية هنا رؤية علمية أي: ألم تعلم بما أوحى الله إليك.

﴿تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، «ما» موصولة، تفيد العموم، أي: أن الله يعلم كل الذي في السموات والذي في الأرض، وكرر «ما» في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دون أن يقول: «يعلم ما في السموات والأرض»؛ لتأكيد شمول علمه عز وجل كل ما في السموات وما في الأرض.

﴿مَا يَكُونُ﴾، «ما» نافية. قرأ أبو جعفر بالتاء على التأنيث: «ما تكون»، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: ﴿مَا يَكُونُ﴾.

﴿مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ النجوى: السر والتناجي بينهم، أي: ما يكون من سر وتناج بين ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾، ولم يقل: «من نجوى اثنين»؛ لقوله: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿نَّجۡوَىٰ﴾ نفس المتناجين، فتكون ﴿نَّجۡوَىٰ﴾ صفة لموصوف محذوف، تقديره: أناسٍ نجوى، و«إلا» في المواضع الثلاثة للحصر.

﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ قرأ يعقوب «أكثرُ» بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب ﴿أَكۡثَرَ﴾، أي: ولا أقل من ذلك العدد وهما الاثنان، ولا أكثر منه، أي: سبعة فما فوق

﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ بعلمه وإحاطته، ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾، أي: في أي مكان كانوا، فهو معهم؛ يرى مكانهم، ويعلم أحوالهم، ويسمع سرهم ونجواهم، كما قال عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٨].

وأيضا فإن رسله الكرام الكاتبين يكتبون عليهم ذلك، كما قال عز وجل: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

قال ابن كثير(١): «حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضا مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء».

وهذا مما يوجب على العباد مراقبة الله- عز وجل- في السر والعلن؛ لأنه- عز وجل- معهم بعلمه وسمعه وبصره، يرى مكانهم، ويبصر أفعالهم، ويسمع أقوالهم، والمصيبة أن أهل الضلال والابتداع لم يأخذوا من هذا إلا القول بالحلول والاتحاد. تعالى الله عن ذلك.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، «ثم» عاطفة، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: ثم يخبرهم الله بالذي عملوه، أو بعملهم، من المناجاة بينهم وغير ذلك يوم القيامة، ويحاسبهم ويجازيهم على ذلك.

وسُمي يوم القيامة بهذا الاسم؛ لقيام الناس فيه من قبورهم، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

ولقيام الأشهاد فيه من الرسل والمؤمنين وغيرهم، كما قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

ولقيام الروح والملائكة فيه صفًا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا،

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٦٧.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] ولقيام الحساب، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ولقيام العدل الحقيقي في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي: إن الله عز وجل محيط علمًا بجميع الأشياء كبيرها وصغيرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، وقد أكد عز وجل شمول علمه وإحاطته بكل شيء في هذه الآية بثلاثة مؤكدات هي: «إن»، وتقديم المتعلقين، وهو قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وكون الجملة اسمية.

و﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع المحيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

كما قال موسى عليه السلام- لما سئل عن القرون الأولى-: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

أي: لا يعتري علمه جهل سابق، ولا نسيان لاحق، بخلاف علم المخلوق الضعيف.

وقد افتتح الله- عز وجل- هذه الآية بالعلم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ ثم ختمها بالعلم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا توكيد سعة علم الله عز وجل وشموله وعمومه.

الفوائد والأحكام:

١- إذلال الله- عز وجل- وإهانته للمحادين له ولرسوله المخالفين لشرعه، كما

أذل وأهان المكذبين قبلهم، سنة الله في المكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢- أن المحادة لله محادة لرسوله، كما أن محادة الرسول ﷺ محادة لله- عز وجل. وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٣- إقامة الله- عز وجل- الحجة على الخلق بما أنزل من الآيات الشرعية البينة الواضحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

٤- إثبات علو الله على خلقه، فله- عز وجل- علو الذات وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾.

٥- إثبات أن القرآن منزل من عند الله- عز وجل- غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

٦- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين بالعذاب الذي يهينهم ويذلهم يوم القيامة، عذاب حسي ينصب على الأجساد، وعذاب معنوي ينصب على القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٧- إثبات المعاد، وبعث الله للخلائق جميعًا يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾.

٨- إخبار الله- عز وجل- الكافرين، يوم القيامة بأعمالهم ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾.

٩- إحصاء الله- عز وجل- لجميع أعمال العباد وضبطه لها وإن نسوها؛ لقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

١٠- إثبات شهادة الله- عز وجل- واطلاعه على كل شيء، مما يوجب مراقبته- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

١١- إثبات علم الله- عز وجل- الواسع وإحاطته بما في السموات وما في الأرض، وبمناجاة الخلائق، وأنه عز وجل مع الخلق كلهم معية عامة بعلمه وإحاطته وسمعه وبصره أينما كانوا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾.

١٢- إثبات القيامة، وإخبار الخلائق بأعمالهم ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها، والوعد لمن أحسن العمل، والوعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١٣- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل، وشمول علمه لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

رُويَ عن مجاهد[1] وغيره أن هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ نزلت في اليهود نُهوا عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إليها.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- «أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه: سام عليك فنزلت» يعني الآية[2].

وقال الواحدي:[3] «قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في اليهود والمنافقين؛ وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا قد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلا يزالون كذلك، حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فنهاهم أن يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية».

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتقرير، أي: قد رأيت، وفيه معنى التعجب. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٦٩- ٤٧٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٣.

(٣) في «أسباب النزول» ص٢٧٥.

والمعنى: ألم تشاهد وتنظر إلى الذين نهوا عن النجوى، أي: إلى الذين نهاهم الله ورسوله عن النجوى، وتعلم حالهم، من اليهود والمنافقين وغيرهم.

وقال: «نهوا» ولم يقل: «نهاهم الله، أو نهاهم الله ورسوله»؛ لتعظيم هذا النهي فكأن كلًا نهاهم عن ذلك.

و«النجوى» هي المسارَّة بين اثنين فأكثر، وهي مصدر بمنزلة المناجاة، قال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٩].

وقال ﷺ: «إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث»[1].

أي: لا يتسار اثنان دون الثالث.

وتطلق النجوى على جماعة المتناجين، فتكون مصدرا بمعنى الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ [الإسراء: ٤٧] أي: وإذ هم جماعة نجوى، أو متناجون.

وكقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

أي: ما يكون من متناجين ثلاثة إلا وهو رابعهم.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، أي: ثم يعودون ويرجعون للذي نهوا عنه وهو النجوى.

﴿وَيَتَنَاجَوْنَ﴾ الواو: عاطفة قرأ حمزة: «وينْتَجُون» بنون ساكنة بعد الياء وضم الجيم من غير ألف.

وقرأ الباقون بتاء ونون مفتوحتين وبعدهما ألف وفتح الجيم: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ﴾.

أي: ويتحدثون إما سرًا فيما بينهم، وإما جهرًا، حسب الأحوال والمناسبات والظروف.

﴿بِالْإِثْمِ﴾، أي: بالذنب، وما يوجب تأثمهم بأنفسهم.

---

(١) سيأتي تخريجه.

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، أي: والعدوان على الآخرين والإضرار بهم والتعدي عليهم.

﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾، أي: ومخالفة الرسول ﷺ في أمره ونهيه.

و«ال» في ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ.

ومعصية الرسول ﷺ من الإثم والعدوان، كما أن الإثم والعدوان من معصية الرسول ﷺ.

وفي هذا التفصيل بيان أنهم أضروا بأنفسهم حيث أوقعوها في الإثم، وأضروا بالآخرين واعتدوا عليهم، وعصوا الرسول ﷺ وخالفوا أمره في ذلك كله، ولم ينتهوا عما نهوا عنه بل أصروا على ذلك.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

عن عائشة رضي الله عنها- قالت: دخل على رسول الله ﷺ- يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقالت عائشة: وعليكم السام. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش». قلت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا ترينني قلت: وعليكم»؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾. وفي رواية أنها قالت: عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول الله ﷺ قال: «إنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا»(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٣٥، وفي الأدب ٦٠٢٤، ومسلم في السلام- النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم ٢١٦٥، والترمذي في الاستئذان ٢٧٠١، وابن ماجه في الأدب ٣٦٩٨، وأحمد ٦/ ٣٧، ٢٢٩، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٧٥.

يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾»(١).

أي: وإذا جاءك- يا محمدُ- اليهودُ، أو هم والمنافقون، حيوك وسلموا عليك بالذي لم يحيِّك به الله.

فهم عليهم غضب الله إذا جاؤوا إلى الرسول ﷺ حيّوه بما لم يحيه به الله. فبدل أن يحيوه بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يحيونه بقولهم: السام عليك، أو السام عليكم. ويقصدون بالسام الموت، فهم يدعون عليه ﷺ بالموت. بدل أن يدعوا له بالبقاء والسلامة الذي هو المعنى الحقيقي للتحية في الإسلام.

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، أي: معتقدين هذا القول في قلوبهم، وداخل أنفسهم.

﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾، «لولا» حرف تحضيض، والباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ للسببية و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي نقول، أو بقولنا

أي: لو كان هذا نبيًا حقًّا؛ لعذبنا الله، أي: لعاجلنا الله بالعذاب والعقوبة في الدنيا ﴿بِمَا نَقُولُۚ﴾، أي: بسبب الذي نقوله له من التحية بما لم يحيه به الله، بقولنا: السام عليك، بدل السلام عليكم؛ لأن الله يعلم ما نسره، فرد الله عليهم بقوله:

﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

وفي فحوى هذا الرد من الله عز وجل عليهم إرغام أنوفهم من جهتين:

الأولى: الإشارة إلى حقيقة نبوته ﷺ؛ لأن الله- عز وجل- تولى الدفاع عنه.

والثانية: الوعيد والتهديد لهم، وأن الله يمهل ولا يهمل، فالعذاب ينتظرهم يوم القيامة، وهو أكبر وأشد وأبقى من عذاب الدنيا.

ومعنى ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ تكفيهم جهنم، فهي مردهم ومآلهم وفيها أعظم العذاب

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٧٠. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «إسناده جيد» وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٩: «إسناد حسن ولم يخرجوه».

لهم وأشده.

و«جهنم» اسم من أسماء النار سميت به لجهمتها وظلمتها وبُعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾، أي: يغمرون فيها ويقاسون حرها ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، «بئس» بمعنى: ساء وقبح، و﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: المرجع والمآل والمنقلب.

والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: فبئس المصير النار.

والمعنى: تكفيهم جهنم عذابًا يدخلون فيها، ويغمرون في دركاتها ويقاسون حرها، فبئس المرجع والمآل النار.

ثم حذر الله- عز وجل- المؤمنين ونهاهم عن مسلك اليهود والمنافقين ومن شابههم فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ سبق الكلام عنه، وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»(١).

﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾، أي: إذا حصل بينكم مناجاة أو أردتم التناجي بينكم سرًا، أو جهرًا.

﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ﴾، أي: فلا تتناجوا بالإثم وهو الذنب الذي يؤثمكم بأنفسكم.

﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ على غيركم.

﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾، أي: ومخالفة الرسول ﷺ في أمره ونهيه.

---

(١) سبق تخريجه.

قال ابن كثير(١): «كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب، ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين».

﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، أي: وتحدثوا فيما بينكم سواء كان ذلك سرًا أو جهرًا بالبر والتقوى.

و «البر»: كلمة جامعة لكل خصال الخير الظاهرة والباطنة قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷺ: «**البر حُسن الخلق**»(٢)، «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب»(٣).

والتقوى أن يجعل الإنسان بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

والمراد بالبر في هذه الآية فعل ما أمر الله به من الواجبات والمستحبات من أنواع الطاعات، والمراد بالتقوى: ترك واجتناب ما نهى الله عنه من أنواع المعاصي.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «البر ما أُمرتَ به، والتقوى: ما نُهيتَ عنه»(٤).

وذلك لأن البر والتقوى من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت، كالإسلام والإيمان، والفقير والمسكين، ونحو ذلك.

فإذا جاءت كلمة «البر» وحدها حملت على فعل المأمورات وترك المنهيات.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٦٩.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٥٣، والترمذي في الزهد ٢٣٨٩- من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣- من حديث أبي ثعلبة الخشني- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان»٨/ ٥٢- ٥٣. وانظر «جامع العلوم والحكم» صـ ٣٠٦.

وكذلك إذا جاءت كلمة «التقوى» وحدها حملت على فعل المأمورات وترك المنهيات، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ٨].

ويؤيد التداخل بين البر والتقوى قول الله عز وجل في سورة البقرة ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ [الآية: ١٨٩].

فنهى الله- عز وجل- المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وحرم ذلك عليهم، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى، وما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أشبه بعطف العام على الخاص، أي: واتقوا الله في جميع أموركم من المناجاة وغيرها بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، أي: الذي إليه حشركم وجمعكم، فيحاسبكم على أعمالكم وأقوالكم ويجازيكم عليها.

وفي الأمر بتقوى الله- عز وجل- مع قرن ذلك بتذكير العباد بأنهم إليه يحشرون ما يوجب المسارعة إلى تقوى الله- عز وجل- حيث إليه المرد والمحشر والمصير، وإليه مآل جميع الخلائق، وعليه حسابهم.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠﴾

نهى الله عز وجل في الآية السابقة المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى، ثم بين عز وجل أن النجوى المنهي عنها من الشيطان؛ ليحزن الذين آمنوا، وبيّن أن ذلك ليس بضارهم شيئًا إلا بإذن الله عز وجل، وأمرهم بالتوكل عليه سبحانه.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، «إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، والمراد بـ«النجوى»: المسارة.

﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، أي: من عمله وتسويله ووساوسه وهمزاته وتزيينه ذلك للمتناجين من المنافقين واليهود وغيرهم.

﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يحزن الذين آمنوا، أو لكي يحزن الذين آمنوا، أي: يصيبهم بالحزن ويسوءهم حيث يتوهم من يرى المتناجين أنهم يقصدونه بسوء، ففيها أذية للآخرين لحزنهم بذلك، وحملهم على سوء الظن بالمتناجين، ووضع المتناجين أنفسهم موضع الريبة والاتهام.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يحزنه**» **وفي رواية** «**دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه**»(١).

﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا﴾، أي: وليس بضارهم التناجي شيئًا.

و﴿شَيۡـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، أي: وليس بضارهم أيَّ شيء، أيًّا كان، ومهما قلَّ.

﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، «إلا» أداة استثناء.

و«إذن الله» ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وهو المراد هنا ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وإذن شرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾ [الحج: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان ٦٢٨٨، ومسلم في السلام ٢١٨٣، وأبو داود في الأدب ٤٨٥١، وابن ماجه في الأدب ٣٧٧٦

أي: وليس بضارهم التناجي بين المنافقين وغيرهم ﴿شَيْـًٔا﴾ مهما كان إلا بإذن الله- عز وجل- وتقديره الكوني، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وهذا مما يقوي قلب المؤمن وثقته بربه- عز وجل-، ولهذا قال بعده:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

والتوكل على الله: هو صدق الاعتماد على الله عز وجل في جلب النفع ودفع الضر- مع تمام الثقة بالله، وسكون القلب إليه وحده دون غيره.

وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لبيان أن التوكل والاعتماد يجب أن يكون على الله وحده دون سواه.

فتأمل أخي الكريم سمو مبادئ الإسلام ورفعتها واحذر من مسلك النجوى والمسارة في الكلام أمام الآخرين، واعلم أنه من عمل الشيطان لما يسببه ذلك من إدخال الحزن في قلوبهم، ووقوعهم في إساءة الظن فيك، ووضعك نفسك موضع الشك والريبة والاتهام، وفي الأثر «رحم الله امرأً كف الغيبة عن نفسه»، أي: فلم يضعها موضع الاتهام.

فما أحلى وأحرى أن يبتعد المرء عن كل ما من شأنه أن يجعله موضع الريبة والشك، وهذا من حق نفسه وواجبها عليه، قال المتنبي(١):

يهون علينا أن تصاب جسومنا ... وتسلم أعراض لنا وعقول

وإن رأيت أخي الكريم من يسلك هذا المسلك فذكره بأن هذا من عمل الشيطان، ولا يحزنك ذلك في نفسك، واعلم أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله عليك، وفوِّض أمرك إلى الله واعتمد عليه يكفك من كل سوء.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٣٦٠.

الفوائد والأحكام:

١ - النهي عن النجوى والمسارة بين اثنين أو بين فريقين دون الثالث مما يجعل الثالث يسيء الظن بالمتناجين، ويظن أنه المقصود بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾.

٢- التعجب من حال الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون إليها من اليهود والمنافقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

٣- تناجي اليهود والمنافقين وغيرهم من الكفار بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ؛ كيدًا منهم للرسول ﷺ ولدعوته وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

٤- مخادعة المنافقين واليهود- لعنهم الله- للرسول ﷺ وتحيتهم له بما لم يحيه به الله، بل بالدعاء عليه بالموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

٥- انخداع اليهود- المغضوب عليهم والمنافقين- بعدم معاجلتهم بالعقوبة بسبب تحيتهم للرسول ﷺ بالدعاء عليه في الباطن؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾.

٦- دفاع الله- عز وجل- عن نبيه ﷺ، والوعيد الشديد لليهود والمنافقين بأن في جهنم كفاية لهم في العذاب وبئس المصير لهم، وأن الله عز وجل يمهل ولا يهمل؛ لقوله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٧- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٨- نداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تكريمًا وتشريفًا لهم، وحضًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده يعد من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

٩- نهي المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

١٠- وجوب تقوى الله- عز وجل- والحذر من التشبه باليهود والمنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

١١- إثبات المعاد وحشر العباد إلى الله والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

١٢- التحذير من النجوى وأنها من عمل الشيطان وتزيينه؛ لأجل أن يحزن الذين آمنوا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١٣- ينبغي للمؤمنين عدم الاكتراث بالمتناجين من المنافقين واليهود وغيرهم، فإنه لن يصيبهم إلا ما أذن الله به كونا وقدره عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- وجوب الاعتماد على الله والثقة به والتوكل عليه، وأن ذلك من شرط الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾.

رُوي عن قتادة وابن زيد ومقاتل وغيرهم أن الصحابة رضي الله عنهم- إذا كانوا عند رسول الله ﷺ ضنوا بمجالسهم عنده ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض(١).

قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ﴾، «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، «قيل» فعل الشرط.

﴿تَفَسَّحُواْ﴾، أي: توسعوا.

﴿فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ قرأ عاصم: ﴿فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ على الجمع، وقرأ الباقون: «في المجلس» على الإفراد.

﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾ جواب الشرط، وقرن بالفاء لأنه جملة طلبية ، أي: فتوسعوا.

والمعنى: إذا قيل لكم توسعوا في المجالس فتوسعوا فيها ليجد القادم مكانًا للجلوس، وهو شامل لمجلس الرسول ﷺ وغيره من مجالس العلم والقتال وغيرها.

وهو أدب رفيع من آداب الإسلام، يؤلف بين القلوب، ويجلب المحبة، ويحقق معنى الأخوة.

ولك أن تتصور مدى غبطة من فسح له إخوانه للجلوس بينهم ومدى محبته لهم يود أن يفتح لهم صدره.

وفي المقابل لك أن تتصور من جاء ليجلس فقوبل بالأنانية وحب الذات ولم يفسح له، ما مدى كراهته لهم.

(١) أخرجه عن قتادة وابن زيد الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٧٧- ٤٧٨، وأخرجه عن مقاتل ابن أبي حاتم مطولًا في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٣- ٣٣٤٤.

وفي قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ بهذه الصيغة دلالة على أنه ينبغي امتثال ما جاء في الآية من الأمر بالتفسح أيًا كان القائل، فلا يلزم أن يكون القائل ذا مكانة، بل يجب التفسح لكل من طلب ذلك، ولكل من يريد الجلوس، ما أمكن ذلك.

﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾، أي: يوسع الله لكم، وهذا يدل على أن الجزاء من جنس العمل، كما قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ولم يقل: «يفسح الله لكم في المجالس» ليشمل هذا الوعد من الله- عز وجل- الفسحة والتوسعة في كل شيء من أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم، في أعمالهم وأعمارهم وأولادهم وأهليهم وأرزاقهم وأموالهم وصدورهم، وفي منازلهم في الجنة؛ وفي كل شيء، فلله الفضل والمنة- يعطي الجزيل على القليل.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا»[١].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم»[٢].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة، ولكن ليقل: افسحوا»[٣].

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما»[٤].

(١) أخرجه مسلم في السلام- تحريم إقامة المسلم من موضعه المباح الذي سبق إليه ٢١٧٧.
(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٣٨، ٤٣٨، ٥٢٣.
(٣) أخرجه الشافعي في «الأم» ١/ ١٨١،، وفي مسنده انظر: مسند الشافعي على الأم ٦/ ١٠٣.
(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٤٥، والترمذي في الأدب ٢٧٥٢.

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم بضم الشين في الموضعين. وقرأ الباقون بكسرها.

والنشوز في اللغة: الارتفاع، ومنه يقال للأرض المرتفعة: نشز، ونشاز، ومنه يقال للمرأة المرتفعة على زوجها المتعالية عليه: «ناشز» وكذلك يقال للرجل إذا تعالى وارتفع على زوجته، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء: ١٢٨].

والمعنى: وإذا قيل ارتفعوا وانهضوا من مجالسكم فارتفعوا وانهضوا منها سواء كان النهوض لقتال عدو، أو لصلاة، أو لأي عمل خيري، أو لانتهاء المجلس، أو ليجلس من جاءت نوبته في المجلس إذ قد يكون المجلس صغيرًا، والمصلحة تستدعي جلوس القادمين ونهوض الجالسين وارتفاعهم فيكون الجلوس فيه بالتناوب ليحصل كل على نوبته ويأخذ حاجته، بل إن هذا التناوب ينبغي أن يكون في المسجد إذا كان صغيرًا لا يتسع أن يصلي فيه الناس جماعة واحدة، بحيث يصلي فيه جماعة، ثم يخرجون ثم يصلي من بعدهم وهكذا.

وليس معنى ذلك أن يقام الإنسان من مجلسه ويجلس فيه، فهذا لا يجوز قال ﷺ: «لا يقيمن الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه»[١]. بل قال ﷺ: «إذا قام أحدكم من المجلس ثم رجع إليه فهو أحق به»[٢].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه[٣].

قال ابن كثير[٤]: «وفي الحديث المروي في السنن: أن رسول الله ﷺ- كان يجلس حيث انتهى به المجلس. ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، وكان الصحابة-

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في السلام- إذا قام من مجلسه ثم عاد ٢١٧٩- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٧٣.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٧٢- ٧٣.

رضي الله عنهم- يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق يجلسه عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه- غالبًا- عثمان وعلي، لأنهما كانا ممن يكتب الوحي، وكان يأمرهم بذلك.

كما في حديث أبي مسعود- رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم- ثلاثًا، وإياكم وهيشات الأسواق»(١).

وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله- صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة».

أما القيام للقادم فقد اختلف فيه أهل العلم، فمنهم من أجازه محتجًا بقوله ﷺ للمسلمين لما أقبل سعد بن معاذ- رضي الله عنه في قصة حكمه في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم»(٢).

ومن أهل العلم من قال لا يجوز ذلك لقوله ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»(٣).

ومن أهل العلم من فصَّل في ذلك فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دلت عليه قصة سعد بن معاذ- رضي الله عنه- فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكمًا في بني قريظة، فرآه مقبلًا أمر المسلمين بالقيام له، ليكون أنفذ لحكمه- والله أعلم.

قالوا: وأما اتخاذ ذلك ديدنًا فإنه من شعار العجم.

وقد جاء في السنن: «أنه لم يكن شخص أحب إليهم- يعني الصحابة- رضي الله

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- تسوية الصفوف وإقامتها ٤٣٢، وأبو داود في الصلاة ٦٧٤، والترمذي في الصلاة ٢٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٤٣، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٦٨، وأبو داود في الأدب ٥٢١٥- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٢٢٩، والترمذي في الأدب ٢٧٥٥- من حديث معاوية رضي الله عنه.

عنهم- من رسول الله ﷺ- وكانوا إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهيته لذلك»(١).

ويظهر- والله أعلم- أن المنع من ذلك إذا اتخذ ذلك عادة على سبيل التعظيم.

أما إذا كان القيام لأجل الترحيب بالقادم والسلام عليه ومصافحته ومعانقته، فلا إشكال في هذا؛ لأن هذا مما يدخل المحبة والسرور والألفة بين المسلمين، وهذا أمر مطلوب شرعًا، إذ لا يجوز البرود والتبلد حينما يلتقي المسلمون بعضهم ببعض، بل ينبغي إشعار كل منهما الآخر بحرارة اللقاء وبخالص الود والمحبة، وقطع الطريق أمام منافذ الشيطان الذي يسعى جاهدًا لبث أسباب الفرقة والجفاء بين المسلمين، ولهذا شرع الإسلام السلام تحية الإسلام، وشرع المصافحة، وأمر بالهدية، والإحسان ونحو ذلك كل ذلك لترسيخ مبادئ الأخوة الإيمانية بين المسلمين.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾. كسرت العين من الفعل «يرفع» لالتقاء الساكنين.

أي: يرفع الله ويعلي مكانة الذين آمنوا منكم وأهل العلم درجات، أي: منازل ومراتب حسب قوة إيمانهم، وحسب علمهم وعملهم بما علموا.

والمناسبة واضحة بين مكانة أهل الإيمان والعلم، وبين الأمر بالتفسح في المجالس والارتفاع منها وآداب المجالس من وجوه عدة:

الأول: الإشارة والتنبيه إلى أن من أهم المجالس إن لم يكن أهمها مجالس الإيمان والعلم، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يقول أحدهم للآخر: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

وهي رياض الجنة، كما قال ﷺ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حِلق الذِّكْر**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٥٤- من حديث أنس- رضي الله عنه- وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٩- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

وقال ﷺ: «ما جلس قوم قط في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا أنزل الله عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده»(١).

ومر ثلاثة نفر بمجلس النبي ﷺ فوجد أحدهم فرجة فجلس، وجلس أحدهم خلف المجلس، وأعرض الثالث: فقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخبر النفر الثلاثة، أما أحدهم فآوى فآواه الله، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه»(٢).

الوجه الثاني- من أوجه المناسبة بين أول الآية وآخرها-: أن التأدب بآداب المجالس من التفسح والارتفاع عند الحاجة، وغير ذلك إنما هو من صفات أهل الإيمان والعلم الذين وفقهم الله للعلم النافع والعمل الصالح، والذين يعلمون فضل هذه الآداب، وأنهم يؤجرون عليها.

الوجه الثالث: الإشارة إلى تقديم أهل الإيمان والعلم في المجالس لفضلهم ومكانتهم بحيث تطيب أنفس الجالسين بالتفسح لهم وتقديمهم لإيمانهم وعلمهم وقد قال ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم»(٣).

لكن لا ينبغي أن يقام من سبق من مجلسه ليجلس فيه غيره.

قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين، أي: يرفع الله الذين صدّقوا بقلوبهم وألسنتهم، وانقادوا بجوارحهم ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، وأبو داود وفي الصلاة ١٤٥٥، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ٦٦، ومسلم في السلام ٢١٧٦، والترمذي في الاستئذان ٢٧٢٤- من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٤٢- من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمعنى: أن الله عز وجل يعلي منازلهم، ويرفع قدرهم في الدنيا بين الناس، وفي الآخرة بالجنة، فهم أكرم الناس وأعزهم عند الله عز وجل- وعند خلقه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد:١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ دلالة على أن المؤمن في حاجة دائمًا وفي كل حال إلى الإيمان؛ توفيقًا من الله له، وزيادة منه، وثباتًا عليه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وكما في قول المؤمنين المصلين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ معطوف على قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: ويرفع الله الذين جمعوا بين الإيمان والعلم، فيعلي منازلهم، ويرفع قدرهم، ويعلي شأنهم في الدنيا بين الناس، وفي الآخرة بالجنات.

﴿دَرَجَاتٍ﴾، أي: منازل ومراتب، ونكرت للتعظيم والتفخيم، أي: منازل ومراتب عظيمة لا يقدر قدرها ولا يعلمها إلا الله عز وجل الذي منحها لهم.

قال ابن القيم[(١)]: «واللام في العلم ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي:

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٠.

العلم الذي بعث الله به نبيه ﷺ، وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجبًا».

عن ابن عباس رضي الله عنهما- أنه قال: «تفسير هذه الآية: يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات»(١).

فيرفع الله عز وجل الذين آمنوا منازل ومراتب عالية، ويرفع الذين جمعوا بين الإيمان والعلم منازل ومراتب أعلى من ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال ﷺ: «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله له به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(٢).

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة: أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى. قال: وما ابن أبزى؟ فقال: رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٤.

(٢) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٣- من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين- فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ٨١٧، وابن ماجه في المقدمة ٢١٨، وأحمد =

وعن مطرف بن عبد الله قال: «إنك لتلقى الرجلين: أحدهما أكثر صومًا وصلاة وصدقة، والآخر أفضل منه بونًا بعيدًا. قيل له: وكيف ذاك؟ فقال: هو أشدهما ورعًا لله عن محارمه»[1].

قال علي رضي الله عنه[2]:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهُمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
فقم بعلم ولا تطلب به بدلًا ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال الآخر:

العلم مبلغُ قومٍ ذروة الشرف ... وصاحب العلم محفوظ من التلف
يا صاحب العلم مهلًا لا تدنسه ... بالموبقات فما للعلم من خلف
العلم يرفع بيتًا لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرف[3]

وقال الشافعي[4] رحمه الله:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لاعلم عنده ... صغير إذا التفت عليه الجحافل
وإن صغير القوم إن كان عالمًا ... كبير إذا ردت إليه المحافل

وقال الشافعي أيضًا[5]:

=

١/ ٣٥.

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص ٢٤٠.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٧.

(٣) الأبيات تنسب للطغرائي. انظر: «جواهر الأدب» ٢/ ٤٤٩، «مجاني الأدب» ٣/ ١٣٤.

(٤) انظر «ديوانه» ص٩٩.

(٥) انظر «ديوانه» ص١٠٥.

رأيت العلم صاحبه كريم ... ولو ولدته آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن ... يُعظِّم أمره القوم الكرام
ويتَّبعونه في كل حال ... كراعي الضأن تتبعه السَّوام
فلولا العلم ما سعدت رجال ... ولا عرف الحلال ولا الحرام

وقال أيضًا[(١)]:

اصبر على مر الجفا من معلم ... فإن رسوخ العلم في نفراته
ومن لم يذق مر التعلم ساعة ... تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه ... فكبر عليه أربعًا لو فاته
وذات الفتى والله بالعلم والتقى ... إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

قال ابن تيمية[(٢)] في كلامه على قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾: «خص سبحانه رفعه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان، وهم الذين استشهد الله بهم في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأخبر أنهم هم الذين يرون ما أنزل إلى الرسول هو الحق بقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها، كما قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٧٦] قال زيد بن أسلم: «بالعلم».

قال ابن تيمية: فرفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا يفطر، وغيرهم أقل عبادة منهم،

---

(١) انظر «ديوانه» ص٣٨. وفيه: «فإن رسوب العلم»، وهي بمعنى: «ثبوت العلم»، والأقرب أنها: «رسوخ العلم»، فهذا أظهر.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ٥- ٧.

وأرفع قدرًا في قلوب الأمة، فهذا كرز بن وبرة، وكهمس، وابن طارق، يختمون القرآن في الشهر تسعين مرة، وحال ابن المسيب وابن سيرين والحسن وغيرهم في القلوب أرفع، وكذلك ترى كثيرًا ممن يلبس الصوف ويهجر الشهوات، ويتقشف، وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب، وأحلى عند النفوس.. وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول ﷺ، وكمال تصديقه في قلوبهم ووده ومحبته، وأن يكون الدين كله لله، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان، من فرح به فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه، ووضع الفرح في غير موضعه، فإذا استقر في القلب، وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده، وبره به، وإحسانه إليه على الدوام، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه، فلا يزال- مترقيًا في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف- هذا في باب معرفة الأسماء والصفات.

وأما في «باب فهم القرآن» فهو دائم التفكير في معانيه، والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئًا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه، ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل، والقصير، والمتوسط، وغير ذلك فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه، وكذلك شغل بـ «أأنذرتهم» وضم الميم من «عليهم» ووصلها بالواو، وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم، وتحسين الصوت. وكذلك تتبع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات

المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان.

وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس، ونتائج أفكارهم. وكذلك تأويل القرآن على قول من قلد دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق، حتى يجعل القرآن تبعًا لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل هؤلاء محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره، وكذلك يظن من لم يقدر القرآن حق قدره أنه غير كاف في معرفة التوحيد والأسماء والصفات، وما يجب لله وينزه عنه، بل الكافي في ذلك عقول الحيارى والمتهوكين الذين كل منهم قد خالف صريح القرآن مخالفة ظاهرة، وهؤلاء أغلظ الناس حجابًا عن فهم كتاب الله تعالى».

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾، أي: والله- عز وجل- بعملكم، أو بالذي تعملونه ذو خبرة تامة واطلاع وعلم، لا تخفى عليه خافية وسيجازي كلًا بعمله.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان لتكريمهم وتشريفهم والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما ذكر بعد هذا النداء من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- الحث على التفسح والتوسع في المجالس، ويتأكد أو يجب إذا طلب ذلك من الجالسين؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾.

٣- أن الجزاء من جنس العمل، فمن تفسحوا وتوسعوا ليجلس إخوانهم القادمون فسح الله لهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، في أعمالهم وأعمارهم وأرزاقهم وصدروهم ومنازلهم في الجنة وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾.

٤- الحث على الارتفاع والقيام من المجالس إذا طلب ذلك، ويتأكد ذلك أو يجب حسب الحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

٥- سمو آداب الإسلام وحرصه على ما يؤلف القلوب ويحفظها من الضغائن والأنانية.

٦- علو منازل المؤمنين وأهل العلم، ورفعة درجاتهم وقدرهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.

٧- فضل العلم وعظم مكانة أهله، وعلو مراتبهم وقدرهم على غيرهم في الدنيا والآخرة.

٨- إثبات سعة خبرة الله تعالى واطلاعه وعلمه بأعمال العباد وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وفي هذا وعد للمحسنين ووعيد للمسيئين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾.

توقيرًا واحترامًا وتعظيمًا للرسول ﷺ وتخفيفا عليه، وحفاظًا على وقته وتوفيرًا له الذي هو للأمة كلها أمر الله عز وجل بتقديم الصدقة بين يدي مناجاته ﷺ.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾: «وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه عليه السلام»(١).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾، أي: إذا أراد أحدكم أن يناجي الرسول ﷺ، أي: يسارَّه فيما بينه وبينه.

﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾، أي: فادفعوا أمام وقبيل نجواكم صدقة تتصدقون بها على المساكين والفقراء، فمعنى بين يدي الشيء: أمامه وقُبيله وقدامه.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ الإشارة للمصدر المأخوذ من قوله: ﴿فَقَدِّمُواْ﴾، أي: تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ من عدمه.

ومعنى ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾، أي: أن فيه الخير لكم في الدنيا والآخرة، والطهارة والتزكية لقلوبكم وأعمالكم من الإثم، ومن ذلك أن تكون المناجاة عند الحاجة.

قال ابن كثير(٢): «أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام».

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٧٥.

عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ قال لي النبي ﷺ: «ما ترى؟ دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «نصف دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «ما ترى»؟ قلت: شعيرة. فقال النبي ﷺ: «إنك زهيد» قال علي: فبي خفف عن هذه الأمة»[1].

قال الترمذي: «قوله: شعيرة» يعني وزن شعيرة من ذهب».

﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾، أي: فإن لم تجدوا ما تتصدقون به وعجزتم عن ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة: رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ رحمة عامة، ورحمة خاصة.

والمعنى: فإن الله غفور رحيم لمن لم يجد الصدقة فيغفر له ويتجاوز عنه برحمته بحيث يجوز له مناجاة الرسول بدون الصدقة؛ لأن الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾، الهمزة للاستفهام التقريري، أي: أخفتم وخشيتم الفاقة والفقر من تقديم الصدقة بين يدي المناجاة، وثقل عليكم ذلك، وخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ.

﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ الفاء: استئنافية، أي: فإذ لم تفعلوا ما أمركم الله به من تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ- وامتنعتم من المناجاة خوف الصدقة، أو ناجيتموه ولم تقدموا الصدقة.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المجادلة ٣٣٠٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٢- ٤٨٤-، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٥٤- الأثر ٨٦٤، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» ص ٤٧٨. وقال الترمذي: «حسن غريب».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه- عليه السلام- فلما قال ذلك صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فوسع الله عليهم»[(١)].

وعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «آية في كتاب الله- عز وجل- لم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، ثم تلا هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ الآية»[(٢)].

وعن مجاهد قال: «نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا علي ابن أبي طالب، قدم دينارًا صدقة تصدق به، ثم ناجى النبي ﷺ، فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة»[(٣)].

وعن سلمة بن كُهيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ قال: «أول من عمل بها علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- ثم نسخت»[(٤)].

﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ التوبة من الله- عز وجل- على عباده معناها: توفيقهم للتوبة، وقبولها منهم، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨] وقال تعالى:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٤.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٣.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٢- ٤٨٣.

(٤) أخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٥٤- الأثر ٨٦٣.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

ومعنى قوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: وتاب الله عليكم في عدم تقديمكم الصدقة بين يدي مناجاته ﷺ- وإشفاقكم من ذلك فتاب عليكم وعفا عنكم ونسخ ذلك ورفعه عنكم.

فنسخ الله عز وجل وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ لمّا أشفقوا منها، ولم يفعلوها برفع وجوب ذلك، فأباح لهم مناجاته ﷺ بدون تقديم الصدقة توبة من الله عز وجل- عليهم.

وتعد هذه الواقعة من أوضح وقائع النسخ في القرآن الكريم وأصحها.والنسخ فيها إلى غير بدل.

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فأقيموا الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، لتكون صلاة تامة كاملة، وهذا هو السر في التعبير بالأمر بإقامة الصلاة، دون أن يقول: «صلوا».

والصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختمة بالتسليم، والمراد بالصلاة هنا الصلوات الخمس وغيرها من النوافل.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وأعطوا الزكاة وادفعوها لمستحقيها.

وقدم الصلاة؛ لأنها عمود الإسلام وأعظم العبادات البدنية بعد الشهادتين، وعطف عليها الزكاة؛ لأنها أعظم العبادات المالية، وهما القرينتان في القرآن الكريم في نحو اثنين وثمانين موضعًا، فخصهما بالذكر؛ لعظم مكانتهما في الإسلام.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، فأمر أولًا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم عطف عليهما بالأمر بطاعة الله ورسوله؛ وذلك لبيان عظم منزلة الصلاة والزكاة، وهما من طاعة الله ورسوله.

والطاعة: فعل المأمور واجتناب المحظور، أي: أطيعوا الله ورسوله في فعل ما أمر الله به ورسوله، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله.

وعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل- بالواو التي تقتضي التشريك، لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، كما قال عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وفي الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله بعد توبة الله عليهم في إحجامهم عن تقديم الصدقة بين يدي المناجاة: إشعار بوجوب الإكثار من العمل الصالح بعد التوبة عليهم شكرًا لله على هذا التخفيف، وأن المطلوب من العبد الاستمرار على طاعة الله عز وجل حتى يلقى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: ذو الخبرة الواسعة والاطلاع والعلم.

و«الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها فاطلاعه على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: بالذي تعملون، أو بعملكم، وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن أقام الصلاة وآتى الزكاة وأطاع الله ورسوله، ووعيد لمن خالف ذلك؛ لأن مقتضى خبرته عز وجل أن يحاسب الخلائق، ويجازي كلًا بعمله.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وتشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف به، وعلى امتثال ما ذكر بعد النداء بهذا الوصف؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- إيجاب تقديم الصدقة قبيل مناجاة الرسول ﷺ ومسارته، تخفيفًا عليه ﷺ وحفاظًا على وقته ومشاغله في الدعوة وفي الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا

نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ ﴾.

وهكذا ينبغي تقدير أوقات ذوي المسؤوليات الكبيرة في الأمة.

٣- في إيجاب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ خير للمؤمنين وتزكية لقلوبهم وأعمالهم بحيث تكون مناجاتهم عند الحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

٤- أن إيجاب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ على الواجد أما من لم يجد فلا شيء عليه ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

٥- إثبات صفة المغفرة وصفة الرحمة الواسعتين، لله عز وجل؛ ولهذا رحم وغفر لمن لم يجد الصدقة وأباح له مناجاة الرسول ﷺ بدونها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

٦- إشفاق المؤمنين وخشيتهم من تقديم الصدقة بين يدي المناجاة وثقلها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾.

٧- توبة الله- عز وجل- على المؤمنين ومغفرته ورحمته لهم ونسخ وجوب تقديم الصدقة عليهم بين يدي مناجاة الرسول ﷺ، لما شق عليهم ذلك، ولم يناجوه خشية تقديم الصدقة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

٨- وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله؛ ففي ذلك تكفير السيئات، ورفعة الدرجات؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٩- عظم مكانة الصلاة والزكاة بين الطاعات لهذا خصهما بالذكر.

١٠- إثبات سعة خبرته عز وجل واطلاعه، وعلمه الواسع، وإحاطته بأعمال العباد، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره، وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه» فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه، فقال: «علام تشتمني أنت وفلان وفلان»؟ نفر دعاهم بأسمائهم- قال: فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وفي رواية له: «فنزلت هذه الآية التي في المجادلة ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾»(١).

هذه الآيات في فضح المنافقين والإنكار عليهم في موالاتهم اليهود والمشركين في الباطن، وهم في حقيقة الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين.

قوله: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ يعني المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٦٧،٢٤٠، ٣٥٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٩ والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٧، والحاكم ٢/ ٤٨٢- وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وقال ابن كثير في «تفسيره»٨/ ٧٨: «إسناد جيد ولم يخرجوه».

﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعني اليهود، فهم المغضوب عليهم، كما قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، [آل عمران: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

ومعنى: ﴿تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، أي: جعلوهم أولياء يوالونهم ويمالئونهم في الباطن.

قال الطبري(١): «ألم تنظر بعين قلبك يا محمد، فترى إلى القوم الذين تولوا قومًا غضب الله عليهم، وهم المنافقون، تولوا اليهود وناصحوهم».

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾، أي: أن هؤلاء المنافقين في الحقيقة ليسوا منكم أيها المؤمنون.

﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾، أي: ولا من اليهود والمشركين، بل كانوا- كما قال الله عنهم-: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

﴿وَيَحْلِفُونَ﴾، أي: ويحلف هؤلاء المنافقون، ﴿عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾، أي: كذبًا، وعلى أمور كاذبة.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٧.

قال ابن كثير[١]: «يعني المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولاسيما في مثل حالهم اللعين، عياذًا بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقًا، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك».

وهذا ديدن المنافقين الحلف وهم كاذبون، كما قال عز وجل في سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الآية: ١]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، أي: هيأ وجهز وأرصد لهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾، أي: عذابًا شديدًا من حيث كيفه وكمه ونوعه؛ حسيًّا ومعنويًّا، لا يعلم مدى شدته إلا من وصفه بهذا، وهو الله عز وجل شديد العقاب، وذلك بسبب نفاقهم وموالاتهم للكافرين.

عذابًا عاجلًا في الدنيا من القلق والحيرة والتذبذب والشقاء النفسي، كما قال عز

(١) في «تفسيره» ٨/ ٧٧.

وجل: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

فهم دائمًا في خوف وقلق بسبب نفاقهم وكونهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، مع ما يصيبهم من المصائب في الأنفس والأموال وغير ذلك.

وأعد لهم عذابا شديدًا في الآخرة في النار فهم أشد أهل النار عذابًا، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها، و«ساء» بمعنى قبح، و«ما» مصدرية أو موصولة، أي: ساء عملهم، أو ساء الذي كانوا يعملون.

والمعنى: أن الله عز وجل- أعد لهم عذابًا شديدًا؛ لسوء أعمالهم وقبحها، أو بسبب سوء أعمالهم وقبحها؛ من النفاق وموالاة اليهود والمشركين، ومعاداتهم المؤمنين وغشهم لهم، فليس هناك عمل وضيع أسوأ من عمل المنافقين وصنيعهم. عياذًا بالله من ذلك.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا كقوله في سورة المنافقين: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ٢].

أي: جعلوا حلفهم وقاية وسترًا لأنفسهم وأموالهم وذراريهم،فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا الأيمان المغلظة الكاذبة أنهم مع المؤمنين، وكلما افتضح شيء من أمرهم اتقوا بالأيمان الكاذبة.

كما قال عز وجل عنهم: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: أعرضوا عن سبيل الله وطريقه وهو الإيمان بالله ظاهرًا وباطنًا، واكتفوا بدعوى الإيمان ظاهرًا، وتوكيد ذلك بالأيمان الكاذبة.

وصدوا غيرهم عن سبيل الله حيث اغتر بهم من لا يعرف حقيقتهم، فصدقهم وقلدهم واطمأن إليهم فصدوه عن الحق.

﴿فَلَهُمْ﴾، أي: فلهم بسبب جعلهم الأيمان الكاذبة وقاية لهم وصدهم عن سبيل الله بأنفسهم ولغيرهم.

﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أي: يهينهم ويذلهم، فهو عذاب شديد للأجسام، وعذاب مهين للقلوب، بالذل والهوان والتبكيت والتوبيخ، كما قال عز وجل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال تعالى مخاطبًا أهل النار: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

فالعذابان الحسي والمعنوي متلازمان، والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي.

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم﴾، أي: لن تنفعهم ولن تدفع عنهم أموالهم ولو كثرت فيفتدوا بها، ولا أولادهم وإن كثروا لينتصروا بهم.

﴿مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، أي: من عذاب الله- عز وجل- وعقابه شيئًا إذا نزل بهم.

و«شيئًا» نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: لن تنفعهم ولن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله أيَّ شيء مهما قل أو صغر.

﴿أُولَئِكَ﴾، أي: أولئك المنافقون الذين يتولون اليهود ويحلفون الأيمان الكاذبة ويصدون بها عن سبيل الله. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم ولمصيرهم.

﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾، أي: أهل النار وملازموها ملازمة الصاحب لصاحبه والغريم لغريمه.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أي: هم في النار مقيمون فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، ولهذا أكد خلودهم فيها بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وذلك لكفرهم، ولأن النار لا تفنى، ولا يفنى عذابها وأهلها، كما دل الكتاب والسنة على ذلك.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾، «يوم» ظرف زمان بمعنى «حين» متعلق بفعل مقدر، أي: اذكر يوم، أي: يوم القيامة حين يبعثهم الله جميعًا، أي: يخرجهم من قبورهم جميعًا، بعد أن يعيد الحياة فيهم، ويحشرهم جميعًا في موقف الحساب.

﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾، أي: فيحلفون ويقسمون له أنهم على الحق والإيمان والاستقامة.

﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾، أي: كما كانوا في الدنيا يحلفون لكم أيها المؤمنون أنهم معكم، وتُجْرون عليهم الأحكام الظاهرة.

فحيث اتخذوا الأيمان الكاذبة مطية لهم في الدنيا ووقاية لدمائهم وأموالهم وأعراضهم صار هذا سجية لهم وديدنا وعادة حتى بعد بعثهم بعد الموت أمام من لا تخفى عليه خافية.

قال ابن كثير[1]: «لأن من عاش على شيء مات وبعث عليه».

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، أي: يظنون أنهم بهذا الحلف له عز وجل على شيء من الأمر، وأن هذا الحلف سينفعهم أمام من لا تخفى عليه خافية، كما كانوا في الدنيا يتخذون الأيمان وقاية لهم، ولا شك أن هذا من عمى البصائر، وإلا فكيف يحلفون للخالق سبحانه العليم بذات الصدور، الذي يعلم السر وأخفى، وهم كاذبون ويظنون أن ذلك ينفعهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، «ألا» أداة تنبيه، أي: ألا إنهم هم الكاذبون في حسبانهم وظنهم أنهم على شيء، وهم الكاذبون في أيمانهم.

وقد أكد كذبهم في حسبانهم وأيمانهم بعدة مؤكدات وهي: «ألا» التي هي للتنبيه و«إنّ»، وضمير الفصل «هم»، وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين

أي: ألا إنهم هم الكاذبون، أي: الذين بلغوا الغاية في الكذب.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٧٨.

وحال هؤلاء، كما أخبر تعالى عن المشركين في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤].

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ استحوذ: غلب وسيطر واستولى على قلوبهم وأعمالهم.

والشيطان: إبليس لعنه الله وجنوده، مشتق من «شطن» بمعنى بعد عن رحمة الله وعن كل خير. وكل متمرد عات خارج عن طاعة الله تعالى فهو شيطان، من الجن والإنس والحيوان قال تعالى: ﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال ﷺ «الكلب الأسود شيطان»(١).

﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾، أي: جعلهم بسبب استحواذه عليهم ينسون ذكر لله- عز وجل- الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة من الإيمان بالله عز وجل- حقًا إخلاصًا له عز وجل، ومتابعة لرسوله ﷺ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت الحرام، وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ودعاء الله إلى غير ذلك.

عن أبي الدرداء- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي: أنصاره وأتباعه وجنده وأعوانه على الشر.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، «ألا» أداة تنبيه، و«الخاسرون» جمع خاسر،

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٥١٠، وأبو داود في الصلاة ٧٠٢، والنسائي في القبلة ٧٥٠، والترمذي في الصلاة ٣٣٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٥٢- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- التشديد في ترك الجماعة ٥٤٧، والنسائي في الإمامة ٨٤٧.

والخسر، والخسران: ضياع رأس المال مع الربح.

وقد أكد عز وجل خسرانهم في هذه الجملة بعدة مؤكدات وهي «ألا» التي للتنبيه، و«إنّ»، وضمير الفصل «هم»، وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين.

أي: المغبونون في صفقتهم، الذين بلغوا الغاية في الخسران، فخسروا أغلى ما لديهم، خسروا أنفسهم وأهليهم، خسروا الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المنافقين والتعجيب منهم في موالاتهم اليهود المغضوب عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

٢- ذم اليهود بغضب الله عليهم.

٣- تذبذب المنافقين فليسوا من المؤمنين ولا من اليهود، وحلفهم على الكذب وهم يعلمون كذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٤- اتخاذ المنافقين أيمانهم الكاذبة وقاية لأنفسهم وأموالهم وصدهم عن سبيل الله بأنفسهم ولغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥- الوعيد الشديد للمنافقين بالعذاب الشديد، عذابًا حسيًا في الدرك الأسفل من النار وملازمتها والخلود فيها، وعذابًا معنويًا يهينهم ويذلهم لسوء عملهم وشدة كفرهم، وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم ولن تدفع عنهم من عذاب الله شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

٦- بعث الله- عز وجل- الناس جميعًا من قبورهم للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾.

٧- عمى بصائر المنافقين، وأن من مات على شيء بعث عليه، فحيث كانوا في

الدنيا يتخذون أيمانهم الكاذبة وقاية لهم ولأموالهم صار ذلك سجية لهم، ففي عرصات القيامة يحلفون لله، كما كانوا يحلفون في الدنيا ظنًا منهم أن ذلك ينفعهم أمام من لا تخفى عليه خافية، وتأكيد كذبهم في حلفهم وحسبانهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

٨- غلبة الشيطان على المنافقين وإنساؤه لهم ذكر الله وكونهم من أنصاره وجنده الخاسرين المغبونين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

٩- ذم الشيطان وحزبه، والتحذير منهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة حال المنافقين في موالاتهم اليهود والمشركين واتخاذهم الأيمان وقاية لهم، وغلبة الشيطان عليهم، وما أعد لهم من العذاب الشديد المهين، وما ينتهون إليه من الخسران المبين، ثم أتبع ذلك بالوعيد بالإذلال لجميع الكافرين المحادين لله ورسوله من المنافقين واليهود والمشركين وغيرهم، وفي هذا توكيد لوعيدهم في أول السورة.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

أي: إن الذين يكونون في حد وجانب وشق مناوئ ومضاد ومخالف لله ورسوله ويشاقون ويعادون الله ورسوله.

قال ابن كثير(١): «يعني الذين هم في حد والشرع في حد، أي: مجانبون للحق مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: أولئك المحادون لله ورسوله ﴿فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾، أي: في عداد المهانين الأشقياء المغلوبين المبعدين، الذين قضي عليهم بالذل والهوان في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى في أول السورة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الآية: ٥].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾، أي: قضى الله- عز وجل- وحكم وكتب في كتابه الأول في الأزل في اللوح المحفوظ،فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول:

(١) في «تفسيره» ٨/ ٧٩.

«أول ما خلق الله القلم فقال اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال اكتب القدر، ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[١].

﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ اللام لام القسم، أي: لتكونن الغلبة لي أنا ورسلي، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال ﷺ: «وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري»[٢].

قال الحسن: «أبى الله إلا أن تكون الذلة والصغار على من خالف أمره».

قال ابن كثير[٣]: «أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول، وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع، ولا يبدل، بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين... وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة».

وقال ابن القيم[٤]: «وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ عقيب قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾- دليل على أن المحادة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المحادين غالبًا- وذلك- إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد ليس بمسالم فلا يكون له أمان مع المحادة».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: «أن» بفتح الهمزة.

وقرأ الباقون بكسرها، وهذا كالتعليل لما قبله، أي: إن الله كتب الغلبة له ولرسله؛ لأنه القوي العزيز.

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر ٢١٥٥. وقال «حديث غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، ما قيل في الرماح بلفظ: ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «جعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري» انظر «فتح الباري» ٦/ ٩٨. وأخرجه أحمد عن ابن عمر موصولًا ٢/ ٥٠، ٩٢.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٧٩.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤١٩.

وقوله: ﴿قَوِيٌّ﴾، أي: ذو القوة التامة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

﴿عَزِيزٌ﴾، أي: ذو العزة التامة بجميع معانيها، كما قال عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

فله- عز وجل- العزة بمعانيها الثلاثة: عزة الامتناع فهو- عز وجل- ممتنع عن كل نقص وعيب، ومن ذلك يقال للأرض الصلبة «عزاز» لقوتها وامتناعها ممن أراد حفرها إلا بمشقة.

والثاني: عزة القهر والغلبة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

الثالث: عزة القوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

قال ابن القيم(١):

وهو العزيز فلا يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

ويحسن في مثل هذا الموضع أن يحمل العزيز على عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، لذكر اسمه- عز وجل- «القوي» قبله.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

---

(١) انظر «النونية» ص ١٤٧.

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل موالاة المنافقين لليهود، وما أعد لهم من العذاب الشديد والمهين والخسران المبين، وأنه عز وجل قضى بالذل والهوان على الذين يحادونه ورسوله، وكتب الغلبة له ولرسله- عليهم الصلاة والسلام- أتبع ذلك ببيان أنه لا يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر مع موادة من حاد الله ورسوله من اليهود والمشركين وغيرهم، ولا يتصور وجود هذا، لأن الإنسان إما مواد لله ورسوله ومعاد لمن حاد الله ورسوله، وهذا هو المؤمن، وإما مواد لمن حاد الله ورسوله معاد لله رسوله والمؤمنين وهذا هو الكافر والمنافق.

رُوي عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال:«أنزلت هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر ابن عبد الله بن الجراح حين قَتَل أباه يوم بدر».

وقيل: نزل قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر، ونزل قوله: ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ في الصديق همَّ يومئذٍ بقتل ابنه عبد الرحمن، ونزل قوله: ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ونزل ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في عمر قتل قريبًا له يومئذ أيضا، وفي حمزة بن الحارث وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة(١).

قال ابن كثير(٢): «قلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر، فأشار الصديق بأن يفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهم بنو

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» صـ ٢٧٨، وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٧٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٨٠.

العم والعشيرة، ولعل الله أن يهديهم. وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله، هل تمكنني من فلان- قريب لعمر- فأقتله، وتمكن عليًا من عقيل، وتمكن فلانًا من فلان؛ ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين.. القصة بكمالها».

قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

«لا» نافية والقوم: الجماعة من الناس رجالًا ونساء.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، أي: يصدقون بوجود الله عز وجل وربوبيته، وألوهيته وأسمائه وصفاته، وينقادون لشرعه ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، أي: ويؤمنون باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وسُمي باليوم الآخر لأنه آخر الأيام فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة وهو آخر مراحل الإنسان الأربع فمرحلة في بطن أمه، ثم مرحلة في الدنيا، ثم مرحلة في البرزخ، ثم مرحلة يوم القيامة.

وكثيرًا ما يقرن عز وجل الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به عز وجل، لأن الإيمان باليوم الآخر أعظم حافز على العمل، لأن في هذا اليوم يكون الحساب والجزاء على الأعمال وفيه الأهوال العظام.

﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ المودة: المحبة، أي: يحبون من حاد الله ورسوله، أي: من عادى الله ورسوله وشاقهما وخالف أمر الله ورسوله من اليهود والمشركين.

والمعنى: لا يمكن أن يوجد ولا يتصور اجتماع الإيمان بالله واليوم الآخر مع موادة من حاد الله ورسوله، فهذان أمران متناقضان متنافيان، فالجمع بينهما ضرب من المستحيل، كما قال ابن القيم(١) في كلامه على قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الآية: ٤]، قال: «فأنت تجد في هذه اللفظة أن القلب ليس

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤١٩.

له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره، بل ليس له إلا قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى لربه، وإلا انصرف ذلك إلى غيره».

فلا يمكن أن يوجد قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر- حقًا- ومع ذلك يوادون من حاد الله ورسوله لأن موادة من حاد الله ورسوله تنفي صدق الإيمان بالله واليوم الآخر.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

فالإيمان بالله واليوم الآخر يمنع صاحبه من موادة الكافرين؛ لأن من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر محبة الله ورسوله والمؤمنين، وبغض من حاد الله ورسوله من المنافقين واليهود والكافرين ونحوهم.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٨١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

(١) البيت لابن القيم انظر «النونية» ص ١١.

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

أي: ولو كان أولئك المحادون لله ورسوله ﴿ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فإنهم لا يوادونهم لمحادتهم الله ورسوله وكفرهم، كما قال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

والآباء هم الأب القريب والأجداد وإن علوا من أي جهة كانوا، والأبناء: هم أبناء الرجل وأبناء أولاده وإن نزلوا، والإخوان: إخوة الرجل أشقاء أو لأب أو لأم، و«العشيرة»: القبيلة من العصبة من الأعمام وأبنائهم وأبناء أبناءهم، وإن نزلوا، ونحوهم.

وهذا محك عظيم فكم من مدع الإيمان بالله واليوم الآخر، وكم من مدع محبة الله- عز وجل- ورسوله- لكنه إذا جاء شأن القرابة والعشيرة ترك العدل والإنصاف محاباة للقريب وانتصارًا له، حتى ولو كان ظالمًا عاصيًا محادًا لله ورسوله. وقد قال ﷺ «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» قيل: يا رسول الله أنصره مظلومًا فكيف إذا كان ظالمًا؟ قال: «تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره»(١).

فالواجب على المؤمن حقًا بغض من حاد الله ورسوله ومعاداتهم، ولو كانوا أقرب الأقربين إليه، ومحبة الله ورسوله والمؤمنين وموالاتهم.

وهذه حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر، وهنا يجد المرء حلاوة الإيمان، قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الإكراه ٦٩٢٥، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥- من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ١٦، ومسلم في الإيمان ٤٣، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٨٧، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٤، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣٣- من حديث أنس رضي الله عنه.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد أحد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد كانت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئًا»(١).

وقال عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

الإشارة (أولئك) للذين آمنوا بالله واليوم الآخر، الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كان من أقرب الناس إليهم.

وأشار إليهم بإشارة البعيد (أولئك) تعظيما ورفعة لشأنهم.

﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، أي: أدخله في قلوبهم وثبته فيها.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، أي: وأمدهم وقواهم بروح منه، أي: بوحيه ونوره ومدده.

قال الطبري(٢): «وقواهم ببرهان منه ونور وهدى».

وقال السعدي(٣): «وهم الذين قواهم الله بروح منه، أي: بوحيه ومعرفته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني»،

فاستمروا على الإيمان باطنا، وظهرت آثاره على جوارحهم وأعمالهم الظاهرة؛ لأن الله

---

(١) ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد ونسبه لابن جرير انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص٤٧٩.

(٢) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٩٤.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٢.

أمدهم بروح منه، فهم يسيرون في هذه الحياة على نور من الله عز وجل، قال عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولهذا كان ﷺ يقول: «اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا وفي بصري نورًا ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا وعن يميني نورًا وعن شمالي نورًا واجعل لي نورًا»[١].

فمن وفقه الله عز وجل وجعل الإيمان في قلبه وثبته عليه وأمده وقواه بروح منه، ونوَّر بصيرته فهو محفوظ بحفظ الله عز وجل، من موادة من حاد الله ورسوله ومن أنواع الشرور كلها- بإذن الله عز وجل.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

وصف الله- عز وجل- الذين آمنوا بالله واليوم الآخر بأنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله، وأنه عز وجل جعل الإيمان في قلوبهم وثبته فيها وأمدهم وقواهم بروح منه فسعدوا في حياتهم بالاستقامة على طاعة الله- عز وجل-، ثم ذكر ما أعد لهم في الآخرة في الجنة من ألوان النعيم.

قوله: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ جنات: جمع جنة، وهي ما أعده الله- عز وجل- لسكنى أوليائه المتقين وحزبه المفلحين في دار كرامته دار السلام، التي فيها من ألوان النعيم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣١٦، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٦٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٥٣، والنسائي في التطبيق ١١٢١، والترمذي في الصلاة ٢٣٢ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(١).

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجملة صفة لجنات، أي: تجري من تحت أشجار هذه الجنات ومساكنها وغرفها الأنهار، يشربون منها ويصرِّفونها حيث شاؤوا ويتمتعون برؤيتها، وهي كما قال الله عز وجل: ﴿أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول؛ لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها وأهلها، بإجماع المسلمين.

﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾؛ لإيمانهم وعملهم الصالح، فوفقهم للحق والثبات عليه، وأثابهم على ذلك بالجنات وما فيها من النعيم.

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما هيأ لهم من أسباب الهداية والتوفيق والسعادة في الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الجنة، كما قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

قال ابن كثير(٢): «وفي قوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم، والفضل العميم».

كما قال ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها: «من التمس رضا الله بسخط الناس

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٨٠.

رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»(١).

ورضى الله عنهم من أعظم النعيم المعنوي الذي تقر به عيونهم، فهم ضيوف على أكرم الأكرمين وقد رضي عز وجل عنهم ورضوا عنه، فأعظم بها من كرامة.

والرضا من المضيف من أعظم ما تقربه عين الضيف ويسعد به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ أشار إليهم مرة ثانية بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعظيمًا ورفعة لشأنهم، وتوكيدًا لذلك.

﴿حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾، أي: أهل عبوديته الخاصة وأنصاره، وأهل كرامته وإفضاله.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾، «ألا» أداة تنبيه، أي: ألا إن حزب الله وعباده المؤمنين ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب؛ الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من النار والعذاب.

وقد أكد فلاحهم في الآية بـ «ألا» أداة التنبيه، و«إن» المؤكدة، وضمير الفصل «هم» وكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، أي: أولئك المفلحون الفلاح العظيم الذي لا يشبهه فلاح.

وفي هذا تنويه بما أعد الله لهم من الفوز والكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة.

في مقابل ما أعده لحزب الشيطان من الكفار والمنافقين من العذاب الشديد المهين والخسران المبين.

الفوائد والأحكام:

١ - أن محادة الله- عز وجل- محادة لرسوله ﷺ، كما أن محادة الرسول ﷺ محادة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

٢- قضاء الله وحكمه على المحادين له ولرسله بالذلة والهوان والشقاء في الدنيا

---

(١) سيأتي تخريجه.

والآخرة، وقضاؤه بالغلبة والعزة له ولرسله وأتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾.

٣- إثبات صفة القوة والقهر والغلبة والامتناع له تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

٤- قطع المودة بين المؤمنين والكافرين، وأنه لا يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر وموادة من حاد الله ورسوله، مهما كان هذا المحاد من الآباء أو الأبناء أو الإخوان أو العشيرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

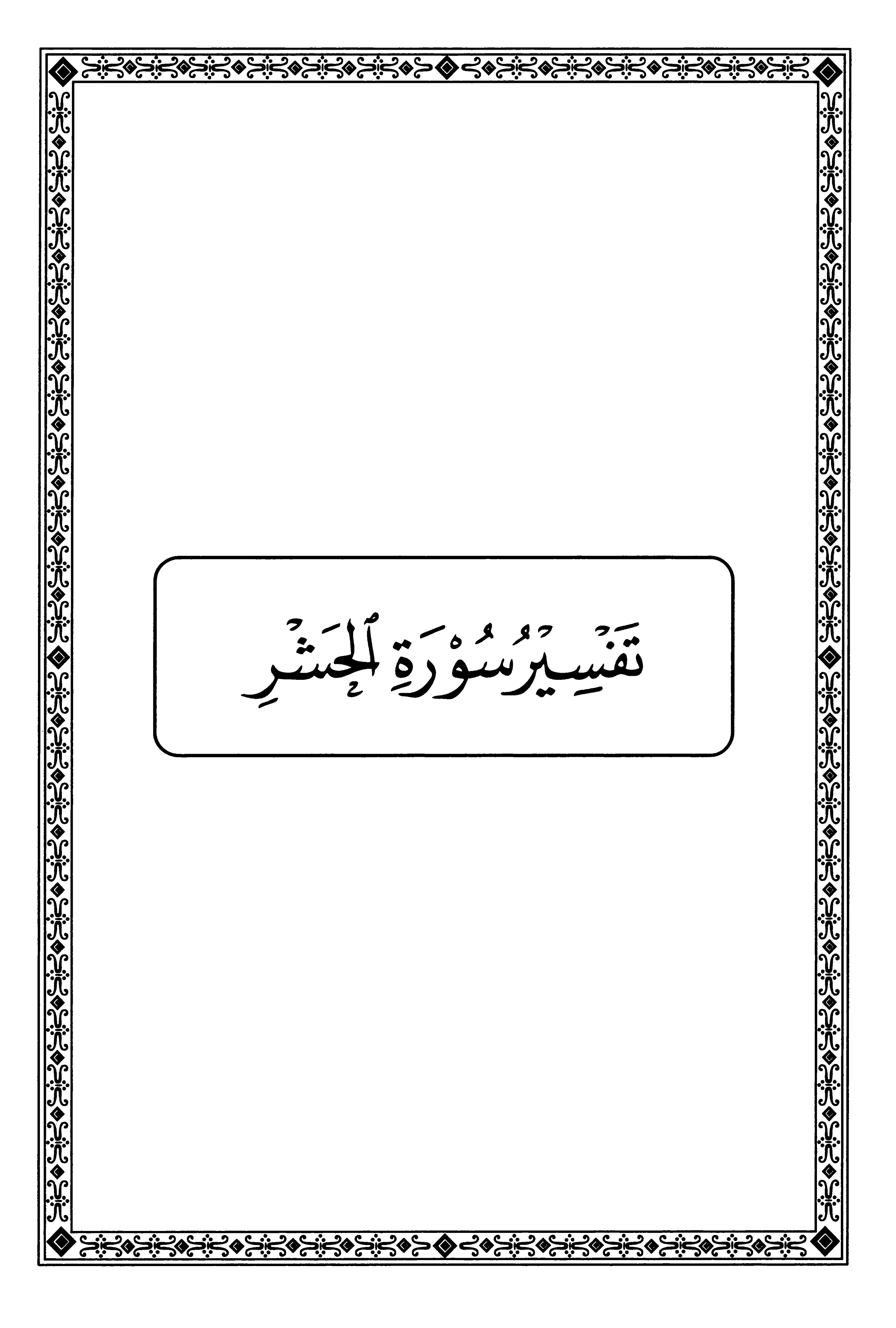
٥- الثناء على الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، ولم يوادوا من حاد الله ورسوله، مهما كانت قرابته، والامتنان عليهم بأن الله ثبت الإيمان في قلوبهم، وأمدهم بوحيه ونوره ومعرفته؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

٦- الوعد من الله- عز وجل- بالثواب العظيم للمؤمنين به واليوم الآخر بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها مع رضا الله عنهم ورضاهم عنه وكونهم حزبه المفلحين دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

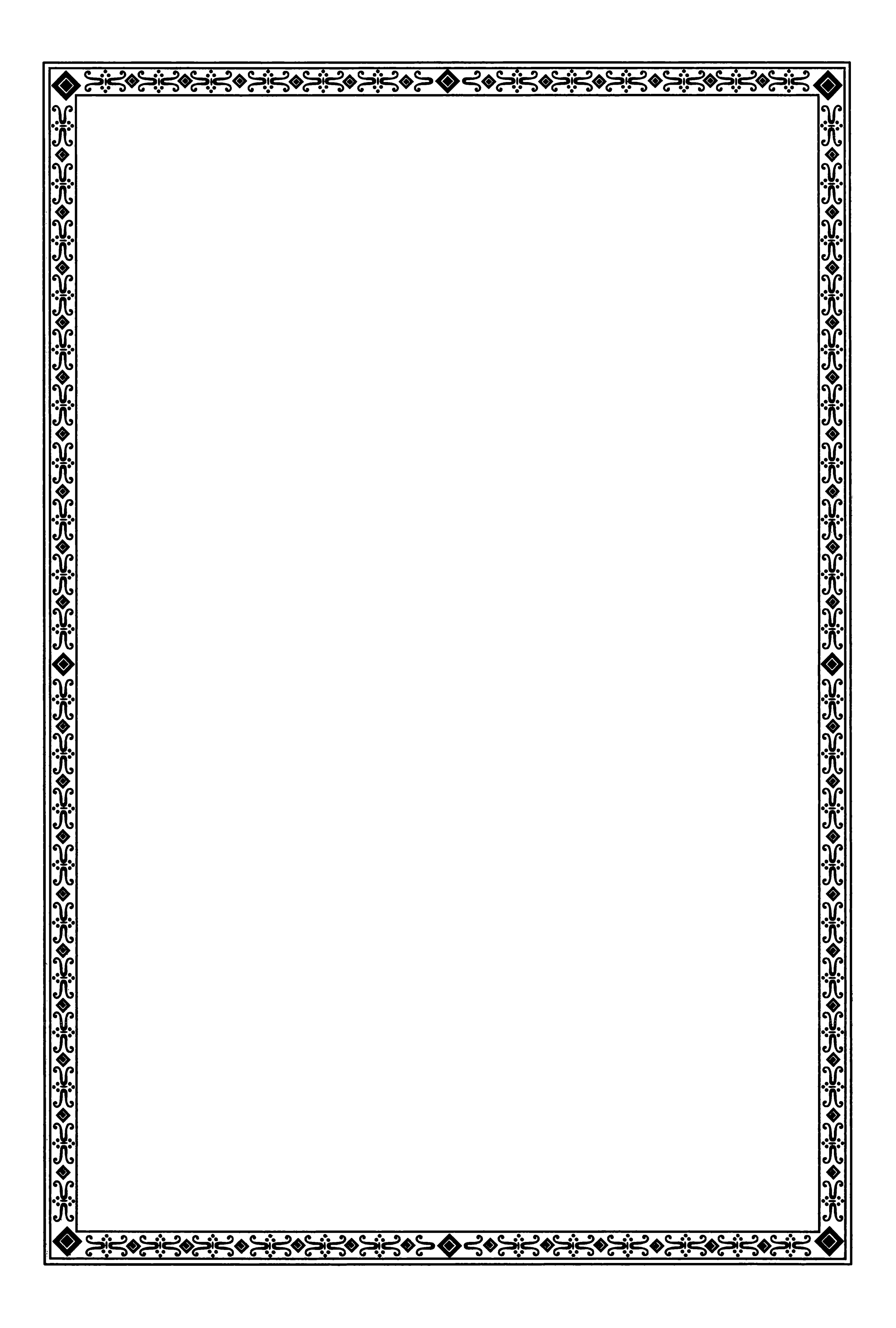
٧- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها وأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

٨- أن حزب الله هم المفلحون.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلۡحَشۡرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الحشر»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الآية:٢].

وتسمى: «سورة بني النضير»؛ لأن قصة بني النضير ذكرت فيها.

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: «سورة الحشر». قال: «نزلت في بني النضير»[١].

وفي رواية عنه أن ابن عباس قال له: «قل: سورة بني النضير»[٢].

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى عما لا يليق به، والثناء عليه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

٢- ذكر غزوة بني النضير، وإخراجهم من ديارهم لأرض المحشر: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٢، ومسلم في التفسير ٣٠٣١.

(٢) أخرجها البخاري في المغازي ٤٠٢٩.

٣- بيان الفيء، وحكمه، وكيف يصرف: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾.

٤- ثناء الله عز وجل على المهاجرين، وعلى الأنصار، وعلى الذين جاءوا من بعدهم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

٥- ذم المنافقين بموالاتهم اليهود، ووعودهم الكاذبة لهم بالنصر، وجبنهم: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

٦- شدة جبن اليهود ورهبتهم من المؤمنين أشد من رهبتهم من الله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٧- تمثيل حال اليهود بحال المكذبين للرسل قبلهم ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم.

٨- تمثيل حال المنافقين في موالاتهم لليهود ووعدهم لهم بالنصر مع كذبهم

وهزيمة الفريقين بحال الشيطان في تسويله للإنسان الكفر، ومن ثم البراءة منه، ومصيرهما معًا إلى النار .

٩- الحث على تقوى الله والعمل للآخرة، والتحذير من النار، والترغيب في الجنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

١٠- تقرير عظمة القرآن الكريم، وشدة أثره: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

١١- تقرير عظمته عز وجل، وما له من الأسماء الحسنى، والصفات العلا والجلال والكمال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

سبق الكلام عليه مفصلًا في مطلع سورة الحديد وهو إخبار من الله عز وجل أن كل ما في السموات وما في الأرض يسبحه ويعظمه ويعبده ويصلي له ويوحده وينقاد له وينزهه عما لا يليق بجلاله، ويدل على وجوده وعظمته وكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد أخبر الله عز وجل عن تسبيح جميع المخلوقات له في مواضع كثيرة من القرآن وفي مطلع خمس سور، تسمى المسبحات وهي: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن؛ لتأكيد ذلك والدلالة على عظمته سبحانه وتعالى وخضوع جميع المخلوقات لأمره، وتعظيمها له سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: هو الله وحده الذي أخرج الذين كفروا به وجحدوا شريعته وما جاء به نبيه محمد ﷺ.

﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم يهود بني النضير، إحدى قبائل اليهود الثلاث التي كانت في المدينة وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، عاهدهم النبي ﷺ كلهم، لما قدم المدينة، فنقضوا العهد. وأول من نقض العهد منهم: بنو قينقاع، وذلك في السنة الثانية من الهجرة

في شوال بعد وقعة بدر، فغزاهم الرسول ﷺ، وحاصرهم في حصونهم أشد الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم الله ورسوله، ثم منّ عليهم، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام، وهلك أكثرهم.

ثم تلاهم بنو النضير، فنقضوا العهد، فغزاهم رسول الله ﷺ بعد بدر بستة أشهر، وقبل أحد- كما روي عن عائشة- رضي الله عنها[١] وعروة بن الزبير[٢].

وقيل كانت غزوة بني النضير بعد وقعة أحد. وقد أنزل الله فيهم سورة الحشر.

ثم تبعهم بنو قريظة، فنقضوا العهد لما خرج الرسول ﷺ لغزوة الخندق «غزوة الأحزاب»، فحاصرهم النبي ﷺ بعد غزوة الأحزاب، وحكّم فيهم سعد بن معاذ- رضي الله عنه- فحكم فيهم بحكم الله- عز وجل- أن يقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال له النبي ﷺ «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات» وقد ذكر الله قصتهم في سورة الأحزاب.

وكان من أمر بني النضير في نقضهم العهد غدرهم بالنبي ﷺ حيث هموا بقتله بإلقاء صخرة عليه، لما جاء يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر فجاءه الوحي من ربه، فخرج من بينهم، ثم بعث إليهم، أن اخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم كذا، فمن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه[٣].

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) ذكره البخاري عن الزهري عن عروة في المغازي- حديث بني النضير- انظر «فتح الباري» ٧/ ٣٢٩، وأخرجه ابن أبي حاتم مسندًا في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٥. وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٩، «البداية والنهاية» ٥/ ٢٠، ٥٣٣.

(٣) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٤٧- ٥٠، ١٩٠- ١٩٤، ٢٣٣- ٢٤٨، «دلائل النبوة» للبيهقي ٣/ ٣٥٤، «زاد المعاد» ٥/ ٦٥، ١٢٧، «البداية والنهاية» ٥/ ٣١٨، ٣٣٥- ٣٣٦، ٥٣٣، ٦/ ٧٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٨، «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٤- ٣٢٥.

﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾، أي: من دورهم ومنازلهم وحصونهم في ناحية المدينة، بعد حصارهم ست ليال، وقيل غير ذلك.

﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾، أي: لأول محشرهم إلى أرض المحشَر والمنْشَر الشام.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «من شك في أن أول المحشر ههنا- يعني الشام- فليتل هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ قال لهم رسول الله ﷺ: «اخرجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»[1].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من غزوة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة- يعني السلاح- فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾ فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي.

وأما قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ فكان ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام»[2].

قال الطبري[3]: «وذلك خروجهم من منازلهم ودورهم حين صالحوا رسول الله ﷺ على أن يؤمنهم على دمائهم ونسائهم وذراريهم، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم، ويخلوا له دورهم وسائر أموالهم، فأجابهم رسول الله ﷺ إلى ذلك، فخرجوا من ديارهم، فمنهم من خرج إلى الشام، ومنهم من خرج إلى خيبر».

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ١٠/ ٣٣٤٥- الأثر ١٨٨٥٠.

(٢) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٨٣ وصححه، وأقره الذهبي. وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٢/ ٤٤٤.

(٣) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٩٦- ٤٩٧.

وقال السعدي(١): «وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم، على يد رسوله محمد ﷺ إلى خيبر، ودلت الآية على أن لهم حشرًا وجلاءً غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ من خيبر، ثم عمر- رضي الله عنه- أخرج بقيتهم منها».

وهناك حشر آخر وهو حشرهم وجميع الخلق يوم القيامة في أرض الشام كما جاء في الحديث: «تخرج نار من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر»(٢).

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾، «ما» نافية، ومعنى ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾، أي: ما حسبتم وما توقعتم أيها المسلمون أن يخرجوا من ديارهم؛ لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها وشدة بأسهم، وكثرة عددهم وعدتهم، ونحو ذلك.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وحسبوا- لجهلهم وغرورهم وإعجابهم بحصونهم- أنها ستمنعهم من الله إذا أراد بهم أمرًا من الإخراج أو القتل أو غير ذلك.

قال الزمخشري(٣): «وفي تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسمًا لـ«أن» وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم، وليس ذلك في قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم».

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾، أي: جاءهم الله- عز وجل- وأمره من حيث لم يظنوا، ولم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٠١، وأبو داود في الملاحم ١/ ٤٣، والترمذي في الفتن ٢١٨٣، وابن ماجه في الفتن ٤٠٤١، ٤٠٥٥ من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري- رضي الله عنه.

(٣) في «الكشاف» ٤/ ٧٩.

كما قال عز وجل: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، أي: ألقى في قلوبهم الخوف والهلع والهزيمة من داخلهم وهذا- فيما يظهر- تفسير لقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ إذ كانوا يفتخرون بقوتهم ومنعتهم وحصونهم، فأتاهم الله من حيث لم يخطر لهم على بال، أي من باب وطريق لم يظنوا أنهم سيؤتون منه، فألقى الله في قلوبهم الرعب والخوف، وكان من أسباب ذلك قتل كعب بن الأشرف سيدهم، فانهزموا من داخلهم، بعد أن نزل بهم رسول الله ﷺ في أصحابه وحاصرهم. وفي الحديث قال ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»(١).

قال السعدي(٢): «﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة ولا قوة، ولا شدة. فالأمر الذي يحتسبونه، ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل، هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله كان وبالًا عليه، فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم..»

ولهذا سألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ففعل، فحملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ قرأ أبو عمرو: «يُخَرِّبون بيوتهم» بفتح الخاء وتشديد الراء، وقرأ الباقون بإسكان الخاء وتخفيف الراء.

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم ٣٣٥، ومسلم في المساجد ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٨.

أي: يهدمون بيوتهم ويفسدونها بأيديهم أنفسهم، حيث كان الواحد منهم يهدم بيته بيده بنفسه؛ ليحمل ما يمكنه من المنقولات، من أخشاب وغيرها، حتى عتبات الأبواب على ظهر بعيره، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وتركوا ديارهم وأموالهم وأسلحتهم لرسول الله ﷺ، فحازها رسول الله ﷺ، وكان فيها خمسون درعًا، وخمسمائة بيضة، وثلثمائة وأربعون سيفًا.

﴿وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ويهدمون بيوتهم ويفسدونها بأيدي المؤمنين.

وذلك لإجبار المؤمنين لهم على ذلك حيث حاصروهم، وعاهدهم الرسول ﷺ على الكف عن دمائهم مقابل خروجهم، ولهم ما تمكنوا من حمله من أثاث وغيره ما عدا السلاح.

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: خذوا العبرة والعظة يا أصحاب البصائر والعقول المستنيرة من حال هؤلاء اليهود الذين حل بهم من أمر الله ما لم يخطر لهم على بال من الذل والخوف من داخل نفوسهم فأخذوا يخربون ويهدمون بيوتهم بأنفسهم ويخرجون من ديارهم بسبب كفرهم ونقضهم العهود والمواثيق.

ووجه الخطاب بالاعتبار لأولي الأبصار والعقول السليمة؛ لأنهم هم الذين تهديهم بصائرهم وعقولهم، إلى التأمل والنظر والبحث عن الحق والسماع له واتباعه.

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ الواو: استئنافية و«لولا» شرطية غير جازمة وهي: حرف امتناع لوجود، «كتب»، أي: قدّر، «عليهم الجلاء»، أي: النفي والخروج من ديارهم وأموالهم، أي: ولولا أن قدر الله عليهم الجلاء واقتضته حكمته.

﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ جواب «لولا»، واللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لعذبهم في الدنيا عذابًا آخر بالقتل والسبي ونحو ذلك كما فعل بإخوانهم بني قريظة بعد ذلك لما نقضوا العهد.

أي: لولا أن الله- عز وجل- قدر عليهم الجلاء والنفي والإخراج من ديارهم

وأموالهم- وهو بلا شك عذاب لهم وعقوبة- لعذبهم في الدنيا عذابًا أشد من ذلك بالقتل والسبي ونحو ذلك.

ففي الآية إشارة إلى استحقاقهم عذابًا أشد من الجلاء، لكن الله عز وجل قدر عليهم واختار لهم ما هو أخف وهو الجلاء.

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾، أي: ولهم مع عذاب الدنيا سواء أُجْلُوا أو قتلوا عذاب النار، وهو العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما سبق من إخراج أهل الكتاب من ديارهم إلى أرض المحشر الشام، وقذف الرعب في قلوبهم، وحملهم على تخريب بيوتهم، وما أُعد لهم في الآخرة من عذاب النار.

﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، أي: بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله، أي: عادوا الله ورسوله، وخالفوا أمر الله ورسوله.

والمشاقة: أن يتخذ المشاق شقًا وجانبًا غير شق الآخر وجانبه.

والمعنى: أنهم خالفوا وعصوا وحادوا الله ورسوله، وكذبوا ما جاءهم من الحق على ألسنة رسل الله، ومنهم خاتمهم محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسمه- عز وجل- بالواو التي تقتضي

التشريك في الحكم؛ لأن مشاقة الرسول ﷺ مشاقة لله عز وجل.

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

لما كان المقام مقام ذكر العقاب، لم يقل: ومن يشاق الله ورسوله- وإن كان المعنى هكذا- لأن أمر الثواب والعقاب إلى الله وحده، أي: ومن يخالف الله- عز وجل- ويعص أمره ويرتكب نهيه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، أي: فإن الله شديد العقاب لمن شاقه وخالف أمره وارتكب نهيه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

قوله: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة- فأنزل الله- عز وجل: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾»(١).

وفي رواية عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «حاربت النضير وقريظة، فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم

(١) أخرجه البخاري في المغازي- حديث بني النضير ٤٠٣١، ومسلم في الجهاد- جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها ١٧٤٦، وأبو داود في الجهاد ٢٦١٥، والترمذي في السير ١٥٥٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٤٤، وأحمد ٢/ ٨٠٧.

وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود بالمدينة»(١).

وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ حرق نخل بني النضير، قال: ولها يقول حسان بن ثابت- رضي الله عنه:

وهان على سراة بني لُؤيٍّ(٢) حريق بالبويرة مُسْتطير

قال: فأجابه أبو سفيان بن الحارث:

أدام الله ذلك من صنيع وحرّق في نواحيها السعير

ستعلم أينا منها بنُزْهٍ(٣) وتعلم أي أرضينا تضير»(٤)

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: «يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضًا وتركنا بعضا، فلنسألن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل لنا فيما تركنا من وزر، فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾»(٥).

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: «رخص لهم في قطع النخل، ثم شدد عليهم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله علينا إثم فيما قطعنا، أو علينا وزر فيما تركنا؟ فأنزل

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٢٨ ومسلم في الجهاد والسير ١٧٤٦، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٣٠٠٥.

(٢) السراة الرؤساء، وبنو لؤي: هم قريش، فهم الذين أغروا بني النضير بنقض العهد ووعدوهم أن ينصروهم.

(٣) النزه: البعد. وهذا إنما قاله أبو سفيان قبل إسلامه- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٣٢ وانظر «ديوان حسان» ص١١٠، و«سيرة ابن هشام» ٢/ ٢٧٢.

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٠٣، وقال: «حديث حسن غريب».

الله- عز وجل-: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾»[١].

وعن يزيد بن رُومان قال: «لما نزل رسول الله- ﷺ بهم- يعني بني النضير- تحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾»[٢].

قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، «ما» اسم شرط جازم في محل نصب لـ«قطعتم» و«قطعتم» فعل شرط، واللينة: النخلة، واللين: النخل والتمر.

﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾، أي: فلم تقطعوها.

﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، أي: كل ذلك القطع أو تركه بإذن الله، أي: بأمره الكوني والشرعي، كما أحل عز وجل لنبيه ﷺ القتال بمكة ساعة من نهار.

﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: وليذل الفاسقين الخارجين عن طاعة الله ورسوله من اليهود وأوليائهم من المنافقين وغيرهم.

وفي هذا إشارة إلى أن في قطع النخل إذلالًا للفاسقين، وكان من أسباب إلقاء الرعب في قلوبهم.

ولقد سجل هذا النصر للمسلمين في إجلاء بني النضير، وقتل كعب بن الأشرف عدد من شعراء المسلمين- قال كعب بن مالك- رضي الله عنه:

لقد خزيت بغدرتها الحبور[٣]   كذاك الدهر ذو صرف يدور

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٨٦ وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥١١.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٠، وانظر ٥١١.

(٣) الحبور: جمع حبر، أراد بها علماء اليهود.

وذلــك أنهــم كفــروا بـــرب — عظيــم أمــــره أمـــر كبـــير
وقــد أوتــوا معًــا فهــمًا وعلــمًا — وجاءهُــمُ مــن الله النذيـــر
نذيـــر صـــادق أدى كتابـــًا — وآيـــات مبينـــة تنيـــر
فقــالوا مــا أتيــت بــأمر صــدق — وأنــت بمنكــر منــا جديـــر
فقــال: بــلى لقــد أديــت حقــًا — يصــدقني بــه الفَهِــم الخبيـــر
فمــن يتبعــه يهــد لكــل رشــد — ومــن يكفــر بــه يجــز الكفــور
فلــما أُشربــوا غــدرًا وكفــرًا — وجــدّبهم عــن الحــق النفــور
أرى الله النبـــي بـــرأي صـــدق — وكـــان الله يحكـــم لا يجـــور
فأيـــده وسلطــــه عليهـــم — وكـــان نصـــيره نعـــم النصيـــر
فغـــودر مـــنهم كعـــب صريعًـــا — فـــذلت بعـــد مصرعـــه النضيـــر

إلى أن قال:

فـــذاقوا غـــب أمـــرهم وبـــالًا — لكـــل ثلاثـــة منهـــم بعيـــر[(١)]
وأجلـــوا عامـــدين لقينقـــاع — وغـــودر مـــنهُمُ نخـــل ودور[(٢)]

الفوائد والأحكام:

١- أن كل ما في السموات وما في الأرض يسبح الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «العزيز» و«الحكيم» وأنه ذو العزة

(١) أي: يتعاقبون عليه في خروجهم.

(٢) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ١٩٩- ٢٠٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٧- ٨٨، «البداية والنهاية» ٥/ ٥٤١.

التامة، وذو الحكم النافذ والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٣- قدرة الله عز وجل- وقوته وشدة بأسه، وعظيم نعمته على المؤمنين في إخراجه يهود بني النضير من المدينة إلى أرض المحشر الشام مع استبعاد المؤمنين خروجهم، واغترار بني النضير بقوتهم ومنعة حصونهم؛ لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾.

٤- الإشارة إلى أن أرض المحشر هي الشام.

٥- لا عاصم من أمر الله، وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا دافع له ولا مانع، وما لهم من دونه من وال.

٦- هزيمة الله- عز وجل- لبني النضير من داخل أنفسهم مما لم يخطر ببالهم، وإلقاؤه الرعب في قلوبهم، مما جعلهم يخربون بيوتهم ويخرجون من ديارهم بعد حصارهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٧- وجوب أخذ العبرة والعظة مما حل ببني النضير مما لم يخطر لهم على بال من الذل والخوف من داخل نفوسهم ومن ثم تخريبهم بيوتهم وإخراجهم صاغرين- بسبب كفرهم ونقضهم العهود والمواثيق؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

٨- أنه إنما يتذكر ويعتبر أصحاب العقول والبصائر؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

٩- أن ما أحله الله ببني النضير من الجلاء هو ما كتبه الله عليهم وهو أخف العقوبتين، أي: أخف من القتل والسبي ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ﴾.

١٠- الوعيد الشديد لليهود بعذاب النار في الآخرة لكفرهم وصدهم عن سبيل

الله ونقضهم العهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾.

١١- إثبات الدار الآخرة.

١٢- ذم يهود بني النضير بمشاقة الله والرسول ومخالفتهم أمر الله ورسوله وأن ما حلّ بهم من الجلاء والوعيد في النار هو بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

١٣- إثبات الحكمة في أفعال الله، وإثبات الأسباب.

١٤- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله في باب المخالفة والطاعة بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم، لأن معصية الرسول ﷺ معصية لله وطاعته طاعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

١٥- شدة عقاب الله- عز وجل- وانتقامه ممن خالف أمره وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

١٦- أن ما حصل من المؤمنين من قطع لبعض نخيل بني النضير وترك لبعضها هو بإذن الله وأمره الكوني والشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٧- إثبات الإذن لله تعالى بقسميه الكوني والشرعي.

١٨- أن إذن الله- عز وجل- للمؤمنين بقطع نخيل بني النضير هو لإذلالهم وإلقاء الرعب في قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

١٩- بلوغ يهود بني النضير غاية الفسق والخروج عن طاعة الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة أنه هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم وكتب عليهم الجلاء منها، بيانًا لقدرة الله- عز وجل- وقوته وامتنانا على عباده المؤمنين ثم ذكر منته على رسوله ﷺ بما أرجع إليه من أموال بني النضير من غير قتال، وحكم هذه الأموال، ثم ذكر حكم أموال الفيء عمومًا.

قوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ الواو عاطفة، و«ما» اسم شرط جازم، أي: وما رده الله على رسوله منهم، أي: من أموال بني النضير.

و«أفاء» بمعنى: رد وأرجع، ومنه سمي الفيء وهو ظل الزوال، من فاء أي: رجع.

والفيء: ما أُخذ من أموال الكفار بحق من غير قتال.

والمعنى: وما رده الله وأرجعه على رسوله من أموال بني النضير.

وفي هذا إشارة إلى أن المال لا يستحقه إلا الرسل وأتباعهم المؤمنون فقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي: وما رده ممن لا يستحقه إلى من يستحقه، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور: ٥٥].

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«ما» نافية، والإيجاف: الإسراع، والركاب: الإبل.

أي: فما أسرعتم عليه من خيل ولا إبل ولا سيرتموها ولا قاتلتم ولا بارزتم للحصول عليه، أي: لم تتعبوا بتحصيله، لا بأنفسكم ولا بخيلكم وإبلكم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ الواو: عاطفة، أي: ولكن الله يسلط رسله على من يشاء، كما سلط رسوله محمدًا ﷺ على بني النضير فحاصرهم، وأوقع الله في قلوبهم الرعب، فخرجوا وتركوا ديارهم وأموالهم، فصارت أموالهم فيئًا رده الله إلى رسوله ﷺ يضعها كيف يشاء.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وقال مرة: قوت سنته، وما بقي جعله على الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل»[(١)].

وقد روي أن رسول الله ﷺ قسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار شيئًا إلا رجلين، هما: سهل بن حنيف، وأبو دجانة سماك بن خرشة، ذكرا فقرا فأعطاهما[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أيًّا كان ذلك الشيء صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا؛ ولهذا قدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو عز وجل ذو القدرة التامة على كل شيء، ومن قدرته عز وجل أن أنزل الذين كفروا من أهل الكتاب من حصونهم وأخرجهم وأجلاهم من ديارهم، بلا قتال، بل بهزيمتهم من داخلهم، بإلقاء الرعب والخوف في قلوبهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٠٤، ومسلم في الجهاد ١٧٥٧، وأبو داود في الخراج ٢٩٦٥، والنسائي في قسم الفيء ٤١٤٠، والترمذي في الجهاد ١٧١٩، وأحمد ١/ ٢٥، ٤٨. وانظر «زاد المعاد» ٥/ ١٢٨.

(٢) انظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩٠- ١٩٢، «سنن أبي داود»،- كتاب الخراج ٢٩٧١ «جامع البيان» ٢٢/ ٥٠٠- ٥٠٢، ٥١٣، ٥١٨- ٥٢٠، ٥٢٦، «سنن البيهقي» ٦/ ٢٩٦ «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٣- ٨٤، ٩٠، «البداية والنهاية» ٥/ ٥٣٧.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾، أي: ما رد الله على رسوله من أموال أهل القرى التي تفتح بدون قتال.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: فسهم منه لله- عز وجل، وسهم منه للرسول ﷺ يضعه مع سهم الله- عز وجل- في مصالح المسلمين، وسهم منه «لذي القربى»، أي: لقرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب، يسوى بين ذكورهم وإناثهم، وسهم منه لليتامى، وهم الذين فقدوا آباءهم وهم دون البلوغ، قال ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»(١).

وسهم منه للمساكين، وهم من لا يجدون كفايتهم، أو لا يجدون شيئا، سموا مساكين من السكون، وهو عدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنهم وأذلهم، وسهم منه لابن السبيل، وهو المسافر المنقطع في سفره، ولو كان غنيا في بلده، سمي بابن السبيل؛ لملازمته السبيل وهو الطريق للسفر.

وهذه المصارف المذكورة للفيء في هذه الآية هي مصارف خمس الغنيمة المذكورة في سورة الأنفال في قوله- عز وجل-: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٤١].

وهذه هي المصارف الخاصة للفيء، وهم أهل الخمس، ومصارفه العامة هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم إلى يوم الدين، لقوله تعالى بعد هذا: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، وبهذا عمل ﷺ وخلفاؤه الراشدون.

قال ابن القيم(٢): «ومن تأمل النصوص وعمل رسول الله ﷺ- وخلفائه وجده

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤٢٣- ٤٢٥، «زاد المعاد» ٥/ ٨٤- ٨٧.

يدل على قول أهل المدينة- يعني هذا القول- فإن الله سبحانه جعل أهل الخمس هم أهل الفيء، وعينهم اهتمامًا بشأنهم وتقديمًا لهم، ولما كانت الغنائم خاصة بأهلها، لا يشركهم فيها سواهم نص على خمسها لأهل الخمس، ولما كان الفيء لا يختص بأحد دون أحد جعل جملته لهم وللمهاجرين والأنصار وتابعيهم، فسوى بين الخمس وبين الفيء في المصرف، وكان رسول الله ﷺ يصرف سهم الله وسهمه في مصالح الإسلام، وأربعة أخماس الخمس في أهلها مقدمًا للأهم فالأهم، والأحوج فالأحوج، فيزوج منه عزابهم، ويقضي منه ديونهم، ويعين ذا الحاجة منهم، ويعطي عزبهم حظًا ومتزوجهم حظين، ولم يكن هو ولا أحد من خلفائه يجمعون اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وذوي القربى ويقسمون أربعة أخماس الفيء بينهم على السوية، ولا على التفضيل، كما لم يكونوا يفعلون ذلك في الزكاة، فهذا هديه وسيرته، وهو فصل الخطاب ومحض الصواب».

﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ قرأ أبو جعفر: «تكون» بالتأنيث، و«دولةٌ» بالرفع، وقرأ الباقون: ﴿يَكُونَ﴾ بالتذكير ونصب ﴿دُولَةَۢ﴾.

﴿كَيۡ﴾ حرف مصدري ونصب، و«لا» حرف نفي، أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء؛ لئلا يكون متداولًا بين الأغنياء فقط يستأثرون به دون الفقراء.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» اسم شرط جازم في الموضعين، والفاء في الموضعين رابطة لجواب الشرط.

والمعنى: وما أعطاكم الرسول من الفيء وغيره ﴿فَخُذُوهُ﴾، وما أمركم به من الأوامر فافعلوه، ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾، أي: وما نهاكم عنه من الفيء وغيره من النواهي فانتهوا عنه واتركوه.

قال ابن كثير[1]: «أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٩٢.

يأمر بخير وإنما ينهى عن شر».

و«ما» في الموضعين تفيد العموم في المأمورات والمنهيات، ويدخل فيها كل ما أمر به الشرع، وكل ما نهى عنه.

فقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قاعدة أصولية وأصل عام يشمل جميع أصول الدين وفروعه، وأن ما جاء به الرسول ﷺ يجب الأخذ به واتباعه، سواء كان مما جاء في القرآن الكريم، أو مما جاء في السنة النبوية، لا فرق في ذلك، فكل ذلك وحي من عند الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحُسْن، المغيرات خلق الله- عز وجل- قال: فبلغ امرأة في البيت يقال لها أم يعقوب، فجاءت إليه، فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت. قال: ما لي لا ألعن من لَعَن رسولُ الله ﷺ وفي كتاب الله. فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قالت: بلى. قال: فإن النبي ﷺ نهى عنه»(١).

وعن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عمر وابن عباس أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الدُّبَّاء والحنتم والمزفت والنقير، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٦، ومسلم في اللباس- تحريم فعل الواصلة ٢١٢٥، وأبو داود في الترجل ٤١٦٩، والنسائي في الزينة ٥٠٩٩، والترمذي في الأدب ٢٧٨٢، وابن ماجه في النكاح ١٩٨٩، وأحمد ١/ ٤٣٣- ٤٣٤.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في الأشربة ٥٦٤٣. وأخرجه من غير ذكر الآية البخاري في الإيمان ٥٣، ومسلم في الأشربة ١٩٩٧، وأبو داود في الأشربة ٣٦٩٠، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣١، =

وفعل الأوامر مقيد بالاستطاعة، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أما ترك النواهي فهو بمقدور كل أحد، ولهذا قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[1].

لكن الضرورات في الإسلام تقدر بقدرها، فمن ألجأته الضرورة، أو أكره على فعل أو قول منهي عنه فهو معذور، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل:١٠٦].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره أو ارتكب نهيه، فعقابه شديد من حيث كمه وكيفه ونوعه ووقته.

الفوائد والأحكام:

١- بيان أن أموال بني النضير التي ردها الله- عز وجل- على رسوله بلا قتال هي له ﷺ خاصة يضعها كيف يشاء، والإشارة إلى أن الغنم على قدر الغرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾.

٢- تسليط الله رسله على من يشاء، وإثبات المشيئة له- عز وجل- وإثبات قوته وقدرته على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

=

والترمذي في الأشربة ١٨٦٨، وابن ماجه في الأشربة ٣٤٠٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام- الاقتداء برسول الله ﷺ ٧٢٨٨، ومسلم في الفضائل- توقيره ﷺ ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، وابن ماجه في المقدمة ١.

٣- بيان مصرف الفيء الذي يأخذه المسلمون من الكفار بغير قتال، وأنه يجعل ستة أسهم سهم لله وسهم للرسول ﷺ يوضعان في مصالح المسلمين وسهم لقرابة الرسول ﷺ، بني هاشم وبني المطلب، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل، وهي مصارف خمس الغنيمة المذكورة في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٤١]؛ لقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٤- أن الله عز وجل جعل الفيء في هذه المصارف الستة لئلا يبقى متداولًا بين الأغنياء يستأثرون به دون الفقراء؛ لقوله تعالى: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾.

٥- إثبات الحكمة في أحكام الله وأفعاله الشرعية الكونية.

٦- عناية الإسلام بقرابة النبي ﷺ واليتامى والمساكين وابن السبيل، ومصالح المسلمين.

٧- وجوب مراعاة حقوق اليتامى والمساكين وابن السبيل وذوي الحاجات في المجتمع الإسلامي، وأن الإسلام وسط بين الشيوعية والرأسمالية.

٨- وجوب الأخذ بما جاء به الرسول ﷺ والانتهاء عما نهى عنه، وتقوى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ﴾.

٩- شدة عقاب الله لمن خالف أمره وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة مصارف الفيء الخاصة، ثم أتبع ذلك بذكر مصارفه العامة، وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين- مردفًا ذلك بالثناء عليهم حسب فضلهم ومنزلتهم، المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم.

قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾، «للفقراء» بدل من قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [٧] وما عطف عليه، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ما أفاء الله على رسوله للفقراء المهاجرين- إلى آخر ما عطف عليه، أو معطوف على ما قبله مع حذف حرف العطف والتقدير: وللفقراء المهاجرين. وقيل غير ذلك.

أي: أن مصارف الفيء العامة هم الفقراء المهاجرون، والذين تبوؤوا الدار والإيمان والذين جاؤوا من بعدهم.

والفقير مأخوذ من الأرض القفر، أي: الأرض التي لا نبات فيها ولا شجر، أو من انفصام فقار الظهر، المؤدي إلى الهلكة.

والفقير والمسكين إذا انفرد كل منهما شمل الآخر وصارا صنفًا واحدًا أما إذا ذكرا جميعًا، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فهما صنفان. وقد اختلف أهل العلم أيهما أحسن حالًا المسكين أو الفقير.

وقد يستدل بهذه الآية على ما ذهب إليه أكثر أهل العلم من أن الفقير أسوأ حالًا لأنه لا يملك شيئًا؛ ولهذا سمى الله المهاجرين فقراء؛ لأنهم لا شيء عندهم البتة هاجروا

وتركوا ديارهم وأموالهم.

وقد استعاذ ﷺ من الفقر، فقال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر**»(١).

بينما سأل ﷺ المسكنة، فقال: «**اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين**»(٢).

و﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ جمع مهاجر، مأخوذ من الهجرة، وهي في اللغة: الترك، وفي الشرع: الخروج من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

والمراد: الذين هاجروا من مكة إلى المدينة من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، يوم أن كانت مكة- شرفها الله- دار كفر، فلما فتحها ﷺ وصارت دار إسلام فلا هجرة منها قال ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا**»(٣)، أي: لا هجرة من مكة بعد فتحها.

والهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام باقية إلى قيام الساعة، قال ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٤).

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، أي: الذين أخرجهم كفار مكة من ديارهم وأموالهم، وذلك بالتضييق عليهم وأذيتهم لهم في أبدانهم وعدم تمكينهم من أداء شعائر دينهم، واضطرارهم إلى الخروج من مكة وترك ديارهم وأموالهم وأهليهم وعشائرهم،

---

(١) أخرجه النسائي في السهو ١٣٤٧- من حديث أبي بكرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٥٢، من حديث أنس رضي الله عنه. وقال هذا حديث غريب» وأخرجه ابن ماجه في الزهد ٤١٢٦ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٨٣، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبو داود في الجهاد ٢٤٨٠، والنسائي في البيعة ٤١٧٠، والترمذي في السير ١٥٩٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٤٧٩، والدارمي في السير ٢٥١٣- من حديث معاوية- رضي الله عنه.

حتى إن الواحد منهم يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع ويتخذ الحفرة دثارًا له في الشتاء من شدة الحاجة.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يطلبون.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: زيادة في دينهم ودنياهم وأجرًا في آخرتهم.

كما قال عز وجل: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] أي: سعة في دينه ودنياه.

﴿وَرِضْوَٰنًا﴾، أي: ورضوان الله- عز وجل- عنهم.

فهجرتهم خالصة لله عز وجل؛ طلبًا للزيادة والفضل منه- سبحانه وتعالى، وطلبًا لرضاه.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ الواو: عاطفة، والجملة في محل نصب معطوفة على ﴿يَبْتَغُونَ﴾، أي: فخروجهم وهجرتهم؛ لابتغاء الفضل والرضوان من الله- عز وجل- ولأجل نصرة دين الله ورسوله.

فنصرة الله- عز وجل- بنصرة دينه، ونصرة رسوله ﷺ بنصرته نفسه ودينه في حياته، ونصرة سنته ودينه بعد وفاته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، أي: الصادقون في إيمانهم ظاهرًا وباطنًا، وفي هجرتهم، الذين صدَّقوا إيمانهم وأقوالهم بفعالهم، فخرجوا وتركوا ديارهم وأموالهم، طلبًا للفضل من الله والرضوان، ونصرة الله ورسوله، كما قال ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله».

بخلاف من قال فيهم: «ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٤، ومسلم في الإمارة ١٩٠٧، وأبو داود في الطلاق ٢٢٠١، والنسائي في =

والهجرة في سبيل الله، وترك المحبوبات والمألوفات؛ من الديار والأهل والأولاد والأموال والعشيرة ونحو ذلك من أعظم الدلائل على صدق الإيمان.

عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفًا على الحَزْوَرَة[(١)]، فقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[(٢)].

قال أبو تمام[(٣)]:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه دومًا لأول منزل

وقال الآخر:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنوا علي كرام[(٤)]

ولهذا لما أراد بعض الصحابة- رضوان الله عليهم- الهجرة منعهم أولادهم فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤][(٥)].

فليس من السهل على النفوس ترك هذه المحبوبات والمألوفات إلا على من تركها إيثارًا لما هو أحب إليه منها، وهو طلب مرضاة الله عز وجل، وما عنده من الثواب العظيم في جنات النعيم.

= الطهارة ٧٥، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٧- من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(١) الحَزْوَرَة على وزن قسورة موضع في مكة عند باب الحناطين.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٣١٠٨- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

(٣) انظر: «ديوانه» ص٤٥٧.

(٤) انظر: «البلاغة الواضحة» ص٨٧.

(٥) انظر سبب نزول هذه الآية في الكلام عليها في تفسير سورة التغابن.

وهذا يدل على فضل المهاجرين الأولين، وقدمهم في السبق في الإيمان- رضي الله عنهم وأرضاهم- قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن كثير[١]: «وهؤلاء هم الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين».

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾.

أثنى الله- عز وجل- على المهاجرين، ثم أتبع ذلك بالثناء على الأنصار- رضي الله عنهم وأرضاهم- مبينا فضلهم وشرفهم وكرمهم وسلامة صدورهم، وإيثارهم- مع حاجتهم- لإخوانهم المهاجرين، وأن لهم نصيبًا من الفيء.

عن يزيد بن الأصم- رضي الله عنه-: «أن الأنصار قالوا: يا رسول الله، اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين، قال: «ولكنهم يكفونكم المؤونة وتقاسمونهم الثمرة، والأرض أرضكم». قالوا: رضينا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾»[٢].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الواو: استئنافية[٣]، أي: والذين سكنوا دار الهجرة المدينة من قبل المهاجرين، وسبقوا إلى الإيمان قبل كثير منهم.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٩٤.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٨٠.

(٣) وقيل عاطفة، فيكون قوله: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان﴾ معطوفًا على قوله: ﴿للمهاجرين﴾ انظر «الكشاف» ٤/ ٨٢.

وذلك أن الأنصار أسلم منهم من أسلم قبل الهجرة، وقدم منهم من قدم في العقبة الأولى والعقبة الثانية، وبايعوا النبي ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، أي: يحبون محبة صادقة في الله ولله من هاجر إليهم من إخوانهم المهاجرين.

قال ابن كثير(١): «أي: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم».

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾، أي: ولا يحسون في صدورهم لسلامتها ﴿حَاجَةً﴾ من حسد أو ضغينة أو حرج على إخوانهم المهاجرين.

﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾، أي: مما أعطاهم الله من الفضل والشرف، والتقديم في الذكر، والرتبة والمنزلة الرفيعة.

وفي هذا دلالة على أن المهاجرين أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم في الذكر، وذكر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

وقيل: ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ من الفيء وغيره، يعني أن نفوسهم لا تتبع ما أعطي إخوانهم المهاجرون من الفيء وغيره.

والسلامة من الحسد وأمراض القلوب مقام رفيع ومطلب عزيز لا يرتقي إليه إلا من وفقه الله ورزقه الله قلبًا سليما، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٩٤.

تعلق نعليه بيده الشمال. فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحيت(١) أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت. قال: نعم. قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي، فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعارَّ وتقلب على فراشه ذكر الله وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلعت أنت الثلاث المرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًا، ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق»(٢).

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

سبب النـزول:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف

---

(١) أي: نازعت.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ١٦٦، والطبراني بإسناد حسن. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٩٦: «ورواه النسائي في اليوم والليلة عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن معمر، به. وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين، لكن رواه عقيل وغيره عن الزهري، عن رجل، عن أنس فالله أعلم. وانظر «العلل» للدارقطني (٤/ ٢٦/ ب) و«مرويات الإمام الزهري المعللة» للدكتور عبد الله دمغو ٣/ ١٣١١ حديث ٧٩، «مجموع الفتاوى» ١٠/ ١١٨- ١١٩.

هذا الليلة، رحمه الله،؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي، فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ، فقال: «**لقد عجب الله- عز وجل- أو ضحك من صنيعكما البارحة**» وأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة- رضي الله عنه»(١).

قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾، أي: ويقدمون. والإيثار أن يقدم الإنسان غيره على نفسه بمحاب النفس من المال والطعام والشراب والمتاع ونحو ذلك، مع حاجته إلى ذلك أو ضرورته إليه، وهو أكمل أنواع الجود والكرم، وهو ضد الأثرة والجشع والطمع والشح والأنانيّة.

﴿خَصَاصَةٌ﴾: حاجة وفاقة وفقر.

والمعنى: أنهم رضي الله عنهم يقدمون على أنفسهم المحتاجين من إخوانهم المهاجرين ولو كان بهم حاجة وفاقة، فيبدؤون بحاجة غيرهم قبل حاجتهم.

وقد قال ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل»(٢).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلًا في كثير لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا، ما أثنيتم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٩، ومسلم في الأشربة- إكرام الضيف ٢٠٥٤، والترمذي في تفسير سورة الحشر ٣٣١٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٢٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر- فضل التطوع في البيت ١٤٤٩، والنسائي في الزكاة- جهد المقل ٢٥٢٦، وأحمد ٣/ ٤١١- ٤١٢ من حديث عبد الله بن حبشي رضي الله عنه. وأخرجه أيضا ٢/ ٣٥٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ومن حديث أبي ذر- رضي الله عنه- ٥/ ١٧٨، ١٧٩، ٢٦٥.

عليهم، ودعوتم الله لهم»[١].

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: دعا النبي ﷺ الأنصار أن يُقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثرة»[٢].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا». فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا»[٣].

والإيثار منزلة عظيمة ودرجة رفيعة من أعلى مراتب الكرم، إن لم تكن أعلاها، ولقد ضرب الأنصار رضي الله عنهم وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ في هذا أروع الأمثال.

قال ابن كثير[٤] في كلامه على قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: «وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه. ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك»؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله»[٥].

وهذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٢٠٠- ٢٠١، ٢٠٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، قول النبي ﷺ للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» ٣٧٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في المزارعة- إذا قال: اكفني مؤونة النخل أو غيره وتشركني في الثمرة ٢٣٢٥.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٩٦- ٩٧.

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥ والدارمي في الزكاة ١٦٦٠- من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إلى صاحبه، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث، فما وصل الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم».

فكفى الأنصار رضي الله عنهم شرفًا وفخرًا آووا رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، وأحبوهم، وواسوهم بكل ما يملكون مع سلامة صدورهم عليهم وإيثارهم لهم على أنفسهم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الواو: اعتراضية، و«من» شرطية، و«يوق» فعل الشرط وجوابه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ومعنى ﴿يُوقَ﴾ يكف، ويسلم من شح نفسه، وهو من رزق الإيثار.

والشح يقال بضم الشين وكسرها وفتحها، وهو أشد من البخل، وقيل: هو البخل مع حرص. قال المتنبي(١):

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها ... وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

قال الزمخشري(٢): «الشح بالضم والكسر: اللؤم، وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع، كما قال:

يمارس نفسًا بين جنبيه كزة ... إذا هم بالمعروف قالت له مهلًا(٣)

وقد أضيف إلى النفس؛ لأنه غريزة فيها، وأما البخل فهو المنع بنفسه».

والشح أعم من البخل؛ لأن البخل يطلق- غالبًا- على منع المال فقط، وضرره غالبًا على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨] وقد

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٥٦.

(٢) في «الكشاف» ٤/ ٨٢.

(٣) انظر: «غرر الخصائص الواضحة» ص٣٦١، «الكشاف» ٤/ ٥٠٥، «أساس البلاغة» ص٥٤٣.

يطلق البخل على منع غير المال، وفي الحديث: «أبخل الناس من بخل بالسلام»(١).

أما الشح فهو يتعلق بمنع الحق الواجب من المال، وبغير ذلك من أوجه الخير والإحسان، والمعروف، بل ويحمل على الاعتداء على حقوق الناس وأموالهم.

قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

وفي قصة هند زوجة أبي سفيان أنها قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني ما يكفيني وولدي. فقال ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف»(٢).

وعن الأسود بن هلال قال: «جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلكت! فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح، لا أكاد أخرج من يدي شيئا، فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلمًا، ولكن ذلك البخل وبئس الشيء البخل»(٣).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «بريء من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة»(٤).

وعن أبي الهياج الأسدي قال: «كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلًا يقول: «اللهم قني شح نفسي» لا يزيد على ذلك، فقلت له: فقال: «إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٦/ ٤٠، والبيهقي في «شعب الإيمان»، ٦/ ٤٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢١١، ومسلم في الأقضية ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٩٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٢٩- ٥٣٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٦- ٣٣٤٧.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٠- ٥٣٢.

ولم أزن، ولم أفعل» وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه»(١).

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، والفلاح: الفوز والظفر والنجاح، الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

وأكد الفلاح لمن وقي شح نفسه بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**»(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا**»(٤).

ومن هذه الأحاديث والآثار يتبين أن الشح أشد وأعظم من البخل؛ لأن الشح يحمل على منع الواجب وتركه، وعلى ارتكاب المحرم والظلم.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في البر- تحريم الظلم ٢٥٧٨، وأحمد ٣/ ٣٢٣.

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة- صلة الرحم ١٦٩٨، وأحمد ٢/ ١٥٩- ١٦٠.

(٤) أخرجه النسائي في الجهاد- فضل من عمل في سبيل الله على قدمه ٣١١٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٣٣، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٧٤، وأحمد ٣/ ٢٥٦، ٣٤٠، ٣٤٢، ٤٤١، ٥٠٥.

والشحيح يقصر في أداء الواجب، ويمنع الحق الذي عليه، ولا يتنازل عن شيء من حقه، ولو كان عند أقرب الناس إليه كوالده وولده وزوجه.

يُحرِّج الآخرين، ولا يُحلل أحدا عن مظلمة، بل قد يشح بالدعاء لغيره من المسلمين، حاله وهو غير جاهل كحال ذلك الأعرابي الجاهل الذي قال: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا. فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «**لقد حجرت واسعًا**»[(١)].

وما أشبه من هذه حاله بالحاسد الذي يكره الخير للغير.

فمن وقي شح نفسه سمحت نفسه بأداء حقوق الله، وحقوق الخلق، والبعد عما نهى الله عنه، وعن ظلم الخلق، وسمحت نفسه ببذل المال والخير والمعروف والخُلُق الطيب في سبيل الله، وذاق طعم الحياة، وسعد في دينه ودنياه وأخراه- نسأل الله التوفيق.

وليس من الشح المذموم الشح بالوقت أن يضيع ويذهب سدى، بل هو من الشح المحمود، لأن الوقت أغلى ما أعطي للإنسان، وقد أقسم الله به في مواضع كثيرة من كتابه العزيز كما قال عز وجل: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

قال ابن القيم[(٢)]: «فإن الفلاح كل الفلاح في الشح به، فمن لم يكن شحيحًا بوقته تركه الناس على الأرض عيانًا مفلسًا، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله، ومما يدل على هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها، والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها».

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة ٣٨٠، والترمذي في الطهارة ١٤٧، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٥٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٥.

سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أثنى الله عز وجل على المهاجرين، ثم أتبع ذلك بالثناء على الأنصار، ثم ثلث بالثناء على من جاء بعدهم من التابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]. مبيناً أن لهم نصيبهم من الفيء.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾، أي: والذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار أي: بعد الصحابة رضي الله عنهم وهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم إلى يوم القيامة. «يقولون» خبر للاسم الموصول «الذين».

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، والرب: هو الخالق المالك المدبر.

﴿ٱغْفِرْ لَنَا﴾، أي: اغفر لنا ذنوبنا. والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه.

﴿وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، أي: واغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة أجمعين.

وكذا كل من سبق بالإيمان فمن جاء بعده من إخوانه المؤمنين إلى قيام الساعة يدعون له بالمغفرة فيدعو المتأخر منهم للمتقدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولهذا قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١).

وهذا يدل على فضل السابق على اللاحق من حيث العموم ولهذا قال ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي بعدهم قوم يشهدون ولا

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»(١).

وعن الزبير بن عدي قال: «أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم ﷺ»(٢).

وفي حديث حذيفة- رضي الله عنه- قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»(٣).

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: ولا تجعل في قلوبنا حقدًا وبغضًا وحسدًا للذين آمنوا ممن سبقونا، ولا ممن هم بين أيدينا ومعنا، أي: لا تجعل في قلوبنا غلًا لأحد من أهل الإيمان.

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا استجب دعاءنا، ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: إنك ذو الرأفة

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٥٠، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٥، وأبو داود في السنة ٤٦٥٧، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠٩، والترمذي في الفتن ٢٢٢١ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الفتن ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن ٢٢٠٦.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٠٦، ومسلم في الإمارة ١٨٤٧، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٤٤، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٩.

العظيمة، والرحمة الواسعة.

والرأفة أشد من الرحمة وأخص منها.

وسلامة القلوب من الضغينة والحقد والحسد أمر عزيز المنال، وبعيد المرام إلا على من وفقه الله ورزقه قلبًا سليمًا؛ ولهذا امتن الله عز وجل على أهل الجنة بنزع الغل من قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

فكم من مصلٍ قائمٍ صائمٍ، قلبه يغلي حقدًا وحسدًا على كثير من إخوانه المسلمين، وكم من إنسان يستطيع صيام النهار، وقيام الليل، وبذل المال، لكنه لا يستطيع علاج قلبه من هذا المرض.

فمن كان في قلبه غل وحقد وحسد وضغينة على إخوانه المسلمين فنصيبه من هذا الثناء من الله في الآية الكريمة يقل ويضعف بقدر ما عنده من هذا المرض العضال- إن كان له نصيب- نسأل الله السلامة والعافية. إذ الواجب أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١).

ففتش نفسك أخي الكريم فإنه قل من يسلم من هذا الداء، فإن وجدت عندها شيئًا من هذا فألزمها تقوى الله، وأعلمها بأن فضل الله واسع، قد شمل البر والفاجر وإن الجنة وعدت ملأها، وإن النار وعدت ملأها. وإن الناس لو كانوا كلهم في الجنة ما ضرك ذلك، ولو كانوا كلهم في النار ما نفعك ذلك، فعالج قلبك وأحب للمسلمين ما تحب لنفسك وادع لهم، وأبشر بالخير إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٣، ومسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦- من حديث أنس- رضي الله عنه.

ولا شك أن في مقدمة من لا يستحقون الوصف المذكور في الآية أولئك الذين يقعون في صحابة رسول الله ﷺ ويسبونهم ويبغضونهم وهم الرافضة، ومن سلك مسلكهم الذين جعلوا سب الصحابة وتنقصهم ديدنًا لهم- عليهم من الله ما يستحقون- إذ كيف يبيحون لأنفسهم الكلام فيمن شهد الله لهم بالسبق، ورضي عنهم، وهم خير القرون، ولكن كما قال الله- عز وجل-: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم، ثم قرأت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ الآية»(١).

وعنها قالت: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ فسببتموهم، سمعت نبيكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها»(٢).

قال ابن كثير(٣): «وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾».

وهكذا روي عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٧.

(٢) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٣٢١.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٩٩.

(٤) انظر «زاد المعاد» ٥/ ٨٤- ٨٧، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٤.

وعن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: «قرأ عمر بن الخطاب: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ حتى بلغ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ الآية، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ حتى بلغ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ ثم قال: استوعبت هذه الآية المسلمين عامة، وليس أحد إلا له فيها حق ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي، وهو بِسَرْوِ حِمْيَرَ[١] نصيبه منها، لم يعرق جبينه»[٢].

وفي رواية عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: «كان عمر يحلف على أيمان ثلاث: يقول: والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا بأحق به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبدًا مملوكًا، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى وقَسْمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال، وهو يرعى مكانه»[٣].

قال السعدي[٤]: «فهؤلاء الأصناف الثلاثة- يعني المذكورين في الآيات: المهاجرين، والأنصار، والتابعين لهم بإحسان- هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون

---

(١) قال في «النهاية» مادة «سرى» السَّرْو: ما انحدر من الجبل وارتفع عن الوادي في الأصل. والسَّرْو أيضًا: محلة حِمْير.

(٢) أخرجه: الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٦، والبيهقي في «سننه» ٦/ ٣٥٢. وأخرج أبو داود في الخراج- صفايا الرسول ﷺ من الأموال- آخره بنحوه- عن الزهري قال: قال عمر رضي الله عنه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾... إلخ. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٩٩: «وفيه انقطاع».

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤٢.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٣٧.

للفيء، الذي مصرفه راجع إلى مصالح المسلمين».

ويؤخذ من الآيات، الثناء من الله عز وجل على المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة، وأنهم في الأفضلية هكذا: المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان. فالمهاجرون ضحوا بديارهم وأموالهم ابتغاء الفضل من الله- عز وجل- والرضوان، ونصرة لله ورسوله، فأثبتوا صدق إيمانهم وأقوالهم بفعالهم رضي الله عنهم.

والأنصار الذين سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم، أحبوا إخوانهم المهاجرين وواسوهم بأموالهم، ولم يجدوا في صدورهم أدنى حاجة من حسد على إخوانهم المهاجرين على ما آتاهم الله من الفضل والرضوان والمنزلة الرفيعة، وآثروهم على أنفسهم بالمال والطعام وغير ذلك، وسلموا من شح النفوس فأفلحوا وفازوا.

والذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار واتبعوهم بإحسان يدعون الله بالمغفرة للذين سبقوهم بالإيمان من المهاجرين والأنصار وغيرهم وأن يرزقهم سلامة القلوب على إخوانهم المؤمنين.

الفوائد والأحكام:

١- أن من أحق المسلمين بأن يعطوا من مال الفيء الفقراء المهاجرين رضي الله عنهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾.

٢- الثناء على المهاجرين الذين هاجروا وتركوا ديارهم وأموالهم ابتغاء الفضل من الله والرضوان ونصرة لله ورسوله، وأنهم هم الصادقون في إيمانهم وهجرتهم. وتفضيلهم عليالأنصار؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

٣- جواز تملك رباع مكة وبيعها وتأجيرها؛ لأن الله أضاف الديار إليهم إضافة

تمليك، وقد منع من هذا بعض أهل العلم والأظهر- والله أعلم- جواز ذلك.

٤- الثناء على الأنصار الذين سكنوا دار الهجرة «المدينة» قبل المهاجرين وسبقوا إلى الإيمان قبل كثير منهم بمحبتهم لإخوانهم المهاجرين وسلامة قلوبهم عليهم وإيثارهم لهم على أنفسهم مع فاقتهم وفقرهم وشدة حاجتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

٥- أن للأنصار- رضي الله عنهم- نصيبًا في الفيء.

٦- أن من وقي شح نفسه فهو المفلح حقًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

٧- في الثناء على المهاجرين بهجرتهم طلبًا للفضل من الله ورضوانه ونصرة له ولرسوله وأنهم هم الصادقون ترغيب في الهجرة في سبيل الله وبيان لفضلها بل ووجوبها إذا لم يستطع المسلم إظهار شعائر دينه. كما أن في الثناء على الأنصار ترغيبًا في السبق إلى الإيمان وسلامة القلوب من الحسد والضغائن، وفي الإيثار، والبعد عن الشح.

٨- الثناء على التابعين الذين يدعون ربهم بالمغفرة لهم ولإخوانهم السابقين بالإيمان وأن لا يجعل في قلوبهم غلًا للذين آمنوا، وبيان أن لهم نصيبًا في الفيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٩- مشروعية دعاء المؤمنين لإخوانهم الذين سبقوهم في الإيمان، ودعاء بعضهم لبعض.

١٠- فضل المؤمنين السابقين على من جاؤوا بعدهم.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾.

١٢- وجوب سلامة القلوب بين المؤمنين، من الغل والحقد والحسد وسؤال الله

السلامة من ذلك.

١٣- إثبات صفة الرأفة التامة والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٤- ينبغي أن يكون المؤمن نقي السريرة يحب الخير لإخوانه، بعيدًا عن الأنانية وحب الذات، وسوء الظن والحقد والحسد والعداوة والبغضاء، وغير ذلك من سَفْسَاف[1] الأخلاق؛ ليسعد بتوفيق الله في دينه ودنياه وأخراه.

* * *

(١) السَّفْسَاف: الرديء من كل شيء، والأمر الحقير.

قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

ذكر الله عز وجل إخراجه بني النضير من ديارهم، وذكر حكم أموالهم التي ردت إلى المسلمين بدون قتال ثم ذكر موقف المنافقين ووعدهم ليهود بني النضير بمناصرتهم وربْط مصيرهم بمصيرهم، وتكذيب الله لهم في ذلك مبيناً رهبة اليهود وجبنهم، وأن مثل المنافقين في وعدهم لليهود بمناصرتهم كمثل الشيطان حين زينَّ للإنسان الكفر ثم تبرأ منه.

قوله: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ الآية.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قوله: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾، «يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، ومن كان منهم على مثل أمرهم»(١).

وعن يزيد بن رومان: «أن رهطًا من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، ووديعة، ومالك بن أبي قوقل، وسويد، وداعس، بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم،

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٥. وانظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩٢.

فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وكانوا قد تحصنوا في الحصون من رسول الله ﷺ حين نزل بهم»(١).

﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه التعجب، أي: انظر لهؤلاء المنافقين وتعجب من قولهم وحالهم.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾، أي: إلى المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر كعبد الله ابن أبي وأمثاله.

وسُمي من يظهر الإيمان ويبطن الكفر بالمنافق أخذًا من نافقاء الجربوع التي يجعلها في نهاية جحره عليها قشرة رقيقة من الأرض فإذا دهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج، والمنافق له وجهان يأتي المؤمنين بوجه ويأتي غيرهم بوجه آخر، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. وقال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: يقول هؤلاء المنافقون لإخوانهم بالكفر يهود بني النضير وسموا إخوانهم؛ لأن الكفر يجمعهم.

فالمنافقون وإن كانوا بين ظهراني المؤمنين ويحسبون منهم في الظاهر فهم أشد كفرًا وعذابًا من جميع طوائف الكفار؛ لأنهم غصة في حلوق المؤمنين ويصعب التحرز منهم وينطلي أمرهم على الكثيرين، كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. بخلاف الكافر الظاهر البين؛ ولهذا قال تعالى في عذابهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لَئِنْ﴾ موطئة للقسم، أي: والله

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٠٠، وانظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩١.

لئن أخرجتم من المدينة وأجليتم منها.

﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾، اللام واقعة في جواب القسم، أي: إن مصيرنا مرتبط بمصيركم حتى في الخروج معكم إن أخرجتم.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾، أي: لا نطيع في التخلي عنكم وعدم نصرتكم وعن كون مصيرنا مصيركم، ولا في الكلام فيكم أحدًا أبدًا أيًا كان، حتى ولو كان من المؤمنين الذين نحن معهم في الظاهر، أي: لا نطيع فيكم قول عاذل أو مخوف.

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ الواو عاطفة، واللام واقعة في جواب القسم، أي: والله إن قوتلتم لننصرنكم، أي: وإن قاتلكم محمد ومن معه لننصرنكم معشر بني النضير عليهم بالقتال معكم.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: والله يشهد إنهم في دعواهم الخروج معهم إن أخرجوا وارتباط مصيرهم بمصيرهم وعدم التخلي عنهم لقول أحد أبدا ومناصرتهم إن قوتلوا لكاذبون.

فكل هذا كذب منهم شهد الله بكذبهم فيه، وليس هناك قول أكذب من قول شهد الله بكذبه وهو خير الشاهدين، كما في قوله تعالى عنهم في مطلع سورة المنافقين ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [الآية: ١].

قال ابن كثير(١): «والله يشهد إنهم لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم قالوا قولًا ومن نيتهم ألا يفوا لهم به، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه».

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لَئِنْ﴾ في الموضعين موطئة للقسم، أي: والله لئن أخرجوا لا يخرجون معهم لتمسكهم بالتراب والطين ونظرتهم المادية.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٠.

﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾، أي: والله لئن قوتلوا لا ينصرونهم لجبنهم وخوفهم.

وهذا قسم من الله عز وجل يؤكد كذبهم في دعوى الخروج معهم إن أخرجوا وعدم نصرتهم لهم إن قوتلوا بعد شهادته- عز وجل- بكذبهم وفي هذا دليل على صدق نبوته ﷺ. وهذا الذي حصل فإن عبد الله بن أبي رأس المنافقين أرسل إلى بني النضير- بعدما قاموا يتجهزون للخروج- أن لا تخرجوا فإن معي ألفين، يدخلون معكم حصونكم فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة، وحلفاؤكم غطفان فطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك. فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب- رضي الله عنه- يحمل اللواء، فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبال والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي، وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على أن يخرجوا من المدينة- كما سبق بيانه[1].

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ الواو: عاطفة، واللام موطئة للقسم. والتقدير: والله لئن نصروهم ليولن الأدبار.

والمعنى: ولو فرض أنهم أرادوا نصرهم وقاتلوا معهم مع أن هذا لا يمكن أن يقع منهم لأن الله شهد على كذبهم في ذلك وأقسم على عدم نصرتهم لهم. وأمر شهد الله بكذبه وأقسم على عدم وقوعه لا يمكن أن يكون ولكن الآية على سبيل الفرض والتنزل معهم، أي: لو فرض أنهم نصروهم.

﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم. والجملة جواب القسم في قوله: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾، أي: ليولن المعركة أدبارهم وظهورهم فارين هاربين خوفًا من الموت، كما هي حالهم إذا خرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ والمؤمنين يرجعون من

---

(١) انظر الكلام على قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ﴾ [الآية ٢].

عرض الطريق ويبطئون ويثبطون ويفرون من الزحف، كما قال تعالى عنهم في سورة النساء: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٧٢].

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الآية: ٨١].

وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

وقوله هنا ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ يحتمل أيضا أن يراد به الطائفتان معًا المنافقون واليهود بمعنى أن يكون نصر المنافقين لبني النضير سببًا في هزيمتهم جميعًا وفرارهم من المعركة مولين الأدبار.

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، أي: ثم تكون النتيجة عدم نصرهم فتكون مناصرة المنافقين لهم سببا لهزيمتهم وعدم نصرهم وفرارهم من المعركة، وتولية الأدبار.

وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان في وعودهم سواء لإخوانهم الكافرين، أو للمؤمنين يكذبون، ويثبطون ويبطئون، ويفرون إن حضروا المعركة، يريدون المشاركة في الغنم دون الغرم، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣].

﴿لَأَنتُمْ﴾ اللام لام الابتداء، أي: لأنتم أيها المؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾، أي: خوفًا ﴿فِي صُدُورِهِم﴾، أي: في صدور المنافقين واليهود ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: أنهم يخافون منكم أيها المؤمنون أكثر من خوفهم من الله، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

وماذا يؤمَّل في قوم يخافون من الناس أشد من خوفهم من الله، وما أكثر من هذه حاله من ضعاف الإيمان ومرضى القلوب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة للمعنى المأخوذ من الجملة السابقة، أي: خوفهم منكم أشد من خوفهم من الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم.

﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا علم عندهم ولا معرفة ولا فقه في الدين. وإلا كيف يخافون من المخلوق الضعيف أشد من خوفهم من الخالق العظيم سبحانه.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «جدار» على الإفراد، وقرأ الباقون: ﴿جُدُرٍ﴾ على الجمع.

أي: لا يقاتلكم اليهود ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المخاطبين، أي: إذا كنتم مجتمعين جيشًا واحدًا.

﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾، أي: إلا وهم في قرى محصنة، أي: في داخل الحصون لا يبرزون لكم.

﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾، أي: أو من خلف حيطان وأسوار، فاعتمادهم في القتال على حصونهم وأسوارهم، ولا شجاعة لديهم، وفي هذا أعظم الذم لهم.

قال ابن كثير(١): «يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة، بل إما في حصون، أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة».

ويحتمل أن تكون ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير الواو، أي: لا يقاتلكم اليهود حتى في حال اجتماعهم ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٠.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾، أي: عداوتهم بينهم شديدة. والبأس: العداوة والتقاتل، قال تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

فاليهود أعداء فيما بينهم وهم نحل وطوائف متنافرة متناحرة، وهم والمنافقون أعداء أيضا، وإن أظهروا المودة فيما بينهم.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ الخطاب في قوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ للرسول ﷺ ولكل من يصلح له ممن يشاهد ظواهر اليهود والمنافقين، أي: تظنهم أيها الناظر إليهم أنهم مجتمعون على رأي واحد وقلب واحد.

﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أن قلوبهم ﴿شَتَّىٰ﴾، أي: متفرقة جدا، وليسو على قلب رجل واحد ولا على رأي واحد.

قال ابن كثير[(١)]: «أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لجبن المنافقين واليهود وعداوتهم فيما بينهم وتفرق قلوبهم.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾، أي: بسبب أنهم قوم لا يعقلون، أي: لم يستفيدوا من عقولهم بمعرفة الحق والعمل به، ولهذا صاروا كمن لا يعقل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ الكاف: للتشبيه، و«مثل» صفة وشبه، أي: مثل يهود بني النضير في نقضهم العهد، وما حل بهم من الجلاء والنهاية المؤلمة، ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾، وهم يهود بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول ﷺ قبل هذا أو كمثل

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٠.

كفار قريش الذين أصابهم ما أصابهم يوم بدر، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾، أي: ذاقوا ونالوا وتجرعوا عقوبة كفرهم وبغيهم، هذا في الدنيا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع حسًا ومعنى، وهو عذاب النار.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ الكاف: للتشبيه، والمثل: الشبه. والشيطان: كل متمرد عات خارج عن طاعة الله- عز وجل- من الإنس والجن والحيوان. قال تبارك وتعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**»(١).

والمراد بالشيطان هنا: إبليس وأعوانه.

والمعنى: مثل المنافقين في وعدهم لليهود بالخروج معهم ونصرهم، وكذبهم وتخليهم عنهم كمثل الشيطان حين قال للإنسان اكفر، فأمره بالكفر بالله وإنكاره وجحد شريعته وزين له ذلك.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾، أي: فلما كفر الإنسان قال الشيطان إني بريء منك، أي: تبرأ من الإنسان بعد أن أوقعه في الكفر وزينه له، وهذا فعله مع عامة الناس، كما قال الله عنه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- باب قدر ما يستر المصلي ٥١٠، وأبو داود في الصلاة- ما يقطع الصلاة ٧٠٢ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال ابن كثير[(١)] في كلامه على الآية ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾ الآية. «يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ثم لما حقت الحقائق وجدّ بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم في ذلك كمثل الشيطان إذ سول للإنسان- والعياذ بالله- الكفر، فإذا دخل فيها سوله تبرأ منه وتنصل، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾».

قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قال: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب- قال: فنزل الراهب ففجر بها، فحملت فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل مصدق يسمع قولك، فقتلها ثم دفنها قال: فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا.. فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان، فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه. قال: فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه، وأخذ فقتل»[(٢)].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠١.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٤٢، وأخرجه بمعناه عن علي رضي الله عنه ٢٢/ ٥٤١. وقد ذكرهما ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠١- ١٠٢- نقلًا عن الطبري وقال بعد ذكر قصة ابن مسعود =

والله أعلم بصحة هذه القصة وما جاء في معناها. والآية أعم من ذلك كله، فالشيطان لا يترك أحدًا من الإنس، بل ولا من الجن إلا زين له الكفر، فإن عجز عنه نقله إلى البدعة، فإن عجز عنه نقله إلى ترك الواجب، فإن عجز عنه نقله إلى فعل المحرم، فإن عجز عنه شغله بالمفضول عن الفاضل، فإن عجز عنه شغله بالمباحات، فإن عجز وأيس منه سلط عليه من يؤذيه من شياطين الجن والإنس، لكن ذلك لا يضره، حيث سلم له دينه، بل هو زيادة أجر له.

والشيطان في هذه المقالة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كاذب غير صادق إذ لو كان يخاف الله حقًا ما خالف أمره، واستكبر عن طاعته قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقد أقسم أنه سيعمل جاهدًا في إغواء بني آدم، كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾، أي: فكانت نهاية الشيطان الآمر بالكفر، والإنسان الفاعل له، ومصيرهما أنهما في النار خالدين فيها وكذلك عاقبة ونهاية المنافقين واليهود الهزيمة والبوار في الدنيا، وفي الآخرة نهايتهم إلى النار وبئس القرار.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: الخلود في النار جزاء وعقوبة الظالمين، الذين وضعوا العبادة في غير موضعها فعبدوا غير الله، وهذا جزاء كل ظالم.

والظلم: النقص ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وأظلم الظلم الشرك بالله عز وجل كما قال لقمان ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

=

رضي الله عنه «وكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك. واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيص. والله أعلم».

الفوائد والأحكام:

١- وعد المنافقين وحلفهم لإخوانهم الكفرة من أهل الكتاب بوحدة مصيرهم وأنهم إن أخرجوا ليخرجون معهم وإن قوتلوا لينصرونهم، وتكذيب الله عز وجل- لهم والتعجيب من حالهم ومقالهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾.

٢- إثبات أخوة المنافقين للكفرة من أهل الكتاب لأن الكفر يجمعهم، بل المنافقون أشد كفرًا من جميع الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣- أن من صفات المنافقين الحلف الكاذب وإخلاف الوعود والجبن والفرار من الزحف؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾
لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا
يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾
لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

٤- هزيمة أهل الكتاب وعدم نصرهم لمحاربتهم الله ورسوله واعتمادهم على المنافقين ووعدهم الكاذبة لهم بنصرهم.

٥- خوف المنافقين واليهود من المؤمنين أشد من خوفهم من الله لعدم علمهم وفقههم في الدين وعدم معرفتهم بعظمة الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٦- أن من خاف من الناس أشد من خوفه من الله، فهو غير فقيه؛ لقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

٧- شدة جبن اليهود وعدم قدرتهم على مبارزة المؤمنين ومقاتلتهم إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾.

٨- شدة عداوة اليهود فيما بينهم وشدة العداوة بينهم وبين المنافقين، يظنهم الناظر إليهم مجتمعين وقلوبهم متفرقة متعادية متنافرة؛ لأنهم لم يعقلوا ما ينفعهم في دينهم وآخرتهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

٩- لا ينبغي الاغترار بالمظاهر وإنما المعوّل عليه ما في المخبر.

١٠- أن من لم ينتفع بعقله بمعرفة ربه وما يجب له، فهو غير عاقل؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

١١- أن مثل يهود بني النضير في نقضهم العهد وما حل بهم من الجلاء والعقوبة والنهاية المؤلمة كمثل الذين من قبلهم قريبًا، وهم يهود بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول ﷺ قبل هذا، وكفار قريش الذين أصابهم ما أصابهم يوم بدر، وما أعد لهم جميعًا من العذاب الأليم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٢- الجمع للكفار بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بالنار.

١٣- أن مثل المنافقين في وعدهم اليهود بالخروج معهم ونصرهم وكذبهم وتخليهم عنهم كمثل الشيطان في أمره الإنسان بالكفر وتبريه منه زعمًا منه أنه يخاف الله- وهو كاذب؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٥- أن مصير الشيطان والإنسان المتبع له على الكفر الخلود في النار، وهو مصير المنافقين واليهود مجازاة لهم على ظلمهم وهو مصير كل ظالم وبئس المصير؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٦- خلود أهل النار فيها، وأن عذابها لا ينقطع.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾.

عن جرير بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لِما رأى بهم من الفاقة قال: فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذن وأقام الصلاة، فصلى ثم خطب، فقال: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] وقرأ الآية التي في الحشر: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الآية: ١٨].

تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة. فقال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(١).

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

صدَّر- عز وجل- خطابه للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وناداهم

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٧، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٤، والترمذي في العلم ٢٦٧٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠٣.

بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من الأوامر واجتناب ما بعده من النواهي يعد من مقتضيات الإيمان.

كما قال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-: «إذا سمعت الله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فأرعها سمعك فهو خير يأمر به أو شر ينهى عنه»(١).

وقد اجتمع في هذه الآيات أمر، بل عدة أوامر تأمر بخير، ونهي عن شر.

وتقوى الله- عز وجل- امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، «الغد» في الأصل اليوم الذي بعد يومك.

والأيام ثلاثة: يوم أمس، وقد مضى، واليوم الحاضر، ويوم غد لا يدري الإنسان أيدركه أم لا.

والمراد بـ«غد» يوم القيامة، وسمي بـ«غد»؛ لتحقق وقرب وقوعه؛ لأنه آت، وكل آت قريب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

قال قتادة: «ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد وغد يوم القيامة»(٢).

والمعنى: ولتنظر ولتتأمل كل نفس الذي قدمته ليوم القيامة من الأعمال، وهل يصلح أن تلقى الله- عز وجل- به يوم العرض الأكبر على الله أو لا يصلح: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

قبل ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦- ٥٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣/ ٩٠٢، الأثر ٥٠٢٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٤٧.

وقبل أن يقول الإنسان: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

قال ابن القيم[(١)]: «فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟ والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله ويبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨]»[(٢)].

فوا أسفا على أعمار وأوقات تتصرم وتنقضي باللهو والغفلات، والانشغال بجمع حطام الدنيا الفاني، والاستمتاع بالملذات، دون الاستعداد لذلك اليوم وما فيه من الغبن والندامة والحسرات.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تأكيد للأمر الأول بتقوى الله، يدل على أهمية تقوى الله وعظم شأنها فهي وصية الله للأولين والآخرين قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وبها الفلاح والنجاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ﴾، أي: ذو خبرة واسعة واطلاع وعلم، فهو مطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها. واطلاعه عز وجل على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي: خبير بالذي تعملون، أو بعملكم أي: ذو خبرة وعلم بأعمالكم خيرها وشرها ولا يخفى عليه منها شيء.

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٦.

(٢) انظر «الحلية» لأبي نعيم ١/ ٥٢.

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن خالفه؛ لأن مقتضى كونه- عز وجل- مطلعًا على أعمال العباد أن يحاسبهم، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ ﴾، أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون، كالذين نسوا الله وذكره والعمل بطاعته من أهل الكفر والمعاصي.

﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾، أي: فأنساهم العمل الصالح لأنفسهم مجازاة لهم على نسيانهم له عز وجل ولذكره وطاعته، والجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ﴾ [السجدة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

قال ابن القيم(١): «فلما نسوا ربهم نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة:٦٧].

فعاقب من نسيه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه، والثانية: أنه أنساه نفسه.

قال: ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم. وأما إنساؤه نفسه، فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وما تكمل به، بنسيه ذلك جميعه، فلا يخطر بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

وأيضا: فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها.

وأيضا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٦- ٤٢٧.

إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة، فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وحياتها الأبدية في النعيم المقيم».

ويؤخذ من مفهوم الآية الأمر بذكر الله عز وجل وعدم نسيانه، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

قال ابن القيم[١] بعد ما ذكر ما يترتب على نسيان العبد نفسه من كون أمره فرطًا وضياع مصالحه وتعرضه للهلاك والخيبة والخسران قال: «ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى، واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطبًا به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد، وبمنزلة الكن في شدة الشتاء والسموم. فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده، هذا هلاك لابد منه، وقد يعقبه صلاح لا بد، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. لو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه، ونسيه في العذاب يوم القيامة».

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لشأنهم.

﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: هم الخارجون عن طاعة الله- عز وجل- المخالفون

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٨- ٤٢٩.

لأمره المرتكبون لنهيه.

وأكد الفسق فيهم بثلاثة مؤكدات: كون الجملة اسمية، معرّفة الطرفين، مع ضمير الفصل «هم».

وبقدر ما يغفل الإنسان عن ذكر الله- عز وجل- يكون نصيبه من هذا الوصف المشين.

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، «لا» نافية أي: لا يستوي أصحاب النار وساكنوها وملازموها، وهم الكافرون والفاسقون، وأصحاب الجنة، وهم ساكنوها وملازموها من المؤمنين المتقين، أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء عند الله وفي حكمه، وفيما أعده لكل منهم، وفي حال كل منهم من حيث السعادة والشقاوة والربح والخسران ولهذا قال:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، أي: هم الفائزون حقًّا بالأجر والثواب والناجون من العقوبة والعذاب. وأكد الفوز فيهم بكون الجملة اسمية معرّفة الطرفين مع ضمير الفصل «هم».

فتأمل- أخي الكريم- في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فمن الذي نفى التساوي بين هؤلاء وهؤلاء؟ هو العليم الحكيم العلي العظيم سبحانه.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ١٨- ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ [غافر: ٥٨].

فشتان ما بين الفريقين:

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

«لو» شرطية غير عاملة، وهي: حرف امتناع لامتناع، أي: امتنع رؤيتك خشوع الجبل خشوع عبادة وتكليف وتصدعه من خشية الله؛ لعدم إنزال القرآن عليه.

وإلا فجميع المخلوقات من الجمادات والحيوانات ناطقها وبهيمها كلها خاضعة منقادة لله- عز وجل- مسبحة بحمده، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فيدل قوله: ﴿أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ على علو الله عز وجل على خلقه، كما يدل على أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق- كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، خلافًا للمعتزلة القائلين بخلق القرآن.

وقد امتحن بسبب هذا القول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله وغيره من العلماء فصبر رحمه الله وتصدى لهذه الفتنة وفنَّدها.

ولهذا قال علي بن المديني: «أعز الله الإسلام برجلين أبو بكر يوم الردة، وابن حنبل يوم المحنة»(٢).

(١) البيت لابن القيم ضمن القصيدة النونية انظر ص١١.

(٢) انظر: «تاريخ دمشق» ٥/ ٢٧٨، و«تاريخ بغداد» ٦/ ٩٠.

أي: يوم المحنة بالقول بخلق القرآن.

﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ جواب الشرط «لو»، واللام رابطة لجواب الشرط، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿خَٰشِعًا﴾، أي: ذليلًا خاضعًا ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾، أي: متشققًا.

﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، أي: من الخوف الشديد من الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

والخشية: أشد الخوف، فهي أخص منه؛ ولهذا قالوا: الخشية لا تكون إلا مع عظم المخشي، وعلم الخاشي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والمراد: بيان أن الجبل على ما هو عليه من الشدة والصلابة والقساوة وعظم الخلقة لو أنزل القرآن عليه وسمعه وفهم ما فيه من دلائل عظمة الله- عز وجل- والأحكام العظيمة، والمواعظ البليغة، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب والثواب والعقاب وغير ذلك؛ لخشع وتصدع من خشية الله وخوفه، فكيف لا تخشع ولا تلين ولا تتصدع قلوب كثير من الناس، وقد أنزل القرآن عليهم وسمعوه وفهموه فصارت قلوب كثير من الناس أقسى من الجبال، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ﴾ [الرعد: ٣١]، أي: لكان هذا القرآن.

ولهذا أبت السموات والأرض والجبال مع عظمها حمل الأمانة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فسبحان من جعل الجبال لو أنزل عليها القرآن تخشع وتخضع وتلين وهي من

الحجارة مع شدتها وصلابتها[١] بينما تقسو قلوب كثير من الناس فلا تتأثر بالقرآن ولا تخضع، ولا تلين، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

الإشارة للأمثال التي يضربها الله عز وجل في القرآن كما في قوله تعالى قبل هذا ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢١].

والأمثال: جمع «مَثَل»، وهو تشبيه شيء أو أمر معنوي بشيء أو أمر حسي؛ لإيضاح الأمر المعنوي وتقريبه في الأذهان.

وهذا كثير في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى في تشبيه الإيمان في قلب المؤمن: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يتفكروا.

---

(١) ومن هذا حنين الجذع إليه ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه، فحنَّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه» أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٨٣، وأخرجه بمعناه من حديث جابر رضي الله عنه ٣٥٨٤، ٣٥٨٥.

والتفكر: استعمال الفكر والعقل الذي منحه الله للإنسان وميزه به عن الحيوان، والتأمل في آيات الله- عز وجل- الكونية والشرعية، وفيما فيه سعادة الإنسان في دينه ودنياه وآخرته.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير خطاب المؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان؛ تكريمًا وتشريفًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعده من أمر، والكف عما بعده من نهي وأن ذلك من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- وجوب تقوى الله، والاستعداد ليوم القيامة، وتأكيد وجوب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾.

٣- الإشارة إلى قرب القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

٤- إثبات كمال خبرة الله- عز وجل- وعلمه بأعمال العباد، وفي هذا وعد ووعيد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

٥- تحذير المؤمنين ونهيهم أن يكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم والعمل لخلاصها وسعادتها وهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

٦- أن الجزاء من جنس العمل، فمن نسي الله أنساه اللهُ نفسه.

٧- إثبات الفرق الشاسع والبون الواسع بين أصحاب النار، وأصحاب الجنة فهؤلاء هم الفائزون بالنعيم والخير العميم، وأولئك في دركات الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

٨- إثبات وجود الجنة والنار، وأنه لا ثمة في الآخرة غيرهما.

٩- إثبات علو الله عز وجل على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا﴾.

١٠- أن القرآن الكريم منزل من عند الله- عز وجل- غير مخلوق- كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وفي هذا رد على المعتزلة ونحوهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

١١- إثبات عظمة القرآن، وشدة تأثيره؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

١٢- قساوة قلوب الفاسقين الكافرين التي لم تلن ولم تخشع لذكر الله- عز وجل- وكلامه، وأنها أشد قسوة من الجبال التي لو أنزل عليها هذا القرآن لخشعت وتصدعت من خشية الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

١٣- وجوب الخشوع لله- عز وجل- والذل والخضوع له والخوف منه؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

١٤- الامتنان بضرب الأمثال للناس؛ لأجل أن يتفكروا في آيات الله- عز وجل- ويتعظوا بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

هذا ثناء من الله عز وجل على نفسه، بذكر عدد من أسمائه وصفاته، وأعظم ما في القرآن ثناء الله عز وجل على نفسه.

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الغيبة تعظيمًا لنفسه لأنه هو العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾ [الشورى:٤].

﴿ٱللَّهُ﴾، أي: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا، وهو علم على ذات الرب- عز وجل- وهو أصل الأعلام، وتأتي أسماء الله عز وجل تابعة له، وقد يأتي تابعًا كما في قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]. فـ«الله» تابع للاسم الذي قبله، لكنه هنا لا يعرب صفة، وإنما يعرب بدلًا، أو عطف بيان.

﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾، أي: الذي لا معبود بحق سواه، ولا رب غيره، فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ نفي للعبادة عما سواه، وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إثبات العبادة له وحده عز وجل.

وهذا معنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» نفي وإثبات، نفي العبادة عما سواه سبحانه، وإثبات العبادة له وحده. فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الغيب: السر وما غاب عن الخلق، والشهادة: العلانية وما يشاهده الخلق.

قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

﴿مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقدّم الغيب على الشهادة في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ إشارة أن الغيب والشهادة عنده سواء، كما قال عز وجل: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، «الرحمن» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل: الأول على وزن «فعلان». والثاني على وزن «فعيل». و«فعلان» أبلغ من «فعيل»؛ ولهذا قدم «الرحمن» على «الرحيم» هنا، وفي البسملة والفاتحة.

ويدل كل من «الرحمن» و«الرحيم» في حال انفراد كل منهما عن الآخر على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق ورحمة خاصة بالمؤمنين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥] والناس عام للمؤمنين وغيرهم.

قال ابن كثير(١) في كلامه على قوله: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: «والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما».

وفي حال اجتماع «الرحمن» مع «الرحيم»، كما في هذه الآية وفي البسملة والفاتحة يؤخذ من «الرحمن» إثبات صفة الرحمة الذاتية الثابتة لله- عز وجل- ويؤخذ من «الرحيم» إثبات صفة الرحمة الفعلية التي يوصلها- سبحانه- إلى من شاء من خلقه.

كما يؤخذ من «الرحمن» إثبات صفة الرحمة العامة لجميع الخلق، ويؤخذ من «الرحيم» إثبات صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين- كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٥.

رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و«الرحمن» لا يسمى به غير الله، وهو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

أما «الرحيم» فيجوز أن يسمى ويوصف به غير الله، كما قال تعالى في وصف نبيه محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق، وتوطئة وتمهيد لما بعده.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾، أي: مالك الكون كله المتصرف فيه، قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ﴾ [طه: ١١٤، المؤمنون: ١١٦]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ المطهر، المعظم الممجد، كما قال عز وجل في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»(١).

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ كما في الحديث: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»(٢).

فهو السلام: الذي لا يعتريه نقص ولا عيب، الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومنه عز وجل السلام، فهو عز وجل المسلم عباده من الآفات والشرور، والذي يَسْلَمُ خلقه من أن يظلمهم، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، وأحمد ٢/ ٣٧٦.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ٥٩١، وأبو داود في الصلاة ١٥١٢، والترمذي في الصلاة ٣٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٢٨- من حديث ثوبان- رضي الله عنه.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس- رضي الله عنهما-: «أمَّن خلقه من أن يظلمهم[١]». واختاره الطبري[٢].

وقال ابن زيد: «صدَّق عباده المؤمنين في إيمانهم به»[٣].

وقال السعدي[٤]: «المصدق لأنبيائه ورسله بما جاؤوا به بالآيات البينات والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات».

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة «المهيمن: الشهيد»[٥].

فيكون كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [البروج: ٩]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣].

وقيل: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: الأمين، وقيل: المصدق، وقيل: الرقيب والحفيظ.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التامة، كما قال عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ [الصافات: ١٨٠].

فهو- عز وجل- صاحب العزة التامة، بأنواعها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جبر وقهر خلقه على ما يشاء، وأذعن له سائر الخلق، والذي يجبر الكسير والمصاب ويغني الفقير.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ ذو الكبرياء والعظمة كما قال تعالى في الحديث القدسي: «العظمة

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠٥.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٢.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٢.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٤٥.

(٥) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٣.

إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منها عذبته»[١].

﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تنزه الله- عز وجل- وتقدس وتعالى عما يشركون معه من الشركاء.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَالِقُ﴾، أي: الذي خلق الخلق. وأصل الخلق: الإبداع والتقدير، فالخالق: المبدع المقدر لما يوجده.

قال ابن تيمية[٢]: «الخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها».

وقال حافظ الحكمي[٣]: «الخالق: المقدر والمقلب للشيء بالتدبير إلى غيره».

﴿ٱلْبَارِئُ﴾، أي: الذي برأ الخلق.

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الممثل والمشكل للصور على ما يريد.

قال الزمخشري[٤]: «﴿ٱلْخَالِقُ﴾: المقدر لما يوجده، ﴿ٱلْبَارِئُ﴾: المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة، ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾: الممثل».

وقال القرطبي[٥]: «الباريء»: المنشئ المخترع، و«المصور» مصور الصور ومركبها على هيئات مختلفة، فالتصوير مرتب على الخلق والبراية وتابع لهما، ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَق: جعله علقة، ثم مضغة، ثم جعله صورة وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يعرف بها ويتميز

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «مجموع الفتاوى» ١٦/ ٦٠.

(٣) في «معارج القبول» ١/ ١٣١.

(٤) في «الكشاف» ٤/ ٨٥.

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٤٨.

عن غيره بسمتها».

فخلق، أي: قدر، ثم برأ، أي: أنشأ واخترع، ثم صور، أي: جعل التخطيط والشكل المناسب.

قال ابن كثير[(١)]: «الخلق: التقدير، والبراء: هو الفري، وهو: التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدّر شيئًا ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل. قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنــت تفــري مــا خلقــت وبعــ ــض القــوم يخلــق ثــم لا يفــري[(٢)]

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: ما قدّرت، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد. فالخلق: التقدير، والفري: التنفيذ. ومنه يقال: قدّر الجلاّد ثم فَرَى، أي: قطع على ما قدره بحسب ما يريده».

وقوله: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾، أي: الذي إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٨]؛ ولهذا قال «المصور» أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها».

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، أي: له عز وجل- الأسماء الحسنى من كل وجه ألفاظها ومعانيها ودلالاتها وآثارها وحقائقها وغير ذلك، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»[(٣)].

وفي رواية زيادة: «هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس،

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٦.

(٢) هذا البيت لزهير بن أبي سلمى. انظر «ديوانه» ص٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤١٠، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٧، والترمذي في الدعوات ٣٥٠٦، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦٠.

السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الشهيد، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «تعيينها ليس من كلام الرسول ﷺ باتفاق أهل العلم بحديثه».

وقال ابن كثير(٣): «والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم».

ثم قال ابن كثير: «ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة

---

(١) أخرجها الترمذي في الدعوات ٣٥٠٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦١، واللفظ للترمذي، وقال: «هذا حديث غريب.. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث».

(٢) في «مجموع الفتاوى» ٦/ ٣٨٢.

(٣) في «تفسيره» ٥/ ٥١٦- ٥١٧.

والتسعين بدليل ما رواه أحمد... عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ- أنه قال: «ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أعلمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا، فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها»(١).

قال ابن كثير: «وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «عارضة الأحوذي في شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم- فالله أعلم».

وقد ذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في كتابه «القواعد المثلى» أنه جمع تسعة وتسعين اسمًا مما ظهر له من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. قال:

«فمن كتاب الله: الله، الأحد، الأعلى، الأكرم، الإله، الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، البارئ، البر، البصير، التواب، الجبار، الحافظ الحسيب، الحفيظ، الحفي، الحق، المبين، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، القيوم، الخبير، الخالق، الخلاق، الرؤوف، الرحمن، الرحيم، الرزاق، الرقيب، السلام، السميع، الشاكر، الشكور، الشهيد، الصمد، العالم، العزيز، العظيم، العفو، العليم، العلي، الغفار، الغفور، الغني، الفتاح، القادر، القاهر، القدوس، القدير، القريب، القوي، القهار، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المتعالي، المتكبر، المتين، المجيب، المجيد، المحيط، المصور، المقتدر، المقيت،

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٩١، والحاكم ١/ ٥٠٩- ٥١٠، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٣٦ وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان».

الملك، المليك، المولى، المهيمن، النصير، الواحد، الوارث، الواسع، الودود، الوكيل، الولي، الوهاب.

ومن سنة رسول الله ﷺ: الجميل، الجواد، الحكم، الحيي، الرب، الرفيق، السبوح، السيد، الشافي، الطيب، القابض، الباسط، المقدم، المؤخر، المحسن، المعطي، المنان، الوتر».

قال الشيخ: هذا ما اخترناه بالتتبع واحد وثمانون اسمًا في كتاب الله تعالى وثمانية عشر اسمًا في سنة رسول الله ﷺ وإن كان عندنا تردد في إدخال «الحفي» لأنه إنما ورد مقيدًا في قوله- تعالى- عن إبراهيم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وكذلك «المحسن» لأننا لم نطلع على رواته في الطبراني، وقد ذكره شيخ الإسلام من الأسماء.

قال: ومن أسماء الله تعالى ما يكون مضافًا مثل: مالك الملك، ذي الجلال والإكرام»(١).

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يسبح له جميع الذي في السموات والأرض، من المخلوقات، من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والنبات والجماد، وسائر المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: وهو عز وجل ذو العزة التامة، والحكم النافذ والحكمة البالغة.

و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ مشتق من العزة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ مشتق من الحكم ومن الحكمة، فله عز وجل الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

---

(١) انظر «القواعد المثلى» ص١٥- ١٦.

عن معقل بن يسار- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدًا، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه بذكر أسمائه الحسنى الدالة على صفاته العليا؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٢- إثبات اسمه- عز وجل- الأعظم «الله»، وأنه عز وجل المعبود الذي لا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾.

٣- علم الله الواسع المحيط بكل شيء مما يُسر ويظهر، ومما غاب عن الخلق ومما يشاهد؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٤- أن علمه عز وجل بالغيب كعلمه بالشهادة؛ لهذا قدم العلم بالغيب على الشهادة.

٥- إثبات اسميه عز وجل «الرحمن» و«الرحيم» وما يدلان عليه من صفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ رحمة ذاتية، ورحمة فعلية؛ رحمة عامة، ورحمة خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٦- أن «الرحمن» أبلغ وأخص من «الرحيم» لهذا قدم عليه.

٧- تأكيد ألوهيته عز وجل- وأنه لا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- إثبات اسميه- عز وجل- «الملك» و«القدوس» وسعة ملكه وتمام تصرفه

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦، والترمذي في «فضائل القرآن» ٢٩٢٢. وقال الترمذي: «حديث غريب».

وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾.

٩- إثبات اسميه- عز وجل- «السلام» و«المؤمن» وما يدلان عليه من الصفة، فهو السلام الذي لا يعتريه نقص ولا عيب والمسلم عباده من الآفات والمؤمن الذي لا يظلم أحد عنده، المصدق لأنبيائه ورسله وعباده في إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾.

١٠- إثبات أسمائه- عز وجل- «المهيمن» و«العزيز» و«الجبار» و«المتكبر»، وما يؤخذ منها من إثبات هيمنته عز وجل وشهادته على الخلق ورقابته عليهم وحفظه لهم، وأنه عز وجل ذو العزة التامة بأنواعها عزة القوة، وعزة القهر والغلبة وعزة الامتناع، والجبار الذي أذعن له سائر الخلق والذي يجبر المصاب، ذو الكبرياء والعظمة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾.

١١- تنزيه الله- عز وجل- لنفسه عن الشريك، وأمره العباد بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٢- إثبات أسمائه عز وجل: «الخالق» و«البارئ» و«المصور»، وما يؤخذ منها من إثبات صفة الخلق والتقدير والبرء والتصوير؛ له عز وجل، لجميع المخلوقات على أحسن الخلق وأجمل الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾.

١٣- إثبات أن لله- عز وجل- الأسماء الحسنى كلها بلا حصر، الدالة على الصفات العليا؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

١٤- تسبيح جميع ما في السموات والأرض لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

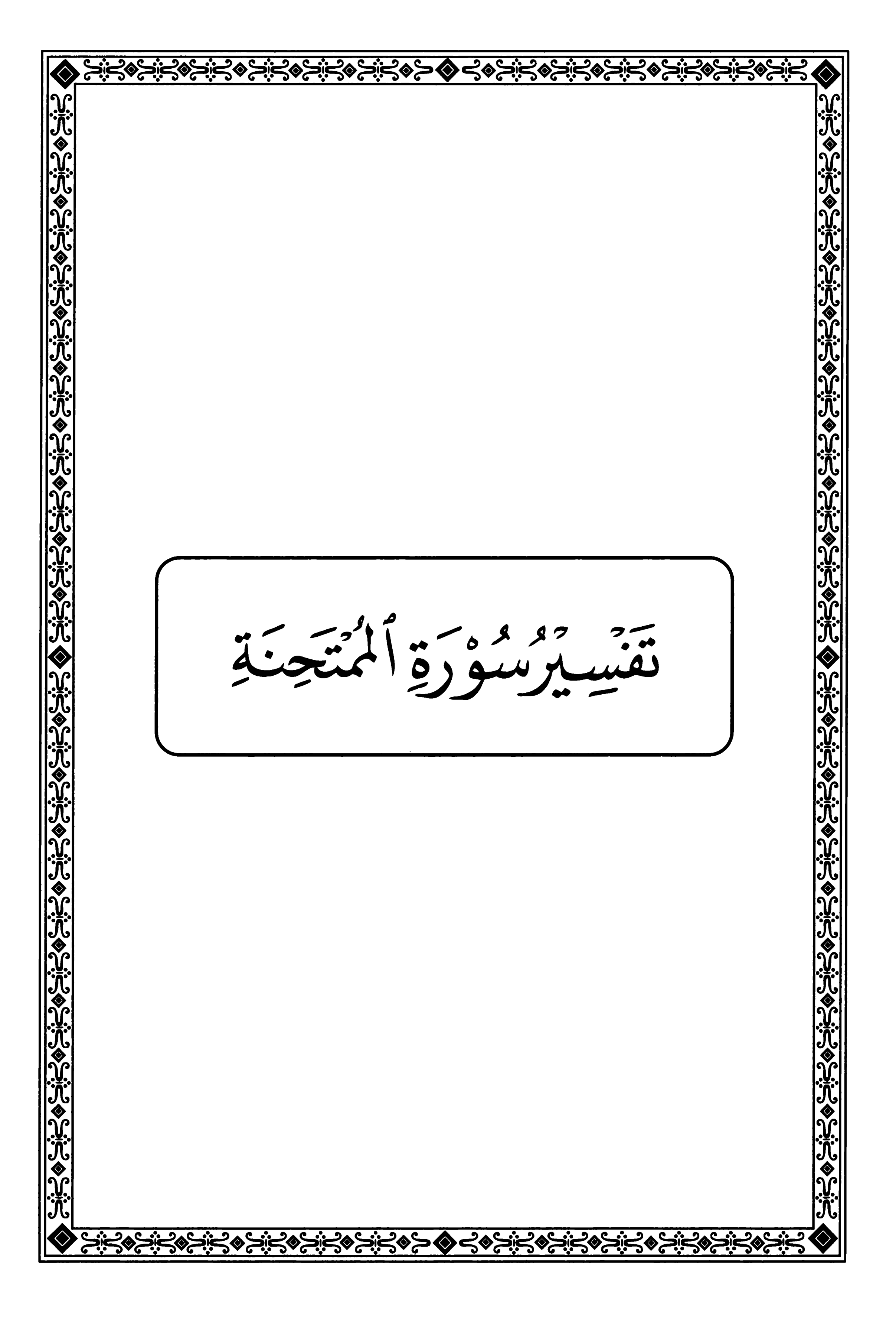
١٥- تأكيد تسميته عز وجل- بالعزيز وتأكيد عزته وقوته وقهره وامتناعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾.

١٦- إثبات اسم الله «الحكيم» وما يؤخذ منه من إثبات صفة الحكم التام له عز

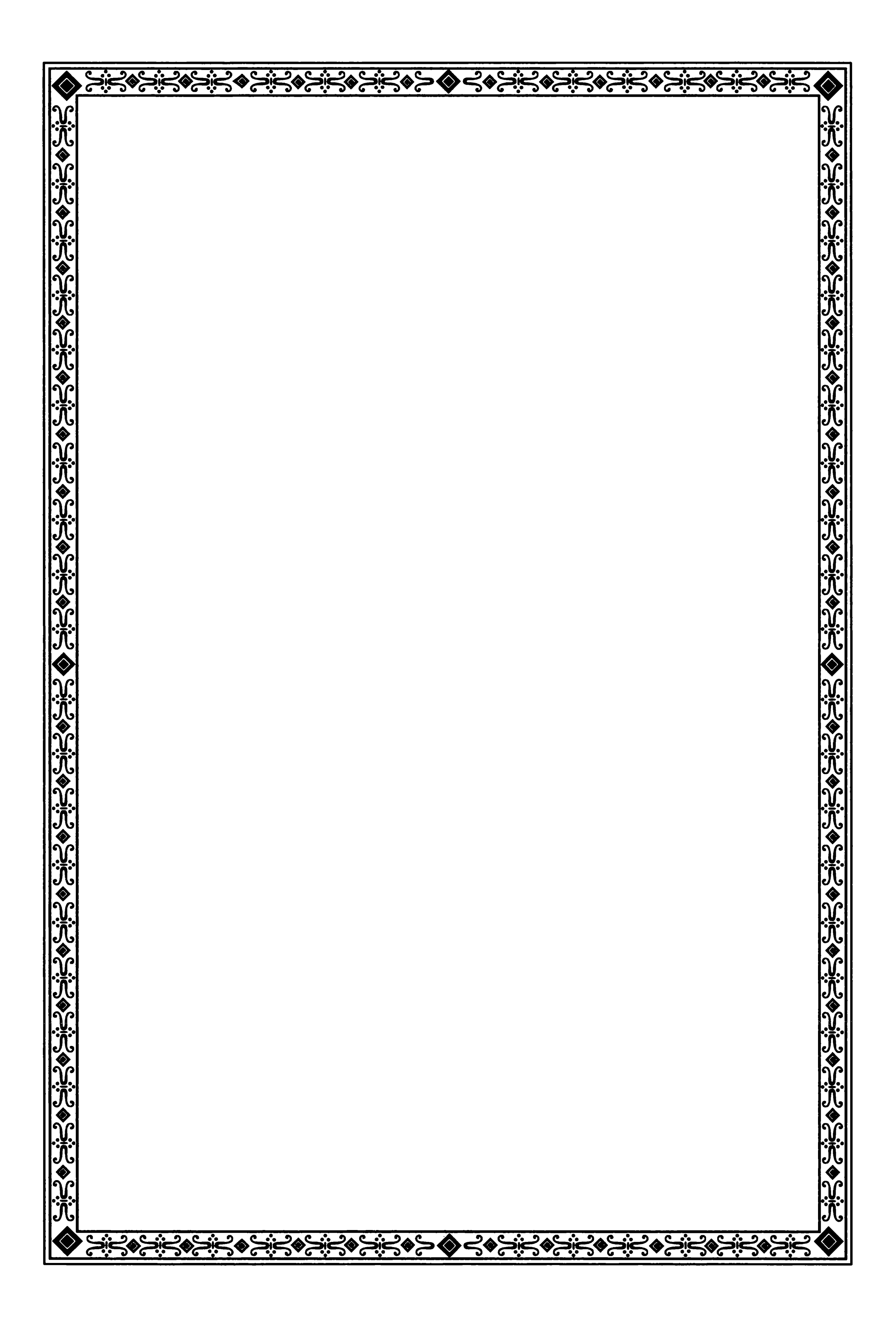
وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني والشرعي والجزائي والحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾.

١٧- في اقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الحكيم»، كمالٌ إلى كمال.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلۡمُمۡتَحِنَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الممتحنة» لقوله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الآية:١٠].

و«الممتَحِـَنة» تقرأ بفتح الحاء وكسرها، فالفتح على أنها صفة للمرأة التي نزلت فيها، والكسر على أنها صفة للسورة.

وتسمى: «سورة الامتحان»، و«سورة المودة».

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بنهي المؤمنين عن موالاة الكافرين وتهييجهم على عداوتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

٢- الدعوة إلى الاقتداء بإبراهيم عليه السلام والذين معه في براءتهم من قومهم الكفار: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾.

٣- وعد الله تعالى بأن يجعل بين المؤمنين وبين أرحامهم الذين أوجب عليهم معاداتهم «مودة» بأن يدخل هؤلاء في الإسلام: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

٤- نفيه عز وجل أن ينهى المؤمنين عن بر الكفار الذين لم يقاتلوهم في الدين والإقساط إليهم، وإنما نهاهم عن الذين قاتلوهم في الدين، وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم أن يتولوهم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

٥- بيان حكم النساء إذا أتين إلى المؤمنين مهاجرات وتركن أزواجهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

٦- بيان الحكم إذا ذهبت إحدى زوجات المؤمنين إلى الكفار: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

٧- أمر النبي ﷺ بمبايعة النساء إذا أتين مؤمنات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

٨- ختمت السورة بمثل ما بدئت به وهو النهي عن موالاة الكفار؛ تأكيدًا لذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

سبب النـزول:

لما نقض أهل مكة العهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ أمر النبي ﷺ بالتجهز لغزوهم، وسأل الله- عز وجل- أن يعمي عليهم خبره، لكن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه كتب إليهم كتابًا يخبرهم فيه بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم؛ ليتخذ بذلك عندهم يدًا يحمون بها قرابته، فأنزل الله هذه السورة[(١)].

فعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[(٢)] فإن بها ظعينة[(٣)] معها كتاب فخذوه منها»، فانطلقنا تعادى[(٤)] بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة قلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب، قلنا لتُخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها[(٥)] فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٩، «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/ ٣٩، «البداية والنهاية» ٦/ ٥١٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٠٨.

(٢) روضة خاخ على اثني عشر ميلا من المدينة.

(٣) أي: امرأة.

(٤) أي: تتسابق.

(٥) أي: من ذوائبها المضفورة.

أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ما هذا؟». قال: لا تعجل عليّ، إني كنت امرأ ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضى بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنه صدقكم» فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» ونزلت فيه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾»(١).

وفي رواية عن علي رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير ابن العوام، وكلنا فارس. وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين» فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب. فأنخناها فالتمسنا، فلم نر كتابًا، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها(٢) وهي محتجزة بكساء فأخرجته. فانطلقنا به إلى رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه. فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: والله ما بي إلا أن أكون مؤمنا بالله ورسوله أردت أن تكون لي يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال: «صدق لا تقولوا له إلا خيرًا» فقال عمر: إنه قد خان

(١) أخرجه البخاري في المغازي- فضل من شهد بدرًا ٤٢٧٤، ومسلم في فضائل الصحابة- فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، وقصة حاطب بن أبي بلتعة ٢٤٩٤، وأبو داود في الجهاد ٢٦٥٠، والترمذي في تفسير سورة الممتحنة ٣٣٠٥، وأحمد ١/ ٧٩- ٨٠.

(٢) الحجزة: معقد الإزار.

الله ورسوله والمؤمنين، فدعني، فلأضرب عنقه، فقال: «أليس من أهل بدر؟، فقال: لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو قد غفرت لكم». فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم»(١).

وفي رواية: «فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ الآية»(٢).

وفي رواية: «فأنزل الله- عز وجل- في حاطب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ إلى آخر القصة»(٣).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، «لا» ناهية، والنهي هنا يفيد التحريم، أي: لا تجعلوا ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهم الكفار، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، أي: أولياء لكم وأنصارًا.

ويؤخذ من الآية أن الكفار كما هم أعداء الله- عز وجل- هم أيضًا أعداء للمؤمنين فلا يمكن لمن كان عدوًا لله- عز وجل- أن يكون وليا حقًا للمؤمنين صادقًا

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- فضل من شهد بدرًا ٣٩٨٣.

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٠- ٥٦١.

(٣) انظر «السيرة النبوية» ٢/ ٣٩٨- ٣٩٩، «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٢- ٥٦٣.

في موالاته لهم- وإن زعم ذلك- فعدو الله عدو لأولياء الله، وولي الله ولي لأولياء الله.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وفي هذه الآيات أشد التهديد والوعيد، وأعظم الزجر عن موالاة الكافرين.

وعن ربعي بن خراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- يقول: «ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالًا: واحدًا، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحد عشر. قال: فضرب لنا مثلًا منها وترك سائرها، قال: «إن قومًا كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداء فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة»(١).

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، أي: توادونهم، وتفعلون معهم وتقولون لهم ما يوحي بمودتكم لهم، وهذا كقوله بعد: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ الواو: للحال، و«قد» للتحقيق، أي: والحال أنهم قد كفروا بالذي جاءكم من الحق من عند الله على لسان رسوله ﷺ من القرآن والسنة، أي: جحدوه وأنكروه، ولم يؤمنوا به.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ الجملة مستأنفة، كالتفسير لكفرهم، أو حال من كفروا.

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٠٧.

أي: أنهم أخرجوا الرسول ﷺ وإياكم أيها المؤمنون، فاضطروكم إلى الخروج والهجرة من مكة إلى المدينة، وما زالوا يخرجون من آمن؛ ولهذا قال: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.

ولم يقل: أخرجوا الرسول وإياكم، إشارة إلى استمرارهم على أذية من آمن واضطراره إلى الخروج والهجرة.

﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، أي: بسبب إيمانكم بالله ربكم، أي: لا سبب لإخراجكم سوى إيمانكم بالله ربكم، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البروج: ٨، ٩]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

قال ابن كثير[1]: «وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾: هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده».

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾، ﴿جِهَٰدًا﴾ مفعول لأجله.

أي: إن كنتم خرجتم وهاجرتم؛ لأجل الجهاد في سبيلي. والجهاد: بذل الجهد والطاقة والوسع في قتال الكفار، وفي طاعة الله عز وجل.

﴿فِى سَبِيلِى﴾، أي: لإعلاء كلمتي ونصر ديني، كما قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله- عز وجل-»[2].

﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾، أي: طلبًا لمرضاتي عنكم.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١١٢.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ١٢٣، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣- من حديث أبي موسى- رضي الله عنه.

والمعنى: إن كنتم خرجتم من مكة؛ لأجل الجهاد في سبيلي، وطلبًا لرضائي، صادقين في ذلك، فلا تتخذوهم أولياء.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، أي: فكيف تسرون إليهم بالمودة؟ أو فلم تسرون إليهم بالمودة.

﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ الواو: حالية و«ما» في الموضعين موصولة، أو مصدرية، أي: والحال أني أنا أعلم بالذي أخفيتم والذي أعلنتم، أو بإخفائكم وإعلانكم، أي: أعلم بالذي تسرون به وتضمرونه، والذي تجهرون به وتعلنونه.

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧].

ومن علمه- عز وجل- بما أُخفي وما أُعلن- علمه بما فعل حاطب- رضي الله عنه.

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية و«يفعله» فعل الشرط، أي: ومن يفعله منكم أيها المؤمنون.

والضمير في قوله: ﴿يَفْعَلْهُ﴾ يعود إلى المفهوم من النهي السابق من اتخاذ الكافرين أولياء والإلقاء إليهم بالمودة والإسرار لهم بها.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ جواب الشرط، وقرن بالفاء لاتصاله بـ«قد».

أي: فقد تاه وبعد عن وسط الطريق، أي: عن الطريق العدل، والطريق السوي، وأخطأ طريق الحق والصواب، قال تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾، أي: إن قدروا عليكم وتمكنوا منكم وظفروا بكم.

﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾، أي: يظهرون لكم عداوتهم الشديدة.

﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم﴾، أي: ويمدوا إليكم أيديهم بالبطش، وألسنتهم بالقول.

﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾، أي: بما يسوؤكم ويؤذيكم وينال منكم من الفعل السيء والقول السيء، أي: فلو أتيحت لهم فرصة لما ادخروا وسعًا في أذيتكم بالفعل والقول.

﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، «لو» مصدرية، أي: تمنوا وأحبوا كفركم، أو أن تكفروا، فهم لا يحبون أن يحصل المؤمنون على أي خير.

ويؤخذ من الآية أن الشيطان وجنده وأعوانه من شياطين الإنس والجن لا يرضيهم ولا يقنعهم ولا يكفيهم إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى في أتباع الشهوات: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾، أي: لن تغني عنكم ولن تدفع عنكم ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾، أي: قراباتكم عمومًا ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ خصوصًا- فهو من عطف الخاص على العام.

والأرحام: جمع رحم، وهي في الأصل موضع تكوّن الجنين، والمراد بهم هنا القرابة، وسُمي القرابة أرحامًا؛ لأنهم خرجوا من رحم واحد، أو لأنهم يتراحمون فيما

بينهم.

والأولاد: جمع ولد، يشمل الذكر والأنثى من أولاد الإنسان وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور، وهم ذريته.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ عاصم ويعقوب بفتح الياء وكسر الصاد مخففة: ﴿يَفْصِلُ﴾.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة: «يُفَصِّلُ».

وقرأ الباقون بضم الياء وإسكان الفاء وفتح الصاد مخففة: «يُفْصَلُ».

وسمي يوم القيامة بهذا الاسم؛ لقيام الناس فيه من قبورهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

ولقيام الأشهاد فيه لقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

ولقيام الروح والملائكة فيه صفًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ: ٣٨].

ولقيام الحساب والعدل الحقيقي فيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ومعنى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾، أي: يمايز ويفرِّق بينكم، فلا أحد ينفع أو يغني عن أحد، ولا أحد ينتصر أو يدفع عن أحد عذاب الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ [الدخان: ٤١، ٤٢].

وقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

ففي ذلك اليوم لا أحد ينفع أحدًا، ولا أحد ينتصر لأحد، بخلاف ما كان عليه الحال في الدنيا، حيث يقول قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بدون سلاح(١)

وقد يحتمل أن معنى قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾، أي: يحكم بينكم بإعطاء كل منكم حقه من الآخر، ولو كان أقرب الناس إليه كأمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

ويؤخذ من ذلك أنه لا يجوز أن يواد الإنسان أو يوالي الكفار لأجل كونهم من قرابته، أو أولاده، فإنهم لا ينفعونه يوم القيامة، بل تعود عليه موالاتهم بالضرر يوم القيامة.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»(٢).

ولو كان أحد يملك لقرابته في ذلك اليوم نفعًا أو دفعًا لكان أولى الناس بذلك سيد الخلق نبينا محمد ﷺ فأمه وأبوه في النار.

فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما مضى دعاه، فقال: «إن أبي وأباك في النار»(٣).

---

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه- انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٤٩٣.

وقد أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤١٤ عنها بلفظ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس».

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان- بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ٢٠٣. وأبو داود في السنة- باب في =

ولم يستطع ﷺ هداية عمه أبي طالب الذي كانت له الأيادي البيضاء في الدفاع عنه ﷺ.

ولما توفي أبو طالب عم النبي ﷺ على الشرك، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣](١).

وروي أنه قال: «لا أزال أستغفر لك ربي حتى يردني» فاستغفر له بعدما مات. فقال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوي قراباتنا قد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد ﷺ يستغفر لعمه، فاستغفروا للمشركين حتى نزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة: ١١]».

ورُويَ: «أنه ﷺ استأذن ربه في الاستغفار لأمه، فلم يأذن له فيه، ونزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ حتى ختم الآية ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤](٢).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم.

﴿بَصِيرٌ﴾، أي: مطلع عليه، ذو علم وبصر به، لا تخفى عليه منه خافية، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر- ففي هذا وعد لمن اتقى الله وأطاعه، ووعيد

=

ذراري المشركين ٤٧١٨، وأحمد ٣/ ١١٩.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٧٥، ومسلم في الإيمان ٢٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٣٥- من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) انظر «أسباب النزول» للواحدي ص١٧٨، «لباب النقول» ص١٢٦، ١٢٧، «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٥٨- ١٦١، ٨/ ١١٣.

لمن خالف أمره وعصاه.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعده من الطلب، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان، وعدمه نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- نهي المؤمنين عن موالاة أعداء الله وأعدائهم الكفار ومودتهم، وتأكيد ذلك، وتهييج المؤمنين على عداوتهم؛ لكفرهم بما جاءهم من الحق، وإخراجهم الرسول والمؤمنين من مكة بلا ذنب، إلا أنهم آمنوا بربهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾.

٣- أن من عادى الله فهو عدو للمؤمنين ومن عادى المؤمنين فهو عدو لله.

٤- تقرير أن ما جاء المؤمنين من عند الله- عز وجل- هو الحق، وتقرير صدق رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾.

٥- إخراج المشركين للرسول ﷺ والمؤمنين من مكة بسبب إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله الخاصة للمؤمنين، وتشريفهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.

٧- أن على المؤمنين الصادقين في هجرتهم وجهادهم وفي إيمانهم البعد عن موالاة وموادة الكافرين، فإن موالاتهم تنافي الإخلاص لله في هذه الأعمال ولا تجتمع معها؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

٨- علم الله عز وجل المحيط بما يخفيه العباد في قلوبهم وما يعلنونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾.

٩- أن من والى الكافرين ووادهم، فقد ضل عن الطريق المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

١٠- تربص الكافرين الدوائر بالمؤمنين، وظهور شدة عداوتهم لهم لو تمكنوا منهم وتطاولهم عليهم بأيديهم وألسنتهم بالسوء ومودتهم لو يكفرون؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

١١- لا أحد من الأقارب والأولاد وغيرهم ينفع أو يغني عن أحد يوم القيامة أو ينتصر له ويدفع عنه عذاب الله، بل يفصل عز وجل بينهم، يوم القيامة، ويأخذ لكل منهم حقه من الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾.

١٢- لا يجوز موالاة وموادة الكفار لقرابتهم.

١٣- علم الله- عز وجل- واطلاعه وبصره بجميع أعمال العباد، فيجازي كلًا بما عمل، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾.

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن اتخاذ الكافرين أولياء، بعد ما حصل من حاطب بن أبي بلتعة- رضي الله عنه- من الكتابة لهم، والإلقاء إليهم بالمودة والإسرار لهم بها، وذكر عز وجل ما يهيج على عداوتهم من كفرهم، وإخراجهم للرسول ﷺ والمؤمنين، وتربصهم بالمؤمنين، وغير ذلك، ثم أتبع ذلك بذكر من ينبغي أن يقتدى به في هذا وهو إبراهيم الخليل عليه السلام والذين معه من المؤمنين في براءتهم من قومهم المشركين ومعبوداتهم، وإظهار العداوة لهم حتى يؤمنوا بالله وحده لا شريك له.

قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، «قد» حرف تحقيق، والخطاب للمؤمنين. والأسوة: القدوة، أي: قد كانت لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة طيبة، ومثل يحتذى في الخير والأمور الحسنة؛ لأن القدوة نوعان: قدوة حسنة طيبة، وقدوة سيئة خبيثة.

﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، أي: في نبي الله إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام والذين معه من الأنبياء والمؤمنين في براءتهم من قومهم الكافرين وعدم موالاتهم ومحبتهم لهم.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾، «إذ» ظرف زمان بمعنى «حين»، أي: حين قالوا لقومهم المشركين.

﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ برآء: جمع «بريء»، يقال في جمعه: برآء، وأبرياء، وبريئون، جمع مذكر سالم، أي: إنا تبرأنا منكم فلسنا منكم ولستم منا.

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: وتبرأنا من عبادتكم، ومن الذي تعبدونه من دون الله من المعبودات، فلا نعبد شيئًا منها، بل نعبد الله وحده.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، أي: أنكرناكم، وأنكرنا دينكم وطريقتكم.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾، أي: وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء لكم، ووجب علينا إظهار ذلك لكم ﴿أَبَدًا﴾ من الآن وعلى الدوام ما دمتم على الكفر.

﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ حتى للغاية، أي: إلى غاية أن تؤمنوا بالله وحده لا شريك له، بالإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، وتعبدوه وحده.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، «إلا» أداة استثناء، و«قول» مستثنى منصوب من قوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

أي: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فليس لكم فيه أسوة، أو لا تتأسوا به في ذلك.

قال الطبري(١): «إلا في قول إبراهيم لأبيه ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه».

كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه(٢) حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه»(٣).

وفي هذا دلالة على فضل نبينا محمد ﷺ على إبراهيم وعلى سائر الأنبياء عليهم السلام- لأن الله أمرنا بالاقتداء به ﷺ مطلقًا، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٧.

(٢) كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٨٦].

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٣٠، ٣٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٨٩٤، ١٨٩٥.

وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

بينما استثنى بعض فعل إبراهيم، لما أمرنا بالاقتداء به- عليه السلام.

﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ الواو: حاليه و«ما» نافية أي: والحال أني لا أملك لك من الله من شيء.

و«من» في قوله: ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى و«شيء» نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء، أي: وما أملك لك من الله أي شيء، مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا، لا هداية ولا غير ذلك، ولا أقدر على شيء من ذلك، وإنما المالك لذلك كله والقادر عليه هو الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فأين من هذا الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء، يطلبون منهم جلب النفع ودفع الضر، وإبراهيم خليل الرحمن يعلنها صريحة لأبيه وأقرب الناس إليه: ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾.

كما قال عز وجل لنبينا محمد ﷺ سيد ولد آدم: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢٠، ٢١].

نسألك اللهم الهداية للحق والثبات عليه إلى أن نلقاك.

﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ هذا إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ من تتمة كلام إبراهيم عليه السلام والذين معه بعد أن أعلنوا البراءة من قومهم ومن معبوداتهم وإظهروا العداوة والبغضاء لهم ما داموا على الشرك.

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، خالقنا ومالكنا، والمتصرف فينا.

﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾، أي: عليك اعتمدنا، وإليك فوضنا أمورنا في جلب النفع لنا ودفع الضر عنا مع تمام الثقة بك والبراءة من حولنا وقوتنا.

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾، أي: وإليك تبنا ورجعنا.

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: وإليك وحدك المرجع والمآل والمنقلب والمعاد في الدار الآخرة وفي جميع الأمور.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾، أي: يا ربنا لا تصيرنا، ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والفتنة: الابتلاء والامتحان، وتكون في الخير والشر، كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والمعنى: يا ربنا لا تصيرنا فتنة للذين كفروا، بأن تسلطهم علينا بالقتل والأذى، أو بأن نواليهم ونوادهم، فيكونوا سببًا في فتنتنا عن ديننا، أو بظهورهم علينا فيظنوا أنهم على حق ونكون فتنة لهم.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾، أي: واغفر لنا يا ربنا، بستر ذنوبنا عن الخلق والتجاوز عن عقوبتها- كما جاء في تقرير الله عز وجل للعبد المؤمن بذنوبه وقوله- عز وجل-: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، «العزيز» و«الحكيم» من أسماء الله- عز وجل- كل منهما على وزن «فعيل»، يدل «العزيز» على أن له عز وجل العزة بأنواعها الثلاثة: عزة القهر، وعزة القوة، وعزة الامتناع.

ويدل «الحكيم» على أن له- عز وجل- الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وأن له الحكمة، بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

---

(١) سبق تخريجه.

وقد أكد عز وجل كمال عزته وحكمه وحكمته- إضافة إلى كون هذين الاسمين جاءا على صيغة المبالغة بـ «أن» المؤكدة، وبكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «أنت».

وناسب ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مع أنه يلي قوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ﴾- والله أعلم- ليناسب قوله قبل ذلك: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾

هذا تأكيد لما سبق في قوله: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ الآية.

واللام في قوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ﴾ للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فتكرار هذه الجملة تأكيد، وتصديرها بالقسم تأكيد آخر.

وقال هنا: «كان» وفي الآية الأولى «كانت»، وذلك- والله أعلم- للتنصيص في الآية الأولى على أن لهم بإبراهيم والذين معه أسوة حسنة في البراءة من الكافرين.

وأما قوله في الآية الثانية ﴿كَانَ﴾ ففيه إشارة إلى أن لهم فيهم أسوة عامة في طاعة الله تعالى وترك معصيته.

﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾، «لمن» جار ومجرور بدل من قوله: «لكم».

و«مَن» اسم موصول، أي: للذي يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نوح: ١٣]، أي: لا تخافون لله عظمة.

﴿وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾، أي: ويرجو الثواب في اليوم الآخر، ويخاف العقاب.

واليوم الآخر: يوم القيامة؛ لأنه لا يوم بعده، فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

وفي قوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ تأكيد وتهييج أيضا لأخذ القدوة من

إبراهيم والذين معه في البراءة من الكافرين، وأن من كان يرجو الله واليوم الآخر لا بد أن يكون كذلك.

وقرن- عز وجل- بين رجائه واليوم الآخر- كما يقرن عز وجل كثيرًا بين الإيمان به واليوم الآخر، لأن اليوم الآخر يوم الحساب والجزاء على الأعمال وهو من أعظم ما يحمل الإنسان على العمل ومحاسبة النفس.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، أي: ومن يعرض عن طاعة الله- عز وجل- وأمره ونهيه بقلبه وجوارحه، وقوله وفعله، وذلك بموالاة الكافرين وغير ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، «الغني»، و«الحميد» كل منهما من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل «الغني» على كمال وسعة غناه، وأنه غني عن خلقه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر..»(١).

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧- من حديث أبي ذر- رضي الله عنه.

و﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ يدل على أنه- عز وجل- المحمود على كرمه وجوده، وفي جميع أقواله وأفعاله، المستحق للحمد وحده، كما قال عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

وقد قرن عز وجل بين اسميه «الغني» و«الحميد» في مواضع عدة من القرآن الكريم. إشارة إلى أنه عز وجل المحمود في غناه؛ لكرمه العميم وجوده العظيم.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤، الممتحنة: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

الفوائد والأحكام:

١- ينبغي أن يكون للمؤمنين قدوة حسنة في إبراهيم عليه السلام والذين معه من المؤمنين في إخلاصهم العبادة لله- عز وجل- وبراءتهم من قومهم المشركين ومن معبوداتهم وكفرهم بهم وإظهار عداوتهم وبغضهم لهم أبدًا حتى يؤمنوا بالله ويوحدوه؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

٢- لا يُتأسى ولا يُقتدى بإبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه وهو مشرك؛ لأن الاستغفار للمشركين لا يجوز، وإنما استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه عن وعد له بذلك، فلما تبين له عداوته لله واستمراره على الشرك، تبرأ منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

٣- أن الهداية بيد الله فهو يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله ولهذا قال إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن لأبيه: ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لأوليائه المؤمنين- وتشريفهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا﴾.

٥- وجوب إخلاص العبادة لله وحده والتوكل عليه والإنابة إليه أسوة بإبراهيم عليه السلام والذين معه؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾.

٦- أن المصير والمرجع والمآب والمآل إلى الله- عز وجل- فيجازي كلًا بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

٧- مشروعية سؤال الله- عز وجل- السلامة من فتنة الذين كفروا في الدين أو القتل أو غير ذلك، وسؤاله المغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ﴾.

٨- إثبات اسمين من أسماء الله وهما «العزيز» و«الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة، والحكم النافذ، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٩- تأكيد وجوب أخذ القدوة من إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه في براءتهم من قومهم المشركين ومعبوداتهم لمن كان يرجو الله والثواب يوم القيامة، وذلك تعظيمًا لخطر الشرك، وتحذيرًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾.

١٠- التهديد لمن تولى وأعرض عن طاعة الله وخالف أمره ووالى أعداءه، وبيان غنى الله- عز وجل- عنه، وأنه سبحانه الغني عن خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

١١- إثبات اسمين من أسمائه- عز وجل- وهما «الغني» و«الحميد» وأنه سبحانه الغني عن جميع الخلق المغني لهم، المحمود في كرمه وجوده، وفي جميع أقواله وأفعاله،

المستحق للحمد وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

١٢- في اقتران اسميه عز وجل «الغني» و«الحميد»، كمال إلى كمال، وأنه سبحانه المحمود في غناه.

١٣- أن الغنى إذا لم يصاحبه جود وكرم وبذل منه يحمد عليه صاحبه فلا قيمة له، بل هو نقمة ووبال على صاحبه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾.

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن موالاة الكافرين وموادتهم- مطلقا- وحيث إن ترك موالاة الكافرين إذا كانوا من الأقربين أمر ليس بالسهل على النفوس لم يُقَنِّط عز وجل المؤمنين، بل فتح لهم باب الرجاء في إيمان هؤلاء الكافرين فتعود المودة بينهم وبينهم، فقال عز وجل: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم بين عز وجل من لم يتناولهم النهي ممن يجوز الإقساط إليهم وبرهم من الكافرين ومن لا تجوز موالاتهم مطلقا في الآيتين بعد ذلك.

قال ابن القيم[١]: «لما نهى الله سبحانه في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء، وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله- سبحانه- أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو الإحسان الذي يحبه ويرضاه وكتبه على كل شيء، وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة».

قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾، «عسى» للترجي بالنسبة للمخلوق- كما قال الشاعر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب[٢]

وقال الآخر:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٣٣.

(٢) البيت لهدبة بن خشرم، وهو في «ديوانه» ص٥٤.

عسى فرج يأتي به الله إنه   له كل يوم في خليقته أمر[١]

فيكون المراد بالرجاء هنا ما يقوم في قلوب المخاطبين: أي: يرجى أن الله يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة. أو ترجون أن الله يجعل بينكم وبينهم مودة ويحتمل أن هذا وعد من الله عز وجل أن يجعل بينهم وبين هؤلاء الكفار مودة بأن يسلم هؤلاء الكفار. وتكون «عسى» هنا بمعنى الوعد من الله عز وجل بذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «عسى من الله واجبة»[٢].

والمعنى: عسى الله أن يجعل بينكم أيها المؤمنون وبين كفار مكة الذين نهيتم عن موالاتهم وموادتهم وأمرتم بعداوتهم مودة، وذلك بأن يسلموا، وهكذا حصل فآمن كثير من أهل مكة يوم الفتح وقبله وبعده، منهم أبو سفيان وغيره.

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾، أي: ذو قدرة تامة على كل شيء، ومن ذلك تقليب القلوب، بإدخال الإيمان في قلوب كثير من الكفار، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ومن ذلك قدرته عز وجل على التأليف بين القلوب المتنافرة والمتناحرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولهذا قال ﷺ: «ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي»[٣]. وقد أحسن القائل:

---

(١) البيت لمحمد بن إسماعيل، كما في حاشية «شذور الذهب» ص ٣٥١.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه ٩/ ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة الطائف ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة- إعطاء المؤلفة قلوبهم ١٠٦١، =

وقـد يجمـع الله الشـتيتين بعـدما   يظنـان كـل الظـن أن لا تلاقيـا[١]

ولهذا فإن من الحكمة، بل من المأمور به شرعًا: ألا يفرط الإنسان بالعداوة ولا بالمحبة، وفي الحديث: «أحبب حبيبك هونًا ما، فعسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، فعسى أن يكون حبيبك يومًا ما»[٢].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة، ومن مغفرته عز وجل ورحمته أن يغفر لمن تاب من المؤمنين ويرحمهم، وأن يهدي من يشاء من كفار مكة وغيرهم للإيمان، ويغفر لهم ما قد سلف، كما قال عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، «لا» نافية، أي: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم لأجل دينكم وبسببه.

﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾، أي: ولم يضطروكم إلى الخروج من دياركم لأجل دينكم أيضا.

﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾، أي: تحسنوا إليهم وتصلوهم.

﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: تعدلوا إليهم ومعهم. من «أقسط» الرباعي، بمعنى: عدل وأنصف.

و«أن» والفعل بعدها في قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بدل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾

= وأحمد ٤/ ٤٢- من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم- رضي الله عنه.

(١) البيت لقيس بن الملوح «مجنون ليلى» انظر «ديوانه» ص٣١٥.

(٢) أخرجه الترمذي في البر- الاقتصاد في الحب والبغض ١٩٩٧- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه. وقال: «حديث غريب. وصحح وقفه على علي رضي الله عنه».

والتقدير: لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم في الدين من الكفار ولم يخرجوكم من دياركم ولا عن الإقساط إليهم، كالنساء والضعفة وغيرهم، أي: لا ينهاكم الله عن الإحسان إليهم وصلتهم.

قال تعالى في الوالدين المشركين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنهما- قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت، وهي راغبة[(١)]، أفأصلها؟ قال: «**نعم صلي أمك**»[(٢)].

وفي رواية «قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾»[(٣)].

وأيضا لا ينهاكم الله عن العدل معهم وفيهم، بل ذلك واجب عليكم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ﴾ [المائدة: ٨].

فالعدل واجب مع كل أحد. والإحسان مشروع لكل ذي كبد رطبة حتى للكلاب فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال**

---

(١) أي مشركة.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة- الهدية للمشركين ٢٦٢٠، ومسلم في الزكاة- فضل النفقة والصدقة على الأقربين ١٠٠٣، وأبو داود في الزكاة ١٦٦٨، وأحمد ٦/ ٣٤٤، ٣٤٧.

(٣) أخرجها البخاري في الأدب- صلة الوالد المشرك ٥٦٣٣.

الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له»، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال: «**في كل ذات كبد رطبة أجر**»(١).

ويؤخذ من الآية الرد على الغلاة من الخوارج وغيرهم الذين يستبيحون دماء وأموال مخالفيهم من المسلمين. وقد قال ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»(٢).

ويؤخذ من الآية سماحة الدين الإسلامي في معاملة الآخرين.

ولهذا لما قيل له ﷺ: ادع على المشركين؟ قال: «**إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة**»(٣).

ولما استأذنه ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة الأخشبين- جبلين بمكة- قال: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**»(٤).

ودعا ﷺ لقومه وهم يوقعون به وبأصحابه صنوف الأذى فقال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(٥).

ولهذا اعتذر نوح عليه السلام عن الشفاعة بسبب أنه دعا على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦](٦).

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٦٦، ومسلم في السلام ٢٢٤٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥٥٠.

(٢) أخرجه النسائي في مناسك الحج ٣٠٥٧- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٩٩- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد والبر ١٧٩٥ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤٣٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٦) سبق تخريجه.

ولما دخل ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا أمَّن أهلها وقال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[١].

مع ما لقيه منهم ﷺ من المحادة والعناد والأذى.

وزار ﷺ الغلام اليهودي الذي كان يخدمه لما مرض، وقعد عند رأسه، وقال له: «**أسلم**»، فنظر إلى أبيه، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»[٢].

وجلس الخليفة الراشد علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- يتحاكم مع اليهودي الذي وجد درعه عنده إلى القاضي شريح ولم يكن لدى علي- رضي الله عنه- بينة، فقيل له يحلف اليهودي ويأخذ الدرع، فقال: هو وذاك فلما رأى اليهودي أن خليفة المسلمين تحاكم معه إلى القضاء اعترف بأن الدرع لعلي- رضي الله عنه- وأعلن إسلامه[٣].

وذُبحت شاة لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»[٤].

وكان لعبد الله بن المبارك جار يهودي، فأراد أن يبيع داره، فقيل له: بكم تبيع؟ قال: بألفين. فقيل له: هي لا تساوي إلا ألفًا. قال: صدقتم، ولكن ألف للدار، وألف لجوار عبد الله بن المبارك. فأخبر ابن المبارك، فدعاه وسأله، قال: عليّ دين. فأعطاه ثمن الدار، وقال: لا تبعها[٥].

---

(١) أخرجه البيهقي في «سننه» ٩/ ١١٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر «السيرة النبوية» ٤/ ٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٥٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٥- من حديث أنس- رضي الله عنه.

(٣) انظر «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص١٨٤- ١٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص٥٨ (١٢٨)، وأبو داود في الأدب ٥١٥٢، والترمذي في البر والصلة ١٩٤٣، وقال: «حديث حسن غريب».

(٥) انظر: «تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الواحد الديان وذكر أحداث الزمان» ٥/ ٢٧٢، «موسوعة =

وبهذا الخلق وهذا العدل والسماحة فتح المؤمنون من سلف هذه الأمة قلوب الناس للإسلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، أي: إن الله يحب المقسطين الذين يعدلون فيما لهم وعليهم، وفي حكمهم بين الناس، كما قال ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

في هذه الآية تصريح بما فهم من الآية قبلها وهي قوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية، وتأكيد للنهي في قوله في مطلع السورة: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، وحصر للنهي فيها في النهي عن موالاة الذين قاتلوهم في الدين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما ينهاكم الله إلا عن الذين قاتلوكم من أجل دينكم.

﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ المظاهرة: المعاونة، أي: عاونوا وساعدوا على إخراجكم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم: ٤]، أي: وإن تعاونا عليه.

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بدل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ﴾، أي: عن توليهم، أو عن موالاتهم ومناصرتهم، وعن أن تكونوا لهم أولياء ونصراء.

الأخلاق والزهد والرقائق» ١/ ٣٨٣.

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٧٩ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، «يتولهم» فعل الشرط.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

والإشارة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ للذين يتولون الكافرين من المؤمنين، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لأمرهم.

ويحتمل أن يراد بالإشارة نفس الكفار، ويحتمل أن يراد بها الطائفتين معًا الكفار ومن يتولاهم من المؤمنين فالكفار ظالمون، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ومن والاهم فهو منهم، كما قال عز وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقد أكد وصفهم بالظلم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

والظلم: النقص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئا، وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وهؤلاء المذكورون، وضعوا الولاية في غير موضعها وخالفوا أمر الله.

وأظلم الظلم الشرك بالله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله- عز وجل- أوضح الحقوق وأبينها؛ خلق ورزق وأنعم علينا بسائر النعم، فمن صرف حق الله وهو العبادة لغير الله فهو من أظلم الظالمين.

الفوائد والأحكام:

١- ترجية الله عز وجل للمؤمنين ووعده لهم بأن يجعل بينهم وبين من عادوهم من أهل مكة بسبب كفرهم مودة، وذلك بأن يؤمن هؤلاء الكفار أو بعضهم فتعود الموالاة بينهم، وهكذا حصل؛ لقوله تعالى: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾.

٢- تأكيد عدم جواز موالاة ومودة الكافرين.

٣- إثبات قدرة الله- عز وجل- التامة على كل شيء، ومن ذلك تقليب القلوب وإدخال الإيمان في قلوب كثير من الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾.

٤- إثبات مغفرة الله- عز وجل- ورحمته، الواسعتين؛ ولهذا هدى كثيرًا من المشركين إلى الإسلام بمغفرته ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٥- وجوب الإقساط والعدل مع الكفار غير المحاربين ممن لم يقاتلوا المؤمنين، ولم يخرجوهم من ديارهم، وجواز الإحسان إليهم وبرهم بل ذلك مما يؤجر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾.

فلمن أقام منهم في بلاد المسلمين حرية المعتقد وسلامة دور العبادة، وحرية ممارسة عباداتهم، لكن يمنعون من إظهار طقوس عباداتهم، ومن شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك في الأسواق.

ويجب العدل معهم، ورفع الظلم عنهم، وحسن معاملتهم، ولا مانع من برهم والإحسان إليهم.

٦- الاحتراز من أن يفهم من النهي عن موالاة الكافرين عدم البر والإقساط لمن لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم.

٧- إثبات المحبة لله- عز وجل- وأنه يحب المقسطين العادلين، ونفي محبته عن الظالمين الجائرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

٨- تأكيد وحصر النهي في الموالاة في النهي عن موالاة المقاتلين للمؤمنين في الدين المخرجين لهم من ديارهم المظاهرين على إخراجهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾.

٩- التحذير من موالاة الكافرين الظالمين للمؤمنين في قتالهم لهم وإخراجهم من ديارهم وأن من والاهم فهو ظالم مثلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

سبب النـزول:

عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة- رضي الله عنهما قالا: «لما كاتب رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو يوم الحديبية على قضية المدة، وكان فيما اشترط سهيل بن عمرو أنه قال: لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه، فرد رسول الله ﷺ أبا جندل بن سهيل يومئذ إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأت رسول الله ﷺ أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلمًا، وجاءت المؤمنات مهاجرات: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ونسوة أخر، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾»(١).

قوله: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾، أي: إذا جاءكم النساء المؤمنات مهاجرات. والهجرة هي: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام. وهي واجبة إذا كان الإنسان لا يستطيع إظهار شعائر دينه في بلاد الكفر.

ومما يؤسف له أنه قد انعكس الحال فأصبح المسلم في بعض البلاد الإسلامية لا يستطيع أن يظهر شعائر دينه، بينما يستطيع ذلك في كثير من بلاد الكفر- والله المستعان.

والهجرة من مكة كانت واجبة قبل فتحها، أما بعده فقد صارت دار إسلام. قال

---

(١) أخرجه مطولًا- من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم- البخاري في الجهاد- المصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢٧٣١، ٢٧٣٢، وابن إسحاق في السيرة انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣٢١، والبيهقي في الجزية ٩/ ٢١٨، وأخرجه مختصرًا أبو داود في الجهاد ٢٧٦٥، ٢٧٦٦، وأحمد ٤/ ٣٢.

ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[١]، أي: لا هجرة من مكة بعد فتحها؛ لأنها صارت دار إسلام، ولله الحمد والمنة.

﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾، أي: اختبروهن، وذلك بسؤالهن عن سبب خروجهن، وهجرتهن وتحليفهن إن احتيج إلى ذلك؛ ليتبين صدق إيمانهن؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾.

فعن أبي نصر الأسدي قال: سئل ابن عباس: كيف امتحان رسول الله ﷺ النساء؟ قال: «كان يمتحنهن: بالله ما خرجت- من بغض زوج؟ وبالله ما خرجت- رغبة عن أرض إلى أرض؟ وبالله ما خرجت- التماس دنيا؟ وبالله ما خرجت- إلا حبًا لله ورسوله»[٢].

ورُويَ أن الذي كان يحلفهن عن أمر رسول الله ﷺ له عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٣].

﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾، أي: فإن علمتموهن صادقات في إيمانهن، وفي هجرتهن، خرجن حبًا لله ورسوله، وفرارًا بدينهن- حسب ما يظهر لكم- إذ لا يطلع على البواطن إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٥]. فليس لنا إلا الظاهر، وأمر السرائر إلى من يعلم السر وأخفى.

وفي الحديث «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٧٥- ٥٧٦.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١٨.

(٤) سبق تخريجه.

لكن قد يستدل بما يظهر من الأقوال والأفعال على ما في الباطن.

ولهذا قال الحافظ ابن كثير في كلامه على الآية: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ قال[١]: «وفيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقينًا».

﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، أي: فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار.

وإذا كانت المتزوجة لا ترد إلى زوجها فمن باب أولى أن لا ترد غير المتزوجة.

فهذه الآية مخصصة لما جاء في صلح الحديبية من الشرط: «على أن لا يأتيك منا أحد، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا».

ولهذا لما جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط- رضي الله عنها- مهاجرة بعد هذا الصلح وبعد نزول هذه الآية لم يرجعها رسول الله ﷺ، وكذا غيرها من النساء اللاتي هاجرن في تلك المدة.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾، أي: لا هن يحللن لهم وقد آمنَّ وهم كفار.

﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، أي: ولا هم يحلون لهن وهم كفار وهن مؤمنات. فلا تحل مؤمنة لكافر، ولا يحل كافر لمؤمنة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢١].

فحرم الله عز وجل بهذه الآية المؤمنات على المشركين، وكان جائزًا في أول الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة. وكانت زينب- ابنة النبي ﷺ- تحت أبي العاص بن الربيع، وكان مشركًا، فأمره الرسول ﷺ بعد نزول هذه الآية أن يبعث بها إليه، فأقامت في المدينة بعد وقعة بدر إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع فردها إليه رسول الله ﷺ.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١١٨.

أبي العاص. قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها»؟ فقالوا: نعم. وكان رسول الله ﷺ أخذ عليه أو وعده أن يُخلي سبيل زينب إليه. وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار، فقال: «كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحبانها حتى تأتيا بها»(١).

فلما قدم أبو العاص مكة، وفَى له بذلك وصدَقه فيما وعده، فبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة- رضي الله عنه- فأقامت في المدينة من بعد وقعة بدر وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع زمن الحديبية(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع بالنكاح الأول، ولم يحدث شيئًا».

وفي رواية: «وكان إسلامها قبل إسلامه بست سنين»، وفي رواية «بسنتين، ولم يحدث شهادة ولا صداقًا»(٣).

وعن الحجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد»(٤).

قال الخطابي(٥): «قال محمد بن إسماعيل: حديث ابن عباس أصح في هذا الباب من حديث عمرو بن شعيب».

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٦٩٢، وأحمد ٦/ ٢٧٦.

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ١/ ٣٣٠- ٣٣٤، «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦- ١٣٧ «تفسير ابن كثير» ٨/ ١١٨- ١١٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق- إلى متى ترد إليه امرأته إذا أسلم بعدها ٢٢٤٠، والترمذي في النكاح- ما جاء في الزوجين يسلم أحدهما ١١٤٣، وابن ماجه في الطلاق- الزوجين يسلم أحدهما قبل الآخر ٢٠٠٩، وأحمد ١/ ٢٦١. وصححه، وقال الترمذي: «ليس بإسناده بأس».

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٢٠٧- ٢٠٨- وضعفه، وأخرجه ابن ماجه في النكاح ٢٠١٠.

(٥) انظر «سنن أبي داود» ٢/ ٦٧٦.

وقال الإمام أحمد بعد روايته لحديث عمرو بن شعيب: «هذا حديث ضعيف، أو واهٍ، ولم يسمعه الحجاج من عمرو بن شعيب، إنما سمعه من محمد بن عبيد العزرمي، والعزرمي حديثه لا يساوي شيئًا. والحديث الصحيح الذي روي أن النبي ﷺ أقرهما على النكاح الأول».

وقد اختلف أهل العلم في بقاء حكم النكاح إذا أسلم أحد الزوجين دون الآخر. فذهب جمهور أهل العلم إلى أن النكاح ينفسخ، منهم من قال بمجرد إسلام أحدهما. وهو رواية عن أحمد، وبه قال أبو حنيفة إن كان أحدهما في دار الإسلام والآخر في دار الحرب. ومنهم من قال لا ينفسخ النكاح إلا بانقضاء العدة، منهم مالك والشافعي وأحمد في رواية عنه. وبه قال أبو حنيفة إذا كان الزوجان في دار الإسلام أو في دار الحرب(١).

وذهب بعض أهل العلم إلى أن النكاح لا ينفسخ بمجرد إسلام أحد الزوجين، سواء فرقت بينهما الهجرة أو لم تفرق. واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم مستدلين بحديث ابن عباس في رده ﷺ ابنته زينب على أبي العاص، وقد أسلمت قبله بسنين، وما في معناه من الآثار.

قال ابن تيمية: «وأما القول بأنه بمجرد إسلام أحد الزوجين المشركين تحصل الفرقة، قبل الدخول أو بعده فهذا في غاية الضعف، فإنه خلاف المعلوم المتواتر من شريعة الإسلام، فإنه قد علم أن المسلمين الذين دخلوا في الإسلام كان يسبق بعضهم

---

(١) انظر «المدونة» ٢/ ٢٩٨، ٣٠٢- ٣٠٣، «الأم» ٤/ ١٩٣، ٢٧٠- ٢٧١، ٥/ ٤٤- ٤٥ «أحكام القرآن» للشافعي ٢/ ٦٩، «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبد الله ص٣٣٠- ٣٣١، رواية النيسابوري ١/ ٢١٧ «الإشراف على مذاهب العلماء» ٤/ ٢١٠، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١١٤ «المحلى» ٧/ ٣١٤، «المسائل الفقهية» ٢/ ١٠٥، «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٧٨٧، «زاد المسير» ٨/ ٢٤٤، «المغني» ٦/ ٦١٤- ٦١٦، «فتح القدير» لابن الهمام ٣/ ٤٢٢، «تبيين الحقائق» ٢/ ١٧٥، «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦- ١٤٠، «أحكام أهل الذمة» ١/ ٢٣٥- ٢٥١، «حاشية ابن عابدين» ٣/ ١٩١- ١٩٢، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١١٩، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٣٤- ٤٣٦.

بعضا بالتكلم بالشهادتين، فتارة يسلم الرجل وتبقى المرأة مدة ثم تسلم، كما أسلم كثير من نساء قريش وغيرهم قبل الرجال...»[١].

وقال ابن القيم[٢]: «فإنه لا يعرف أن رسول الله ﷺ جدد نكاح زوجين سبق أحدهما الآخر بإسلامه وقد رد النبي ﷺ ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع، وهو إنما أسلم زمن الحديبية، وهي أسلمت من أول البعثة، فبين إسلامهما أكثر من ثماني عشرة سنة.

وأما قوله في الحديث: «كان بين إسلامها وإسلامه ست سنين» فوهم إنما أراد بين هجرتها وإسلامه.

قال: وأما مراعاة زمن العدة فلا دليل عليه من نص ولا إجماع، ولا يعرف اعتبار العدة في شيء من الأحاديث، ولا كان النبي ﷺ يسأل المرأة هل انقضت عدتها أم لا، ولا ريب أن الإسلام لو كان بمجرده فرقة، لم تكن فرقة رجعية، بل بائنة، فلا أثر للعدة في بقاء النكاح، وإنما أثرها في منع نكاحها للغير، فلو كان الإسلام قد نجز الفرقة بينهما لم يكن أحق بها في العدة، ولكن الذي دل عليه حكمه ﷺ أن النكاح موقوف، فإن أسلم قبل انقضاء عدتها فهي زوجته، وإن انقضت عدتها، فلها أن تنكح من شاءت، وإن أحبت انتظرته، فإن أسلم كانت زوجته من غير حاجة إلى تجديد نكاح».

واستدل ابن القيم على هذا أيضًا بما رُويَ عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال في الزوجين الكافرين يسلم أحدهما: «هو أملك ببضعها ما دامت في دار هجرتها» وفي رواية: «هو أحق بها ما لم يخرج من مصرها».

قال ابن القيم: «ولو لا إقراره ﷺ الزوجين على نكاحهما، وإن تأخر إسلام أحدهما عن الآخر بعد صلح الحديبية، وزمن الفتح لقلنا بتعجيل الفرقة بالإسلام من غير

(١) انظر «أحكام أهل الذمة» ١/ ٢٥١.

(٢) انظر «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦- ١٤٠.

اعتبار عدة؛ لقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

وأن الإسلام سبب الفرقة، وكل ما كان سبب الفرقة تعقبه الفرقة كالرضاع والخلع والطلاق- وبعد أن ذكر من قال به من السلف وغيرهم، وأنه إحدى الروايتين عن أحمد قال: «ولكن الذي أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ وقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لم يحكم بتعجيل الفرقة».

ثم استدل ابن القيم بإسلام امرأة صفوان بن أمية قبل إسلامه بنحو شهر ولم يفرق النبي ﷺ بينهما(١)، وبإسلام أم حكيم قبل زوجها عكرمة بن أبي جهل، وإسلام أبي سفيان قبل امرأته هند، وإسلام حكيم بن حزام قبل امرأته وغيرهم- رضي الله عنهم- ولم يفرق النبي ﷺ بين أحد منهم وزوجته. كما استدل بإسلام نصرانية قبل زوجها في عهد عمر- رضي الله عنه- ولم يفرق بينهما(٢).

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ الضمير يعود إلى أزواجهن من الكفار، و«ما» موصولة، أي: وأعطوهم الذي أنفقوه، وغرموه من المهور، وذلك للعهد الذي بينهم وبين المسلمين فلا يجمع لهم بين فسخ أزواجهم منهم وتغريمهم ما دفعوا لهن من المهور.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: لا حرج ولا إثم عليكم.

﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، أي: ولا حرج عليكم في نكاحهن والنكاح في اللغة: الضم والجمع، وفي الشرع: عقد الزوجية الصحيح. ويطلق على العقد، وعلى الوطء. والمراد به هنا: العقد، أي: ولا حرج ولا إثم عليكم في الزواج بهن.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، أي: إذا أعطيتموهن مهورهن، فهن كغيرهن من النساء، لا

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٥٤٣- ٥٤٤.

(٢) انظر «زاد المعاد» ٥/ ١٣٧- ١٤٠ وانظر أيضًا ١٣٤- ١٣٥.

يجوز الاستهانة بمهورهن وحقوقهن.

وسُمي المهر أجرًا؛ لتأكيد وجوبه لأنه في مقابلة الانتفاع بالبضع.

وجواز نكاحهن مشروط بانقضاء عدتهن، وتوفر بقية شروط النكاح من الولي والشاهدين وغير ذلك.

﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بتشديد السين: «ولا تُمَسِّكُوا»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ﴾.

و ﴿ٱلْكَوَافِرِ﴾: جمع كافرة.

والمعنى: لا تتزوجوا الكافرات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وأيضًا لا تبقوا على نكاح من كان عندكم منهن بل فارقوهن.

وقد جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما في صلح الحديبية: «أنه لما أنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ طلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ امرأتين فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، وتزوج الأخرى صفوان ابن أمية»(١).

كما طلق طلحة بن عبيد الله زوجته أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فتزوجها خالد بن سعيد بن العاص(٢).

﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي وخلف: «وَسَلُوا»، وقرأ الباقون: ﴿وَسْـَٔلُواْ﴾.

أي: واطلبوا الذي أنفقتموه من المهور على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن

(١) سبق تخريجه. وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٨٣- ٥٨٤. «السيرة النبوية» ٢/ ٣٢٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٨٤- ٥٨٥.

ذهبن، وليطلبوا هم الذي أنفقوه على أزواجهم اللاتي هاجرن إليكم أيها المسلمون، فلهم حق المطالبة في ذلك ويجب عليكم إعطاؤهم ذلك؛ لقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾.

فالسؤال مشروع في حق هؤلاء وهؤلاء لما أنفقوه على أزواجهم، لكن الأمر بإيتاء ذلك خص به المؤمنون في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾؛ لأنهم هم الذين يمتثلون أوامر الله عز وجل.

قال السعدي(١): «وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره كان عليه ضمان المهر».

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ الإشارة لما سبق في الآية من عدم رد النساء المهاجرات إلى أزواجهن إذا علمنا إيمانهن ووجوب إعطائهم ما غرموه عليهن من المهور، وجواز نكاحهن بشروطه وتحريم الكافرات على المؤمنين، وجواز مطالبة الذين ذهبت أزواجهم من الفريقين للفريق الآخر بما أنفقوا عليهن.

وأشار إلى هذه الأحكام بإشارة البعيد تعظيمًا لها، وتأكيدًا لوجوب امتثالها.

وحكم الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: حكم كوني، وحكم شرعي، وحكم جزائي.

والمراد بـ«حكم الله» في هذه الآية الحكم الشرعي.

ومن الحكم الكوني قول ولد يعقوب عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف: ٨٠]. والحكم الجزائي في الآخرة.

والمعنى: هذه الأحكام الشرعية في الآية هي حكم الله- عز وجل- الذي حكم به ويحكم به بينكم وبين الكفار، مما يتعلق بهذا الصلح صلح الحديبية مما سبق نزول الآية ووقت نزولها، وفيما يستقبل، ولهذا جاء التعبير بالمضارع ﴿يَحْكُمُ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع، والحكم النافذ والحكمة البالغة، ومن علمه عز وجل وحكمه وحكمته شرع هذه الأحكام العظيمة بين خلقه.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٥٩.

قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾.

سبب النـزول:

عن عائشة- رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن، وبلغنا أنه لما أنزل الله تعالى: أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على من هاجر من أزواجهم، وحكم على المسلمين أن لا يمسكوا بعصم الكوافر، أن عمر طلق امرأتين، قريبة بنت أبي أمية، وابنة جرول الخزاعي، فتزوج قريبة معاوية، وتزوج الأخرى أبو جهم، فلما أبى الكفار أن يقروا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم أنزل الله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ والعَقَبُ ما يؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأته من الكفار، فأمر أن يعطى من ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللاتي هاجرن، وما نعلم أحدًا من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها»(١).

قوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، أي: وإن ذهبت بعض زوجاتكم إلى الكفار، ولم يردوا إليكم ما أنفقتموه عليهن.

﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾، أي: أصبتم غنيمة في قتالكم الكفار الذين لا عهد بينكم وبينهم.

﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾، أي: أعطوا الذين ذهبت أزواجهم من المؤمنين دون عوض من الكفار، أي: أعطوهم من الغنيمة مثل الذي أنفقوا من المهور عليهن.

و«عاقبتم» على هذا تكون من المعاقبة للكفار المقاتلين بقتلهم وسلب أموالهم، وهذا قول عامة المفسرين، وهو الأظهر.

وذهب بعض أهل العلم منهم عائشة- رضي الله عنها والزهري إلى أن المعنى: أن

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط- الشروط في الجهاد ٢٥٨٢.

يرد المؤمنون إلى من ذهبت زوجته من المؤمنين من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمن وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلًا إن كان بقي لهم. والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمنَّ وهاجرن[١].

قال ابن كثير[٢] بعد ما ذكر القولين: «وهذا- يعني القول بأنه يعطى من الغنيمة- لا ينافي الأول، لأنه إن أمكن الأول فهو أولى- يعني قول الزهري- وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار، وهذا أوسع».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم، وحضًا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من أوامر واجتناب ما بعده من نواه يعد من مقتضيات الإيمان وعدم ذلك يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- أمر الله- عز وجل- للمؤمنين بامتحان المؤمنات المهاجرات للتأكد من إيمانهن حسب الظاهر، وأما الباطن فلا يعلمه إلا الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾.

٣- عدم جواز إرجاع المؤمنات المهاجرات إلى الكفار بعد معرفة إيمانهن؛ لأنهن لا يحللن لهم ولا هم يحلون لهن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

٤- وجوب إيتاء الأزواج الكفار ما أنفقوا على زوجاتهم اللاتي آمنَّ وهاجرن، وفي هذا

---

(١) سبق تخريجه عن عائشة- رضي الله عنها، وأخرجه عن الزهري الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٠. وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٣٢٦.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٢١.

يظهر مدى عدل الإسلام وإنصافه حتى مع غير المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾.

٥- لا حرج ولا إثم في نكاح المؤمنات المهاجرات بعد انقضاء عدتهن من أزواجهن الكفار بعد إعطائهن مهورهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

٦- تحريم إمساك المؤمنين بعصم الكوافر، وتزوج الكافرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

٧- أن للأزواج من المؤمنين مطالبة الكفار بما أنفقوه على زوجاتهم اللاتي ذهبن للكفار، كما أن للأزواج الكفار مطالبة المؤمنين بما أنفقوه على زوجاتهم اللاتي آمنَّ وهاجرن؛ لقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾.

٨- أن هذه الأحكام المذكورة في الآيات من أحكام الله الشرعية التي حكم الله بها بين عباده؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

٩- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل والحكم التام النافذ والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

١٠- يجب إعطاء من فاتتهم زوجاتهم إلى الكفار من الغنيمة إذا لم يعطهم الكفار عوضًا عما أنفقوه عليهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾.

١١- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وأن ذلك من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى مفعول به منصوب، و«ها» للتنبيه.

و«النبي» هو نبينا محمد ﷺ و«ال» فيه للعهد الذهني، أي النبي المعهود المعروف.

و«النبي» مشتق من النبأ؛ لأنه مُنْبَأ، أي: مُخْبَر من الله- عز وجل-، ومُنبِئٌ، أي: مُخْبِر لقومه. ومشتق أيضًا من النبوة، وهو المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء ذوو مكانة عالية عند الله وعند المؤمنين.

وتصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء يدل على التنبيه والعناية والاهتمام. وقد خص الله- عز وجل- نبينا محمدًا ﷺ بندائه بوصف النبوة تشريفًا وتكريمًا له ﷺ وتذكيرًا له بنعمة الله- عز وجل- عليه بالنبوة والرسالة.

بينما ينادي الله- عز وجل- سائر الأنبياء بأسمائهم يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى بن مريم، ونحو ذلك.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾، «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا جاءك النساء المؤمنات بالله ورسوله، وبما جاء عن الله ورسوله.

﴿يُبَايِعْنَكَ﴾، أي: يعاهدنك على هذه الأمور المذكورة، وهذه الشروط.

والمبايعة للرسول ﷺ مبايعة لله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وذلك أن المجازي على الوفاء بهذا العهد والعقد هو الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ

فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ [الفتح: ١٨].

وإنما أضيفت المبايعة للرسول ﷺ؛ لأنه هو المباشر لأخذ البيعة منهم، وإلا فمبايعته ﷺ ومعاهدته على الدخول في الإيمان، أو على الجهاد وغير ذلك هي مبايعة ومعاهدة لله عز وجل.

عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا وحيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»(١).

كما أن دخول الإنسان في الإيمان عهد بينه وبين ربه يوجب عليه القيام بحقوقه- عز وجل- وجزاؤه على الله- عز وجل- قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١]، وقال عز وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا ﴾، أي: على أن لا يشركن بالله شيئًا من الشرك، أو شيئًا من الأشياء.

والشرك: هو اتخاذ شريك مع الله وصرف شيء من حقوق الله لغيره، وتسويته بالله كما ذكر الله عن المشركين أنهم يقولون يوم القيامة: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٩٩، ومسلم في الإمارة ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٤٩، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٦٦.

﴿نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

و«شيئا» نكرة في سياق النفي، فتعم كل شرك صغيرًا كان أو كبيرا، خفيًّا كان أو جليًّا، وتعم كل شيء أشرك به مع الله، أيًّا كان ذلك الشيء، ومهما كان صغيرًا أو كبيرًا قليلًا أو كثيرًا.

أي: يبايعنك ويعاهدنك على ألا يشركن بالله شيئًا من الأشياء، ولا شيئًا من الشرك أيًا كان ومهما كان، بل يخلصن العبادة لله وحده.

وبدأ بأخذ العهد عليهن بالبراءة من الشرك؛ لأن الشرك أعظم الذنوب، ولا يقبل معه أي عمل، ولا يغفر لمن مات مصرًا عليه.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ السرقة: أخذ الشيء خفية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨]، أي: إلا من استمع خفية، ومنه قولهم: سارقه النظر- إذا نظر إليه بخفية.

والسرقة في الشرع: أخذ مبلغ مخصوص من المال المحترم من مالكه أو نائبه، خفية من حرز معلوم، من غير حق ولا شبهة.

ولهذا فإن للزوجة أن تأخذ من مال زوجها إن كان مقصرًا في نفقتها قدر كفايتها؛ لأن لها حقًا في مال زوجها. وفي حديث هند بنت عتبة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل عليّ من جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف»[1].

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾، أي: ولا يطأهن غير أزواجهن؛ لأن الله عز وجل حرم على المؤمنين

(١) أخرجه البخاري في الأحكام- القضاء على الغائب ٧١٨٠، ومسلم في الأقضية- قضية هند ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

الزنا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع النبي ﷺ فأخذ عليها ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية. قالت: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقري أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا: قالت: فنعم إذًا، فبايعها بالآية»(١).

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾، أي: ولا يقتلن أولادهن من بنين وبنات سواء بعد ولادتهم خشية الفقر أو العار أو غير ذلك- كما كان يفعله أهل الجاهلية قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١].

أو بقتلهم وهم أجنة في بطونهن بأن تلقي الواحدة منهن نفسها من مكان مرتفع أو تتعمد حمل شيء يقتل ونحو ذلك؛ لأجل إسقاط حملها، أو بإجراء عملية لإجهاض حملها سواء كان ذلك مخافة الفقر أو العار، أو لإراحة نفسها منه، أو لغير ذلك من الأغراض الفاسدة المحرمة. فهذا كله من قتل النفس المعصومة التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وهو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾ البهتان في الأصل: الكذب، وسمي الكذب بهتانًا؛ لأنه يبهت ويحير من رُمي به، كما أنه يبهت الكذاب نفسه في النهاية.

﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾، أي: يختلقنه كذبا.

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ١٥١.

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾، أي: يحملنه بين أيديهن في بطونهن، ويلدنه بين أرجلهن مع فروجهن. والبطن والفرج كل منهما بين اليدين والرجلين.

والمراد: ولا يأتين بحمل يلدنه وينسبنه كذبًا إلى أزواجهن.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء، ولا يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه، وفضحه الله على رؤوس الأولين والآخرين يوم القيامة»(١).

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، أي: ولا يعصينك في فعل معروف تأمرهن به. والمعروف: ما أمر به الشرع وتعارف الناس على حسنه، ومن ذلك ترك النياحة على الميت- كما سيأتي في الحديث في مبايعته ﷺ. وكما قال ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»(٢).

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾، أي: فعاهدهن على الإسلام، وما أعده الله لمن أسلم منهن من الحياة السعيدة، والجزاء الحسن في الجنة. كما قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»(٣).

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾، أي: اطلب لهن المغفرة من الله لما قد يحصل منهن من سهو وخطأ وتقصير- مما لا يسلم منه البشر غالبًا.

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق- إذا شك في الولد ٢٢٦٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٨١.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز- ليس منا من ضرب الخدود ١٢٩٧، ومسلم في الإيمان- تحريم ضرب الخدود ١٠٣، والنسائي في الجنائز ١٨٦٠، والترمذي في الجنائز ٩٩٩، وابن ماجه في الجنائز ١٥٨٤- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٢- من حديث عبد الله بن عمر- رضي الله عنه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: إن الله عز وجل ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة لمن شاء من عباده، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

وهكذا بايع رسول الله ﷺ المؤمنات، كما أمره الله عز وجل.

عن عروة بن الزبير أن عائشة- رضي الله عنها- أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال عروة: قالت عائشة: فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك»، كلامًا، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك»(١).

وعن أميمة بنت رقيقة، قالت: «أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية، وقال: «فيما استطعتن وأطقتن» قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة» ولم يصافح منا امرأة»(٢).

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام، فقال: «أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئًا، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الممتحنة ٤٨٩١، ومسلم في الإمارة ١٨٦٦، والترمذي في تفسير سورة الممتحنة ٣٣٠٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في السير- ما جاء في بيعة النساء ١٥٩٧، وابن ماجه في الجهاد- بيعة النساء ٢٨٧٤، وأحمد ٦/ ٣٥٦. وقال الترمذي «حديث حسن صحيح» وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٢٢ عن إسناد أحمد «هذا إسناد صحيح».

تنوحي، ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولى»(١).

وفي رواية عن أميمة أنها دخلت على رسول الله ﷺ في نسوة، فقلن: «يا رسول الله ابسط يدك نصافحك. فقال: «إني لا أصافح النساء، ولكن سآخذ عليكن» فأخذ علينا حتى بلغ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾: «فيما أطقتن واستطعتن» فقلن: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا»(٢).

وعن سلمى بنت قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلت معه القبلتين، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار، قالت: «جئت رسول الله ﷺ فبايعته في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف- قال: «ولا تغشُشن أزواجكن». قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي فسلي رسول الله ﷺ ما غش أزواجنا؟ فسألته، فقال: «تأخذ ماله، فتحابي به غيره»(٣).

وعن عائشة بنت قدامة بن مظعون، قالت: «أنا مع أمي رائطة بنت سفيان الخزاعية، والنبي ﷺ يبايع النسوة، ويقول: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئًا، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصينني في معروف» قالت: فأطرقن، فقال لهن النبي ﷺ: «قلن نعم فيما استطعتن» فكن يقلن وأقول معهن، وأمي تلقنني قولي أيْ بنية: نعم، فيما استطعت، فكنت أقول كما يقلن»(٤).

وعن أم عطية قالت: «بايعنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٩٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٨- ٥٩٩.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٣٧٩- ٣٨٠، ٦/ ٤٢٢- ٤٢٣، وانظر «أسد الغابة» ٧/ ١٤٩ ترجمة سلمى بنت قيس.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ٣٦٥، وانظر «أسد الغابة» ٧/ ١٩٤ ترجمة عائشة بنت قدامة.

ونهانا عن النياحة فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامرأتان- أو ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى»(١).

وكان ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد(٢)، تأكيدًا لذلك.

فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بين يديه، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال، فقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «أنتن على ذلك؟» فقالت امرأة واحدة، لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله- قال: «فتصدقن» قال: فبسط بلال ثوبه، فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال»(٣).

وعن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم»- وقرأ الآية التي أخذت على النساء: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الممتحنة ٤٨٩٢، ومسلم في الجنائز- التشديد في النياحة ٩٣٦، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٧، والنسائي في البيعة ٤١٧٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٨- ٦٠١.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٧٩، ومسلم في العيدين ٨٨٥، وأبو داود في الصلاة ١١٤١، والنسائي في صلاة العيدين ١٥٧٥.

(٤) أخرجه البخاري في الأحكام ٧٢١٣، ومسلم في الحدود- الحدود كفارات لأهلها ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٦١، والترمذي في الحدود ١٤٣٩.

وفي رواية لابن إسحاق عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلًا، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. وقال «فإن وفيتم فلكم الجنة»[1].

قال القرطبي[2]: «قال المهدوي: أجمع المسلمون على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا، والأمر بذلك ندب لا إلزام. وقال بعض أهل النظر: إذا احتيج إلى المحنة من أجل تباعد الدار كان على إمام المسلمين إقامة المحنة».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداؤه ﷺ بوصف النبوة تشريفًا وتكريمًا له، وتذكيرًا له بنعمة الله- عز وجل- عليه بالنبوة وإشارة لفضله ﷺ على سائر الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

٣- مشروعية مبايعة النساء المؤمنات على الشروط المذكورة في الآية؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ﴾.

٤- أمر الله- عز وجل- لنبيه ﷺ بالاستغفار للمؤمنات بعد مبايعتهن لما قد يحصل منهن من تقصير، وترغيبًا لهن وتثبيتًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥١- الأثر ١٨٨٧١.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٧٦.

٥- في الشروط المذكورة في مبايعة المؤمنات في هذه الآية دلالة على شمول البيعة لفعل كل ما أمر الله به واجتناب كل ما نهى الله عنه، لأن الله أخذ عليهن فيها الإيمان بالله وحده لا شريك له، واجتناب السرقة والزنا وقتل أولادهن، وألا يأتين بولد من الزنا ينسبنه كذبا لأزواجهن، وألا يعصين الرسول ﷺ فيما يأمرهن به من معروف وهذا شامل لكل ما جاء به الدين.

٦- أن الشرك أعظم الذنوب؛ لهذا جعل البعد عنه أول الشروط في البيعة، وأن الزنا والسرقة وقتل الولد والإتيان بولد من الزنا ونسبته للزوج- هذه من أكبر الكبائر لهذا خصها بالذكر.

٧- أن الطاعة بالمعروف؛ لقوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

٨- إثبات صفة المغفرة التامة لله عز وجل، والرحمة الواسعة له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٩- في تقديم الله تعالى المغفرة على الرحمة، دلالة على أن التخلية قبل التحلية، وأن تمام النعمة إنما يحصل بزوال المرهوب، وحصول المرغوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

ختم الله- عز وجل- هذه السورة بما بدأها به وهو نهي المؤمنين عن موالاة الكافرين؛ تأكيدًا لذلك، وتحريضًا للمؤمنين على عداوة الكافرين.

قوله: ﴿لَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾، أي: لا تتخذوهم أولياء توادونهم وتناصرونهم وتركنون إليهم.

﴿قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني: اليهود، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾. قال رسول الله ﷺ: «المغضوب عليهم اليهود»[(١)].

والغضب- وإن كان من أخص أوصاف اليهود الذين عرفوا الحق وتركوه، لكن كل من كفر وجحد شريعة الله فله نصيب من غضب الله عز وجل بقدر منزلته وهكذا كل عاص لله- عز وجل- له نصيب من ذلك بقدر معصيته.

﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، «قد» للتحقيق، أي: قد تحقق يأسهم من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله- عز وجل- فلاحظ لهم فيها ولا نصيب.

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ الكاف: للتشبيه، و«ما» مصدرية، أو موصولة، والتقدير يأسًا كيأس الكفار، أي مثل يأس الكفار، أو كاليأس الذي يئسه الكفار.

أي: كما يئس الكفار الذين ماتوا على الكفر، ودفنوا في القبور من ثواب الآخرة، ومن كل خير، بعدما عاينوا في القبور أعمالهم السيئة ومصيرهم السيء، إذ ليس بعد الموت من

---

(١) كما في حديث عدي بن حاتم- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ «المغضوب عليهم» اليهود، و«الضالين» النصارى». أخرجه الترمذي في تفسير سورة الفاتحة ٢٩٥٣، ٢٩٥٤، وأحمد ٤/ ٣٧٨- ٣٧٩. وإسناده صحيح.

مستعتب، وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة للأبرار، والنار للكفار، وبئس القرار.

ويحتمل أن المعنى: كما يئس الكفار الأحياء من بعث أصحاب القبور؛ لأنهم ينكرون البعث بعد الموت.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين. وفي ذلك إيذان بكفرهم وشدة يأسهم من الآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام ونداؤهم بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وترك المنهي عنه بعده؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- نهي المؤمنين عن موالاة المغضوب عليهم وهم اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾.

٣- تأكيد حرمة موالاة غير المؤمنين، فقد بدئت السورة بالنهي عن موالاة المشركين، وختمت بالنهي عن موالاة اليهود المغضوب عليهم.

٤- غضب الله- عز وجل- على اليهود؛ لتركهم الحق بعد معرفته؛ لقوله تعالى: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

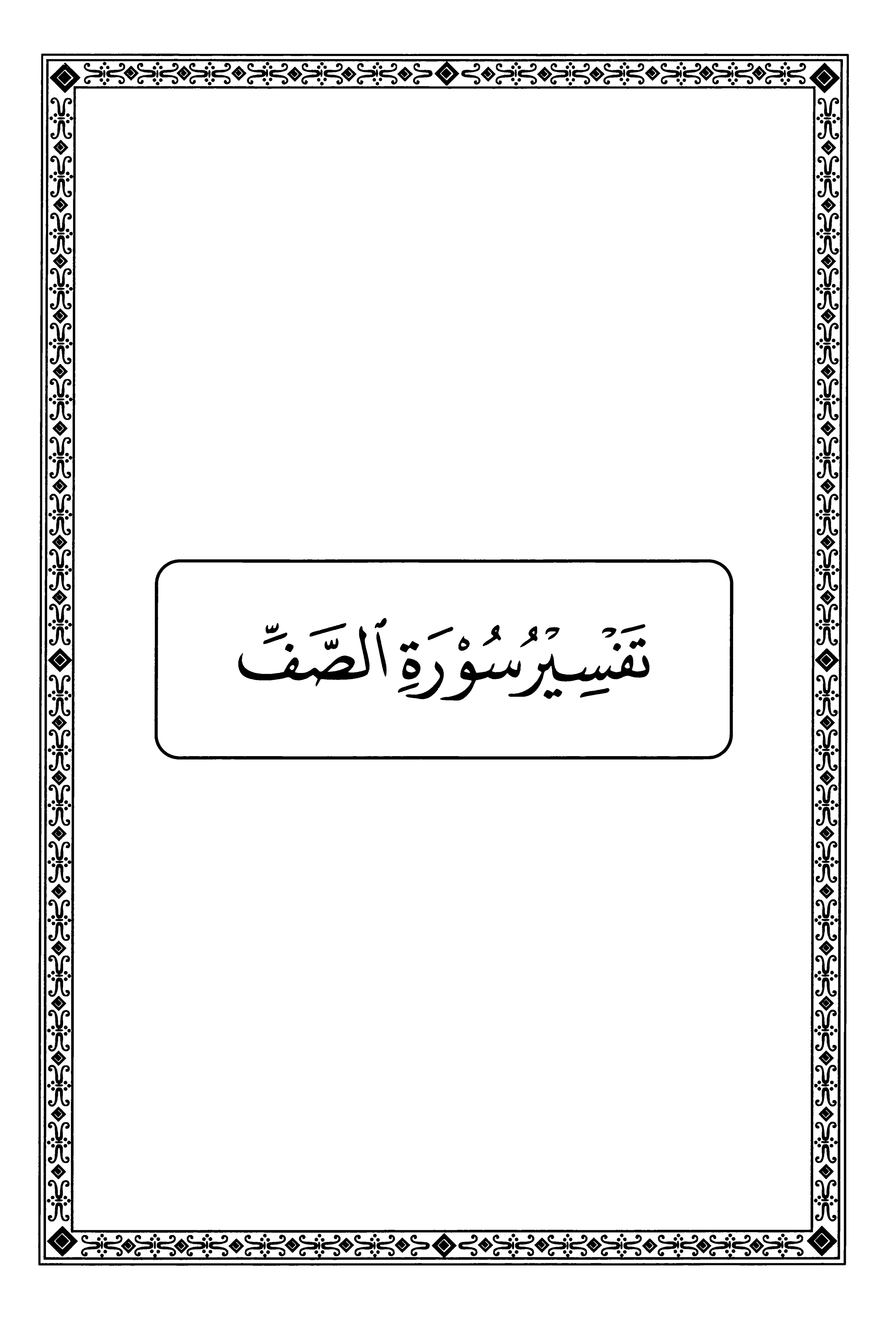
٥- شدة يأس اليهود من ثواب الآخرة فلاحظ لهم فيها ولا نصيب؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾.

٦- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء، والثواب والعقاب.

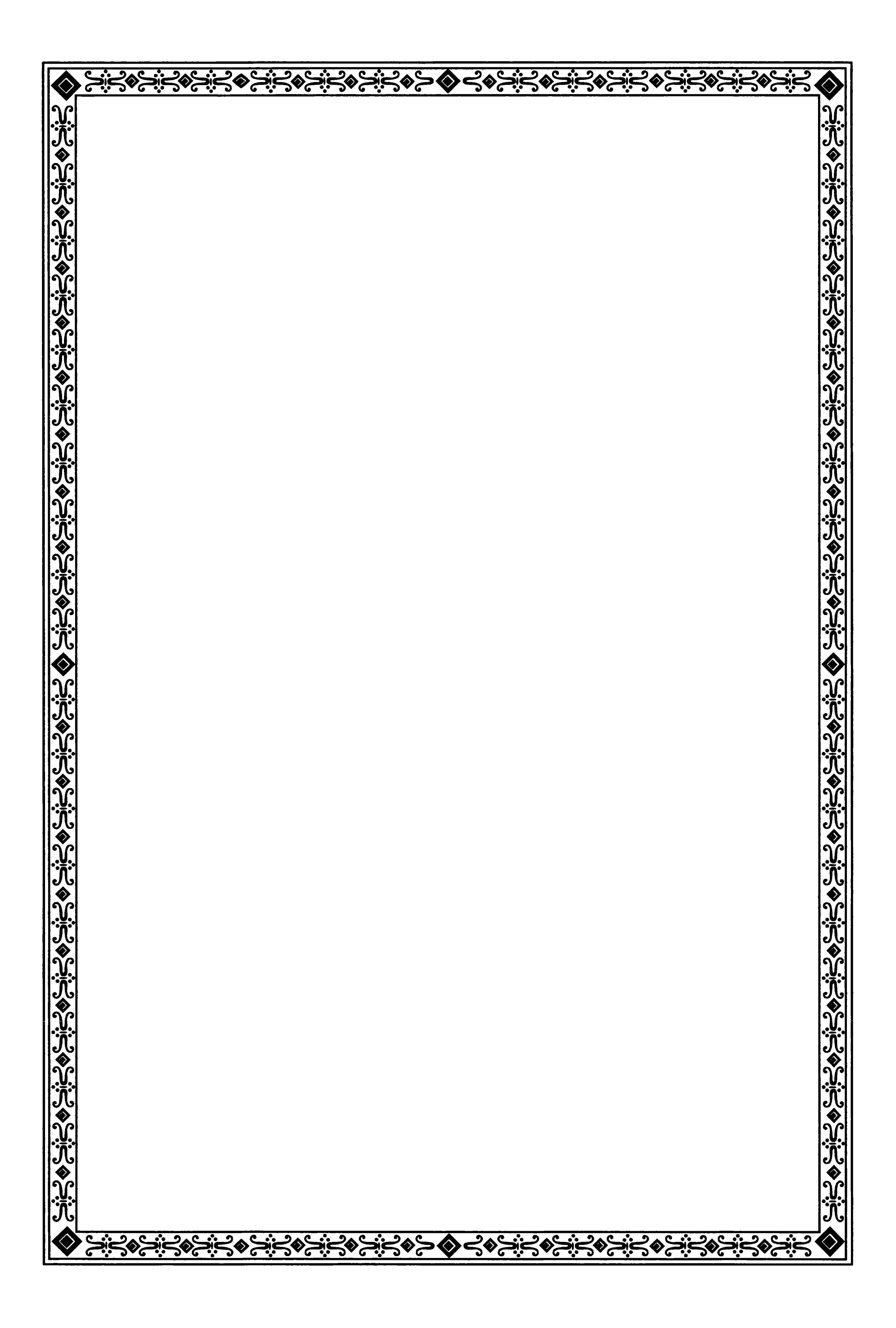
٧- يأس الكفار الذين ماتوا على الكفر ودفنوا في القبور، من ثواب الآخرة، بعدما عاينوا في القبور مصيرهم السيئ.

٨- ياس الكفار الأحياء، من أصحاب القبور؛ لأنهم ينكرون البعث بعد الموت ويكذبون به.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلصَّفِّ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الصف»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾﴾.

وتسمى: «سورة الحواريين»، و«سورة عيسى».

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى عما لا يليق به والثناء عليه، ونهي المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون، وبيان مقت الله تعالى لذلك، وبغضه له، والترغيب في القتال في سبيل الله.

٢- التذكير بموسى عليه السلام، وإنكاره على قومه أذيتهم له، وإزاغة قلوبهم، وإضلالهم بسبب زيغهم عن الحق وفسقهم.

٣- التذكير بعيسى عليه السلام وتصديقه لما بين يديه من التوراة، وبشارته بالنبي ﷺ، وتكذيب بني إسرائيل لما جاءهم به من البينات.

٤- التحذير من افتراء الكذب على الله، وأنه لا أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعي إلى الإسلام: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

٥- سعي المكذبين والكفار لإطفاء نور الله، وأنى لهم ذلك، وامتنانه عز وجل بإرساله رسول بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على جميع الأديان ولذكره المشركون ذلك.

٦- الترغيب والإغراء بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ

ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

٧- الحث على نصرة دين الله، كما قال عيسى عليه السلام للحواريين: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾ الآية؛ فنصرهم الله وأيدهم.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾.

سبب النـزول:

عن عبد الله بن سلام، قال: «قعدنا نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أيّ الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملنا به، فأنزل الله عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا﴾، قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها»(١).

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الحديد وسورة الحشر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد، يقولون: لوددنا أن الله- عز وجل- دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥٢، والترمذي في تفسير سورة الصف ٣٣٠٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٣، والحاكم ٢/ ٦٩، ٢٢٩، ٤٨٧، وقال: «صحيح على شرط الشيخين».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٠٦- ٦٠٧.

﴿لِمَ﴾، اللام حرف جر، و«ما» استفهامية حذفت ألفها للتخفيف، أي: لماذا ﴿تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ و«ما» موصولة، أو نكرة موصوفة بمعنى شيء، أي: لم تقولون الذي لا تفعلونه، أو لم تقولون شيئًا لا تفعلونه.

وهذا إنكار من الله عز وجل على من يقول من المؤمنين قولًا لا يتبعه بالفعل، أو يعد وعدًا ولا يفي به.

قال القرطبي(١): «قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله، أما في الماضي فيكون كذبًا، وأما في المستقبل فيكون خلفًا وكلاهما مذموم».

وفي قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ تعريض بأن العافية لا يعد لها شيء، وأن السلامة غنيمة وأن الأولى أن لا يسأل الإنسان أو يتمنى أمرًا قد لا يفي بفعله، أو يلزم نفسه بما لم يلزمه الله به كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ هذا تأكيد للإنكار عليهم و«كبر» بمعنى «عظم»، و«مقتًا» منصوب على التمييز والتفسير، كقول القائل: كبر قولًا هذا القول، ومعنى ﴿مَقْتًا﴾، أي: بغضًا.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكم الله.

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٨٠.

﴿أَن تَقُولُواْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «كبر».

﴿مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: كبر مقتا عند الله قولكم الذي لا تفعلونه.

والمعنى: عظم بغضًا في حكم الله قولكم قولًا لا تفعلونه ولا تفون به.

والمقت: البغض الشديد، ولهذا قال عز وجل عن نكاح زوجات الآباء ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا، وأنا صبي، قال: فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله تعال أعطك. فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: تمرًا. فقال: «أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة»(١).

ويكفي في شناعة القول بلا فعل، والوعد بلا وفاء أنه مبغض عند الله، ومن أخص صفات المنافقين، كما قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنه-: أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٣).

فالقول بلا فعل، والوعد بلا وفاء أمر محرم لا يجوز، وليس من صفات المؤمنين بل من

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في الكذب ٤٩٩١، وأحمد ٣/ ٤٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٣، ومسلم في الإيمان ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان- علامة المنافق ٣٤، ومسلم في الإيمان- بيان خصال المنافق ٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦٨٨، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٣٢.

صفات المنافقين إذ الواجب الوفاء بالعهد والوعد، وإتباع القول بالفعل، وأن لا يقول الإنسان ما لا يفعل، فإن الله عز وجل أنكر على المؤمنين القول بلا فعل أشد الإنكار.

قال القرطبي(١): «وهذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملًا فيه طاعة أن يفي بها».

وفي حديث أبي موسى- رضي الله عنه-: «وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيتها، غير أني حفظت منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة»(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾.

هذا ظاهر العلاقة في سبب النزول حيث سألوا عن أحب الأعمال إلى الله، فهو أشبه بالجواب على سؤالهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾، أي: الذين يقاتلون لإعلاء كلمة الله عز وجل. كما في حديث أبي موسى- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(٣).

﴿صَفّٗا﴾، أي: مصطفين في مواجهة العدو.

﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾، أي: كأنهم في اصطفافهم للقتال تجاه العدو ﴿بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾، أي: مثبت ملتصق بعضه ببعض، أي: ليس بينهم في صفوفهم ثغرات أو منافذ يدخل منها العدو، وقلوبهم مجتمعة على الحق ليس بينهم اختلاف.

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٧٨.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ١٢٣، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣.

ويؤخذ من هذا فضل الجهاد والمجاهدين، وأن الجهاد من أحب الأعمال إلى الله عز وجل، وأن من أحب عباده إليه الذين يقاتلون في سبيله راصين صفوفهم كالبنيان المرصوص. قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»(١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا اصطفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»(٣).

وعنه- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو ضامن علي أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة»(٤).

الفوائد والأحكام:

١- تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض لله- عز وجل- بلسان المقال أو الحال

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٥١٩، ومسلم الإيمان ٨٣، والنسائي في مناسك الحج ٢٦٢٤، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥٨.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٨٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٢٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان ٦، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦، والنسائي في الجهاد ٣١٢٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٦، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦.

أو بهما جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٢- إثبـات اسمين من أسماء الله- عز وجل-، وهما «العزيز» و«الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع، وله الحكم التام النافذ بأقسامه: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٣- في اقتران هذين الاسمين: «العزيز» و«الحكيم» في حقه عز وجل، كمال إلى كمال.

٤- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء لتنبيههم لأهمية الخطاب ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم وحثا على الاتصاف بهذا الوصف والانتهاء عما نُهي عنه بعد هذا النداء؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٥- الإنكار والتوبيخ لمن يقول من المؤمنين قولًا لا يتبعه بالفعل وتأكيد حرمة ذلك وشدة بغض الله له؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

٦- وجوب إتباع القول بالعمل، والحذر من صفات المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون.

٦- محبة الله- عز وجل- للمجاهدين في سبيله، متراصة صفوفهم كالبنيان المرصوص، مجتمعة قلوبهم على الحق. وفي هذا إثبات المحبة لله- عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، وتحريض المؤمنين وحثهم على القتال في سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

عاتب الله عز وجل المؤمنين، وأنكر عليهم أن يقولوا ما لا يفعلون، ثم أتبع ذلك بذكر شيء مما جرى لموسى وعيسى عليهما السلام من قومهما من الأذى والمخالفة، تسلية للرسول ﷺ تجاه تكذيب قومه وأذاهم له، وترغيبًا له بالصبر.

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: لما قسم النبي ﷺ قسمة حنين قال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فتغير وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى لقد أوذي أكثر من هذا فصبر»[1].

كما أن في ذلك تحذيرًا للمكذبين من قومه ﷺ والسعيد من وعظ بغيره.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف زمان بمعنى «حين»، أي: واذكر حين قال نبي الله وكليمه موسى بن عمران- عليه السلام- لقومه بني إسرائيل.

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ صدر الخطاب لهم بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام. والقوم هم الجماعة من الناس. ﴿لِمَ﴾ اللام حرف جر، و«ما» للاستفهام حذفت ألفها للتخفيف، أي: لماذا ﴿تُؤْذُونَنِى﴾.

والأذى: ما يتأذى به الإنسان من قول أو فعل. ومن ذلك قولهم عنه عليه السلام بأنه آدر، أي: منتفخ الخصيتين[2]؛ ولهذا قال تعالى محذرًا المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٣٥، ومسلم في الزكاة ١٠٦٢.

(٢) كما جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٤، ومسلم في الفضائل ٣٣٩، والترمذي في التفسير ٣٢٢١، وأحمد ٢/ ٥١٤- ٥١٥.

تَكُونُواْ كَالَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

ومن أذاهم له عليه السلام الصد عن دينه والمخالفة له ولدعوته؛ ولهذا قال:

﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الواو: حالية، و«قد» للتحقيق، أي: والحال أنكم قد تعلمون أني رسول الله إليكم علمًا يقينيًا، حقًا وصدقًا.

أي: تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الآيات الشرعية والكونية من عند الله- عز وجل- الدالة على صدق رسالتي إليكم. ولهذا استحق اليهود غضب الله؛ لأنهم عرفوا الحق وتركوه.

والرسول: هو من أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه.

وفي إضافة «رسول» إلى الله- عز وجل- تعظيم لشأن الرسول «موسى عليه السلام» فإن الرسول يعظم بعظم المرسِل له.

وفي قوله: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ تذكير لقومه بني إسرائيل بعناية الله بهدايتهم، والتشديد في إقامة الحجة عليهم.

وفي قوله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ نوع من التلطف معهم، واستعطاف قلوبهم، ولكن ذلك لم ينجع فيهم؛ لقساوة قلوبهم.

﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾، أي: فلما عدلوا ومالوا عن اتباع الحق. والزيغ: الميل والعدول عن الحق مع معرفته والعلم به.

﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، أي: أمالها وصدها عن الحق والهدى، وجعلها محلا للشك والشرك والنفاق والحيرة والخذلان، ترى المنكر معروفًا والمعروف منكرًا.

وذلك أن الجزاء من جنس العمل، والسيئة تجر للسيئة بعدها كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]،

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨- ١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فالسيئات والمعاصي يجر بعضها بعضًا، وبعضها إلى بعض أسرع من السيل إلى منحدره، مما يوجب البعد عنها والحذر منها.

وخص القلوب بالزيغ؛ لأنها محل الصلاح والفساد من الجسد كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(١).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ هداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد، وهذه عامة للفاسقين وغيرهم؛ لأن الله أرشد إلى الحق، ودل عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبما وهب البشر من الأفئدة والأبصار والأسماع التي بها تقوم عليهم الحجة.

والقسم الثاني: هداية التوفيق والقبول، وهذه خاصة بالله عز وجل وهي المنفية عن الفاسقين في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

و«الفاسقين» جمع فاسق، والفسق: هو الخروج عن طاعة الله، وعن الصلاح إلى الفساد. ولهذا تسمى الفواسق الخمس بالفواسق؛ لأنها تخرج وتسعى للإفساد.

فجمع الله- عز وجل- لمن آذوا رسوله موسى عليه السلام وزاغوا عن الحق عقوبتين الأولى: إزاغة وإمالة قلوبهم عن الحق، والثانية: عدم هدايتهم له.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وهاتان العقوبتان لكل من زاغ ومال عن الحق من أمة محمد ﷺ من باب أولى- لوضوح الحق الذي جاء به ﷺ وفضل دينه على سائر الأديان، وفضله ﷺ على سائر الرسل عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ذكر الله- عز وجل- ما جرى لموسى- عليه السلام- مع قومه، ثم أتبع ذلك بذكر ما جرى لعيسى- عليه السلام- مع قومه.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، أي: واذكر حين قال عيسى بن مريم عليه السلام لقومه ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ وعيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل.

ويذكر عيسى بن مريم- غالبًا- في القرآن الكريم منسوبًا لأمه، بينما يذكر بقية الأنبياء بلا نسبة ولا لآبائهم، وذلك للتذكير بعظيم قدرة الله- تعالى- في خلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وذلك آية من آيات الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وهو معدود في القرآن من ذرية إبراهيم عليه السلام وإن كان ابن بنته؛ لأنه لا أب له، وذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآيات: ٨٣- ٨٥].

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ صدر الخطاب لهم بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

و«بنو إسرائيل» هم بنو يعقوب عليه السلام وذريته، وإسرائيل: هو يعقوب عليه السلام.

﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾ إخبار وإعلام من عيسى- عليه السلام- لبني إسرائيل أنه مرسل من عند الله إليهم.

وفي قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ بإضافة «رسول» إلى الله- عز وجل- تعظيم لشأن عيسى عليه السلام. وفي قوله: ﴿إِلَيۡكُم﴾ توكيد لعناية الله بهدايتهم والتشديد في إقامة الحجة عليهم.

﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾، «مصدقًا» حال، أي: حال كوني ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾، أي: لما سبقني من التوراة، التي بشّرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت به.

فرسالة عيسى عليه السلام تصديق لما جاء في التوراة من البشارة به، وتصديق لها بأنها حق، وهو وكتابه الإنجيل متمم للتوراة ولرسالة موسى عليهما السلام.

وهكذا جميع الكتب السماوية يصدق بعضها بعضا ويشهد بعضها لبعض.

﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وحال كوني «مبشرًا برسولٍ»، ونكر «رسول» للتعظيم.

والمبشِّر: المخبر بما يَسُر، والبشارة: الخبر السار. سميت بذلك أخذًا من البشرة، لأن الإنسان إذا أخبر بما يسر استنارت بشرته، وظهر ذلك على أسارير وجهه.

﴿يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ وهو نبينا محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتم الأنبياء، اسمه أحمد ومحمد قال ﷺ: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»(١).

وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، منها ما حفظنا، فقال: «أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر، ونبي التوبة، ونبي

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٣٢، ومسلم في الفضائل- باب في أسمائه ﷺ ٢٣٥٤، والترمذي في الأدب ٢٨٤٠، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

الرحمة»[١]. وفي رواية: «ونبي الملحمة»[٢].

و«أحمد» و«محمد» كل منهما مأخوذ من الحمد، ولم يسم بـ«أحمد» أحد قبله ﷺ، بخلاف «محمد» فقد سمي به قبله.

ويؤخذ من قوله: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ بشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ، والشهادة له بالرسالة وأن عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل وبعده محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتمهم.

عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»[٣].

وعن العرباض بن سارية- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»[٤].

وعن أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: قلت: يا نبي الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور، أضاءت له قصور الشام»[٥].

والمراد بدعوة إبراهيم حين قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٥٥، وأحمد ٤/ ٣٩٥. وأخرجه أحمد أيضًا ٥/ ٤٠٥ من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجها أحمد ٤/ ٤٠٤- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن إسحاق، انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ١٦٦- قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٣٦: «هذا إسناد جيد».

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٣.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٢.

وهكذا شهد النجاشي برسالته ﷺ كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قصة هجرتهم إلى الحبشة حيث قال النجاشي: «أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وإنه الرسول الذي بشّر به عيسى بن مريم..»(١).

وكما بشر عيسى عليه السلام في الإنجيل بمحمد ﷺ فقد بشر به موسى عليه السلام في التوراة، وأخذ الله العهد على النبيين بالإيمان به قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس- رضي الله عنهما- «ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته: لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه»(٢).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾، أي: فلما جاءهم الرسول المبشَّر به محمد ﷺ، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآيات البينات والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات من الأدلة الكونية والشرعية.

﴿قَالُوا۟﴾، أي: قال الكافرون من قومه من المشركين ومن أهل الكتاب:

﴿هَٰذَا﴾، أي: ما جاء به من الوحي ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: سحر بين ظاهر في نفسه أنه سحر، ومبين أمر الذي جاء به أنه ساحر.

والسحر: عقد تعقد وينفث فيها، تؤثر في العقول والأبدان والأبصار بإذن الله الكوني- كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٤٦١.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٣٦.

وهكذا دأب المكذبين للحق، ولدعاته من الرسل وأتباعهم عندما تعيى بهم الحيل أمام الحق الواضح الصريح، ولا يستطيعون له دفعًا فإنهم يلجؤون إلى مثل هذه التهم الباطلة من الرمي بالسحر ونحو ذلك.

فلينتبه لهذا الدعاة والمصلحون والموجهون، وليأخذوا منه العظة والعبرة فإن طريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، بل هو طريق شاق يحتاج إلى تحمل وصبر ومرابطة قال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»(١).

ولقد أحسن القائل:

ودرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود(٢)

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه وترغيبه في الصبر على أذى قومه بذكر ما حصل لموسى وعيسى عليهما السلام من قومهما من الأذى والتكذيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ الآية.

٢- تحذير المكذبين له ﷺ من سلوك طريق اليهود والنصارى في تكذيبهم لأنبيائهم وأذيتهم لهم.

٣- أن اليهود عرفوا الحق وتركوه، ولهذا استحقوا غضب الله عليهم؛ لتمام قيام الحجة عليهم؛ لهذا أنكر عليهم موسى عليه السلام بقوله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

٤- تلطف موسى عليه السلام مع قومه في الخطاب ولكن ذلك لم ينجع فيهم

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩- من حديث أنس- رضي الله عنه.

(٢) هذا البيت لوليد الأعظمي. انظر: «ديوانه: الزوابع» ص٦٩.

لقساوة قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

٥- إثبات رسالة موسى عليه السلام وتشريفه وجميع الرسل بإضافتهم إلى الله-عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

٦- أن المعصية والسيئة تجر إلى ما هو أعظم وأكبر منها، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

٧- عدم توفيق الله للفاسقين الخارجين عن طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

٨- التحذير من الزيغ والفسق؛ لأن ذلك سبب لزيغ القلوب والضلال.

٩- إثبات رسالة عيسى عليه السلام وأنه جاء مكملًا، ومصدقًا لرسالة موسى عليه السلام وللتوراة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

١٠- بشارة عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ببعثة محمد ﷺ ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي﴾.

١٠- أن من أسمائه ﷺ «أحمد»؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

١١- تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ، ولما جاءهم به من الآيات البينات الشرعية والكونية، ووصفهم لما جاءهم به بأنه سحر مبين. وهكذا دأب المكذبين للحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الواو: استئنافية. و«أظلم» على وزن «أفعل» التفضيل، أي: لا أحد أشد ظلمًا.

﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، «من» موصولة، أي: من الذي اختلق على الله الكذب فجعل له الأنداد والشركاء، والصاحبة والولد، وكذب رسله، ورماهم بالسحر، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

قال الطبري(١): «ومن أشد ظلمًا وعُدوانًا ممن اختلق على الله الكذب، وهو قول قائلهم للنبي ﷺ: هو ساحر وما جاء به سحر»

و«أفعل» التفضيل هنا على بابه؛ لأن أظلم الظلم وأشده الشرك بالله عز وجل؛ لأن حقه عز وجل أوضح الحقوق وأبينها وأعظمها فمن صرفه لغير الله أو أشرك معه غيره فليس هناك من هو أظلم منه، ولهذا قال لقمان فيما حكى الله عنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والظلم: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئا.

وهو أيضًا: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وهو قسمان: ظلم للنفس بالكفر والمعاصي، وظلم للغير بالتعدي عليهم، وهو

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٤.

داخل في ظلم النفس.

﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ الواو: للحال، أي: في الحال التي يدعى فيها ﴿إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾، أي: إلى الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، أي: وقد أقيمت عليه الحجة بدعوته إلى الإسلام بالآيات البينات والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات فلا حجة له ولا عذر.

يُدعى إلى أصل الخير ورأسه وأعظمه الإيمان، فيختار أصل الشر ورأسه وأعظمه الشرك، أمره عجيب وحاله مريب ومنقلبه كئيب.

إذ الواجب البحث عن الحق وطريقه، لو لم يدع إليه، فكيف يتركه وقد دعي إليه، ويختار طريق الباطل هذا في غاية الظلم والسفه والجهل.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكلام فيه كما سبق في الكلام على قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: إن الله عز وجل لا يوفق القوم الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، وظلموا غيرهم بالاعتداء على حقوقهم.

وهذا مجازاة لهم حجب الله هدايته عن قلوبهم بسبب ظلمهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

﴿يُرِيدُونَ﴾ أي يقصدون ويحاولون بظلمهم.

﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ اللام للتعليل وهي بمعنى «أن»، كما في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الآية: ٣٢].

أي: يريدون ليطفئوا ويخمدوا ﴿نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

ونور الله: هو نور وحيه، ونور القرآن، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ

عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

ومنه النور الذي يلقيه في قلوب عباده المؤمنين، كما قال عز وجل في سورة النور ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ إلى قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، أي: بافترائهم الكذب على الله والباطل بقولهم بأفواههم، بجعل الأنداد والشركاء له والصاحبة والولد، وردهم الحق، وقولهم لما جاءهم به الرسول ﷺ من الحق ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وغير ذلك.

وإنما خص الأفواه بالذكر- مع أنهم لم ولن يدخروا وسيلة لرد الحق بقول أو بفعل إلا عملوها- إشارة لضعفهم ووهنهم، فهم في هذا أشد ضعفًا ووهنًا ممن يريدون إطفاء نور الشمس بالنفخ بأفواههم.

قال ابن كثير(١): «أي: يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذاك ذاك مستحيل».

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿مُتِمُّ﴾ بغير تنوين و﴿نُورِهِۦ﴾ بالخفض، وقرأ الباقون بالتنوين والنصب: «مُتِمٌّ نُورَهُ».

أي: والله مكمل نوره ومظهره على الأديان كلها كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: ولو كره الكافرون إتمام نوره وإكماله.

والكافرون: جمع كافر، وهو من جحد وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته، وشريعته، أو شيئًا من ذلك، واستكبر عن الانقياد لشرعه، أو أعرض عنه، أو شك فيه.

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٣٨.

قال الطبري[(١)]: «والله معلنٌ الحق، ومظهر دينه، وناصر محمدًا ﷺ على من عاداه، فذلك إتمام نوره وعني بالنور في هذا الموضع الإسلام».

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ هذا كقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الآية: ٣٣]. وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الآية: ٢٨].

أي: هو الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، أي: بعث رسوله محمدًا ﷺ أفضل الرسل وخاتمهم، ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾، أي: بالوحي والعلم النافع، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: والدين الحق، وهو العمل الصالح.

وهما رأس مال الإنسان في هذه الحياة: علم نافع، وعمل صالح- نسأل الله التوفيق، ولهذا قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قل اللهم إني أسألك الهدى والسداد»[(٢)].

فالهدى: العلم النافع، والسداد: العمل الصالح.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يجعله ظاهرًا عاليا.

﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، «الدين» اسم جنس، أي ليجعله ظاهرًا عاليًا على الأديان كلها السماوية والأرضية مهيمنًا عليها ناسخًا لها.

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٤.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٥، وأبو داود في الخاتم ٤٢٢٥، والنسائي في الزينة ٥٢١٠- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، أي: ولو كره المشركون ذلك، أي: ولو كره المشركون ظهور الإسلام على الأديان كلها من الشرك وغيره.

فهذا الدين هو الظاهر على الأديان كلها، وأتباعه هم الظاهرون على غيرهم الغالبون لمن سواهم ما إن تمسكوا به، فإن تخلوا عنه واكتفوا بالانتساب إليه فقط، فلا غلبة لهم ولا ظهور، وواقع المسلمين اليوم أكبر شاهد على هذا.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ أن ذلك سيكون تامًا. قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة، فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»[(١)].

الفوائد والأحكام:

١- لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام، فأشرك مع الله غيره وكذب رسله ورماهم وما جاؤوا به من الحق بالسحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾.

٢- عدم توفيق الله للظالمين بسبب ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم بالشرك والمعاصي- بعد إقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣- إرادة المكذبين الظالمين إطفاء نور الله «نور الحق» بافترائهم الكذب بأفواههم وأقوالهم الباطلة وأنى لهم ذلك، وتكفله عز وجل بإتمام نوره ولو كره الكافرون ذلك، ورغم أنوفهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٠٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/٦١٦، والحاكم ٤/٤٤٦، ٤٤٩.

٤- الإشارة لعظمة الحق وظهوره وثباته، وأن مثل من يريد إطفاء نوره وإبطاله كمن يحاول عبثًا إطفاء نور الشمس.

٥- الامتنان على العباد بإرساله- عز وجل- محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح وإظهاره على جميع الأديان، ولو كره المشركون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

جاء في سبب نزول هذه السورة أن الصحابة سألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل فذكر الله عز وجل في هذه الآيات ما يدل على أن من أهم ذلك الإيمان به والجهاد في سبيله، فذلك التجارة الرابحة.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

«هل» حرف استفهام، وفيه معنى التشويق والترغيب.

و«التجارة» تطلق على عقود المعاوضات التي يطلب بها الأرباح كالبيع والشراء والإجارة ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

كما تطلق التجارة على جزاء الأعمال والمتاجرة مع الله- عز وجل- بالإيمان والأعمال الصالحة للفوز بالجنة والنجاة من النار.

وهي المرادة بالتجارة هنا في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾؟ وهي التجارة حقًا.

ولهذا أتبعها بقوله: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وفسرها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ﴾.

كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ

وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

ونكرت تجارة هنا للتعظيم.

قال ﷺ: **«من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»**[١].

قال ابن القيم رحمه الله[٢]:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان

﴿تُنجِيكُم﴾، أي: تكون سببًا في نجاتكم وسلامتكم.

﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو عذاب النار؛ لأن الإيمان والعمل الصالح إنما هو سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، وليس بعوض عن دخول الجنة كما يقوله المعتزلة.

ودخول الجنة والنجاة من النار إنما هو برحمة أرحم الراحمين، ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحدًا عملُه الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يستعتب»[٣].

و﴿أَلِيمٍ﴾ على وزن «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: موجع حسًا ومعنى، وهو عذاب

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) في «النونية» ص٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

النار، العذاب الأكبر والأشد مع ما يسبقه من العذاب الدنيوي، بالأنفس والأموال وفقدان السعادة لمن خالف أمر الله.

وقدم قوله: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على تفسير وبيان التجارة؛ تشويقًا للتجارة وقدم النجاة من النار على دخول الجنات؛ لأن التخلية قبل التحلية، وإشارة إلى أن من نجا من النار دخل الجنة؛ إذ ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

قال أبو العتاهية(١):

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدار
الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار

قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ لما تشوقت النفوس وتطلعت إلى معرفة ما هي هذه التجارة، التي فيها النجاة من العذاب الأليم وذلك بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فسرها وبيّنها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ الآية.

فالتجارة الرابحة حقًا: هي التجارة مع الله- عز وجل- بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس.

وفي قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بعد ندائهم باسم الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، دليل

---

(١) انظر: «ديوانه» ص١٤١.

على حاجة الإنسان إلى الإيمان كل لحظة، والزيادة منه والثبات عليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله في هدايته للإيمان وتثبيته عليه وزيادته منه.

ومعنى الإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه. وضده الكفر.

ومعنى الإيمان بالرسول ﷺ: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهو معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

وفي عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل بالواو في قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تشريف وتكريم له ﷺ، وأن من لازم الإيمان: الإيمان بالله ورسوله. فمن آمن بالله ولم يؤمن بالرسول ﷺ فليس بمؤمن، كما أن من آمن بالرسول ﷺ ولم يؤمن بالله- عز وجل- فليس بمؤمن، فالإيمان بالله والرسول متلازمان.

كما أن فيه جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم في باب الإيمان والطاعة، لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله.

فالإيمان بالله ورسوله درجة عظيمة ومنزلة رفيعة، به الفوز والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة- نسأل الله التوفيق والثبات على الإيمان حتى الممات.

﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ المجاهدة بذل الجهد والطاقة والوسع.

﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لإعلاء كلمة الله تعالى، ووفق شرعه، كما قال ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**(١).

---

(١) سبق تخريجه.

والمعنى: وتبذلون جهدكم وطاقتكم ووسعكم في قتال الكفار؛ لإعلاء كلمة الله.

﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ قدم الجهاد بالأموال هنا وفي جميع المواضع في القرآن عدا قوله في سورة التوبة ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ [الآية: ١١١]. وذلك لأهمية الجهاد بالمال، فالجهاد بالنفس لا يمكن أن يقوم إلا بالجهاد بالمال والعدة والعتاد والسلاح والزاد والمراكب وغير ذلك.

وجملة ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وإن كانت خبرًا فمعناها الطلب والأمر، أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم.

ولهذا جاء جوابه مجزومًا في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾.

وقد قرأها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «آمنوا بالله ورسوله»[(١)].

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارة للإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، والذي هو التجارة الرابحة مع الله عز وجل.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: خير لكم خيرية مطلقة من تجارة الدنيا، ومن الدنيا بحذافيرها، وغير ذلك. فالخير كل الخير بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله.

و«خير» وإن كان اسم تفضيل، فإنه لا يدل على أن في عدم الإيمان وترك الجهاد شيئًا مفضولًا من الخير؛ لأن اسم التفضيل قد يستعمل في المفاضلة بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة بل هو شر محض، كما في قوله عز وجل: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

فلا يؤخذ من هذا أن أهل النار عندهم شيء من خير المستقر وحسن المقيل إذ لا خير في النار البتة، ولا حسن فيها، بل كل ما فيها شر وسوء.

---

(١) انظر «معاني القرآن» للفراء ٣/ ١٥٤، «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٧.

وقد سئل ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «**إيمان بالله ورسوله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**جهاد في سبيل الله**»، قيل: ثم ماذا؟، قال: «**حج مبرور**»(١).

وعن عبد الله بن حبشي الخثعمي- رضي الله عنه-: أن النبي ﷺ سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة»(٢).

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: إن كنتم ذوي علم، تعلمون به ما ينفعكم، وتهتدون به لما فيه خيركم وسعادتكم في دينكم ودنياكم، أي: اعلموا أن في المتاجرة مع الله في الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم الخير كل الخير لكم.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ هذا هو جواب الأمر المفهوم من جملة الخبر ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيله بأموالكم وأنفسكم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾، وهو وما عطف عليه تفسير للخيرية في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة أن الله عز وجل يقرر عبده المؤمن بذنوبه، فيقول عز وجل: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(٣).

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ جنات: جمع جنة، والجنة في الأصل: البستان، وسمي البستان جنة؛ لأنه يجن- أي: يستر- من بداخله بأشجاره الملتفة وثماره الكثيرة.

والمراد بقوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾: ما أعده الله عز وجل لأوليائه في دار كرامته مما لا تقاس به جنات الدنيا وبساتينها، كما قال عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه النسائي في الزكاة ٢٥٢٦، والدارمي في الصلاة ١٤٢٤.

(٣) سبق تخريجه.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1].

ونكر «جنات» تعظيمًا لشأنها، أي: جنات وأيّ جنات، جنات ونعم الجنات.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات»؛ لأن الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال.

والمعنى: تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠] يشربون منها ويغتسلون فيها ويتمتعون برؤيتها، ويصرفونها كيف شاؤوا بلا جداول ولا أخدود.

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض، والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض، حافتاها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر»[2].

قال ابن القيم[3]:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

وهي أنواع- كما ذكر الله عز وجل في سورة محمد: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [الآية: ١٥].

وتتفجر من الفردوس، كما قال ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٢٩٦.

(٣) في «النونية» ص٢٢٩.

الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تُفجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»(١).

﴿وَمَسَٰكِنَ﴾، أي: ويدخلكم مساكن ومنازل ﴿طَيِّبَةً﴾، أي: طيبة السكن، يطيب فيها حال الساكن ويرتاح ويسر، ويطمئن ويأمن، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾، «عدن» بمعنى إقامة دائمة أبدية، أي: في جنات إقامة أبدية لا يتحولون عنها كما قال عز وجل في سورة التوبة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الآية: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارة لما سبق من مغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنات والمساكن الطيبة في جنات عدن.

و﴿ٱلْفَوْزُ﴾ الفلاح والنجاح، الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كمية وكيفية الذي لا يقدر كنه عظمته إلا من وصفه بأنه «عظيم» وهو العظيم سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠، وأحمد ٢/ ٣٣٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي جعل قوله: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية مكتنفين لتفسير التجارة إشارة إلى أن التجارة هي مجموع الأمرين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، وما أعد الله لهم من الجزاء عليه من النجاة من النار والمغفرة ودخول الجنات.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ الواو: عاطفة و«أخرى» مفعول به لفعل محذوف تقديره «يؤتكم» مجزوم عطفًا على «يغفر»، أي: ويؤتكم نعمة وزيادة وثمرة أخرى عاجلة في الدنيا تحبونها.

﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لكم على عدوكم.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، أي: وفتح من الله قريب لكم لبلاد الكفر كمكة وغيرها من المدن والأمصار.

وذلك إذا آمنتم بالله ورسوله وجاهدتم في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وهكذا نصر الله- عز وجل- النبي ﷺ والمؤمنين على أعدائهم، وفتح لهم مكة وغيرها من البلاد وفاءً بها وعدهم، وهو الذي لا يخلف الميعاد سبحانه وتعالى.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق بيان معنى البشارة واشتقاقها.

والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: وأخبر المؤمنين بالخبر السار لهم في دنياهم وآخرتهم وهو السعادة في الدنيا والآخرة، ومغفرة الذنوب ودخول الجنات والفوز العظيم والنصر على الأعداء والفتح القريب.

ويؤخذ من هذا التعبير القرآني المحبب للنفوس ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه ينبغي أن

نكون مبشرين، كما قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا»(١).

وهذا التعبير القرآني العظيم والتوجيه النبوي الكريم يذكرني بكلمة أحب أن أسجلها لسماحة الشيخ الوالد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تلك العبارة الرقيقة التي تدخل إلى شغاف القلوب عندما يسأله سائل كثيرًا ما يختم إجابته له بقوله: «وأبشر بالخير» فرحمك الله يا شيخنا وبشرك بكل خير، وجزاك عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فقد كنت مثالًا يحتذى في الدعوة إلى الله، وفي فعل الخير، وقوله وفي تحبيب الناس إليه، وفي محبته لهم.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء؛ لتنبيههم لأهميته، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف وعلى امتثال ما بعد هذا النداء من الأوامر؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- الحض والترغيب على الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، وأن في ذلك: التجارةَ الرابحة والنجاة من عذاب أليم؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾.

٣- أن في الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس: الخير كل الخير؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

٤- أن المفاضلة والخيرية لا تعني عدم الوجوب، فالإيمان بالله ورسله والثبات على ذلك من أوجب الواجبات، وكذا الجهاد في سبيله يجب في كثير من الحالات.

وفي هذا رد على الذين يستدلون على عدم وجوب صلاة الجماعة بقوله ﷺ: «**صلاة**

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٨، ومسلم في الأشربة ١٧٣٣- من حديث أبي موسى- رضي الله عنه.

الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[١].

وفي لفظ: «**بخمس وعشرين درجة**»[٢].

٥- أن الإيمان بالله ورسوله متلازمان وأنهما شرطان لقبول الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٦- أن الجهاد المشروع في الإسلام هو ما كان في سبيل الله، أي لإعلاء كلمة الله ووفق ما شرع الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٧- أهمية الجهاد بالمال ولهذا قدم على الجهاد بالنفس وكل منهما مهم في وقته وعند الحاجة إليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

٨- عظم ما أعده الله للمؤمنين المجاهدين في سبيله من مغفرة الذنوب، ودخول الجنات التي تجرى من تحتها الأنهار والمساكين الطيبة مع الإقامة الأبدية فيها، وذلك الفوز العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾.

٩- وعد الله- عز وجل- للمؤمنين المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم بالنصر على أعدائهم وفتح بلاد الكفر، وهكذا حصل بفضل الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾.

١٠- البشارة المطلقة للمؤمنين بالسعادة والنصر والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة. فلله الحمد؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦٤٥، ومسلم في المساجد ٦٥٠- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٦٤٦، وأبو داود في الصلاة ٦٥٠- من حديث أبي سعيد الخدري ضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾.

رغب عز وجل في الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله، ثم أتبع ذلك بأمر المؤمنين بمناصرة دين الله؛ كما فعل الحواريون من أتباع عيسى عليه السلام.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ النداء للمؤمنين من هذه الأمة.

﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، بغير تنوين، مضافًا إلى لفظ الجلالة. وقرأ الباقون بالتنوين ولام الجر: «أنصارًا لله».

أي: كونوا أنصار دينه؛ بالدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله بالسيف والسنان والحجة والبرهان؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾، «الحواريون»: جمع حواري، والحواري: صفي الرجل وخاصته.

والمراد: أتباع عيسى وأنصاره وأعوانه.

﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، «من» للاستفهام، وفيه معنى التحضيض أي: من أنصاري وأعواني منكم يا قوم في دعوتي وطريقي إلى الله.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾، أي: قال الحواريون، وهم أصفياء عيسى وأتباعه:

﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، أي: أنصار دينه.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا كونوا في الاستجابة لله ولرسوله ﷺ ونصرة دينه، كالحواريين في الاستجابة لعيسى عليه السلام ونصرته فيما جاء به من عند الله.

وليس في هذا ما يستلزم، بل ولا ما يدل على فضل الحواريين على صحابة رسول

الله ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة.

إذ لا أفضل من صحابة رسول الله ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال ﷺ: «إن لكل نبي حواري، وأنا حواريِّي الزبير بن العوام»[١].

قال ابن كثير[٢]: «وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشًا منعوني أن أبلغ رسالة ربي»[٣] حتى قيض الله له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه وآزروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علمًا عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم».

﴿فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، أي: فصدقت طائفة وجماعة من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ورسالته وانقادوا له.

﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾، أي: وجحدت طائفة وجماعة رسالته وهم اليهود.

قال ابن كثير[٤]: «اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته، ورموه وأمه بالعظائم- وهم اليهود- عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقًا وشيعًا، فمن قائل: إنه ابن الله، وقائل: إنه ثالث

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٤٧، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤١٥- من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٣٩.
(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٣٢٢، ٣٣٩- من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.
(٤) في «تفسيره» ٨/ ١٣٩ وانظر ٢/ ٤٠١.

ثلاثة: الآب، والابن، وروح القدس، ومن قائل: إنه الله»(١).

﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾، أي: نصرنا الذين آمنوا مع عيسى من الحواريين وقويناهم على من عاداهم من اليهود وفرق النصارى الكافرة.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾، أي: فأصبحوا ظاهرين على عدوهم بتأييد الله ونصره لهم لأنهم على الحق.

ولهذا فإن من تأييد الله لهم- كما قال بعض المفسرين- بعثة محمد ﷺ.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما أراد الله- عز وجل- أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيت، اثنا عشر رجلًا من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من سيكفر بي اثنتي عشر مرة، بعد أن آمن بي. قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سنًا، فقال: أنا. فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا. فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب قال: أنا. قال: نعم، أنت ذاك. قال: فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء قال: وجاء الطلب من اليهود، وأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم، اثنتي عشرة مرة، بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق. فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الطائفتان الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن

---

(١) يعنون بالأب: «الله»، وبالابن: «المسيح ابن مريم»، وبروح القدس: «جبريل»، وهذه عقيدة التثليث عندهم- تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾، في إظهار محمد دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾»(١).

قال ابن كثير(٢) بعد سياقه عن ابن عباس: «فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح- عيسى ابن مريم- عليه السلام- كما وردت الأحاديث الصحاح والله أعلم».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما ذكر بعد هذا النداء من أمر؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- تحضيض المؤمنين على الاستجابة للرسول ﷺ ونصرة دين الله، كما فعل الحواريون أتباع عيسى عليه السلام، وأخذ القدوة من المؤمنين قبلهم.؛ لقوله تعالى: ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

٣- التذكير بقدرة الله عز وجل في خلق عيسى بن مريم عليه السلام من أنثى بلا ذكر.

٤- الثناء على الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام- بنصرتهم دين الله.

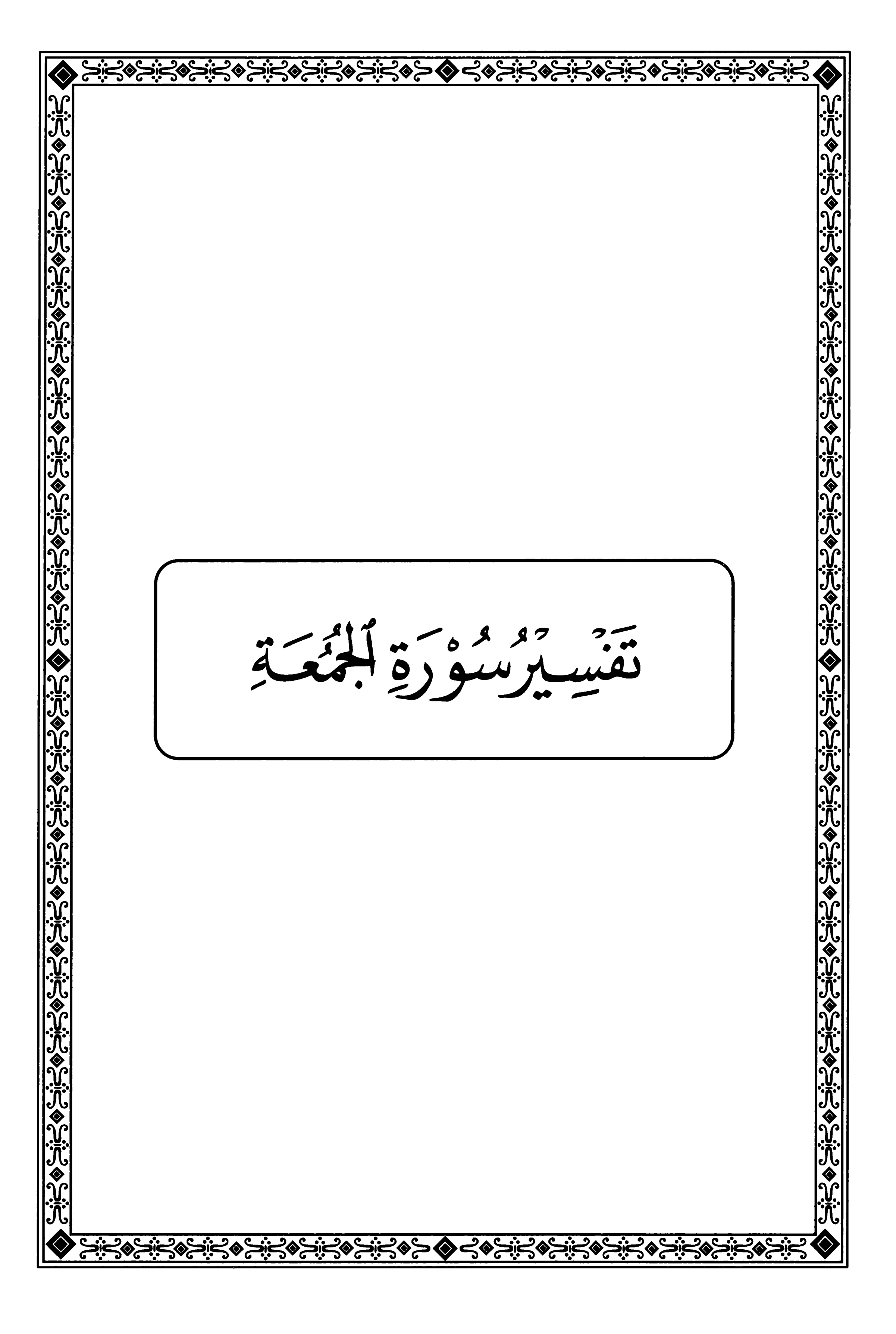
٥- تأييد الله- عز وجل- وتقويته ونصره للمؤمنين من أتباع عيسى- عليه السلام- على أعدائهم الكافرين وإظهاره لهم.

وهكذا فإنه عز وجل ينصر أولياءه في كل زمان ومكان والعاقبة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

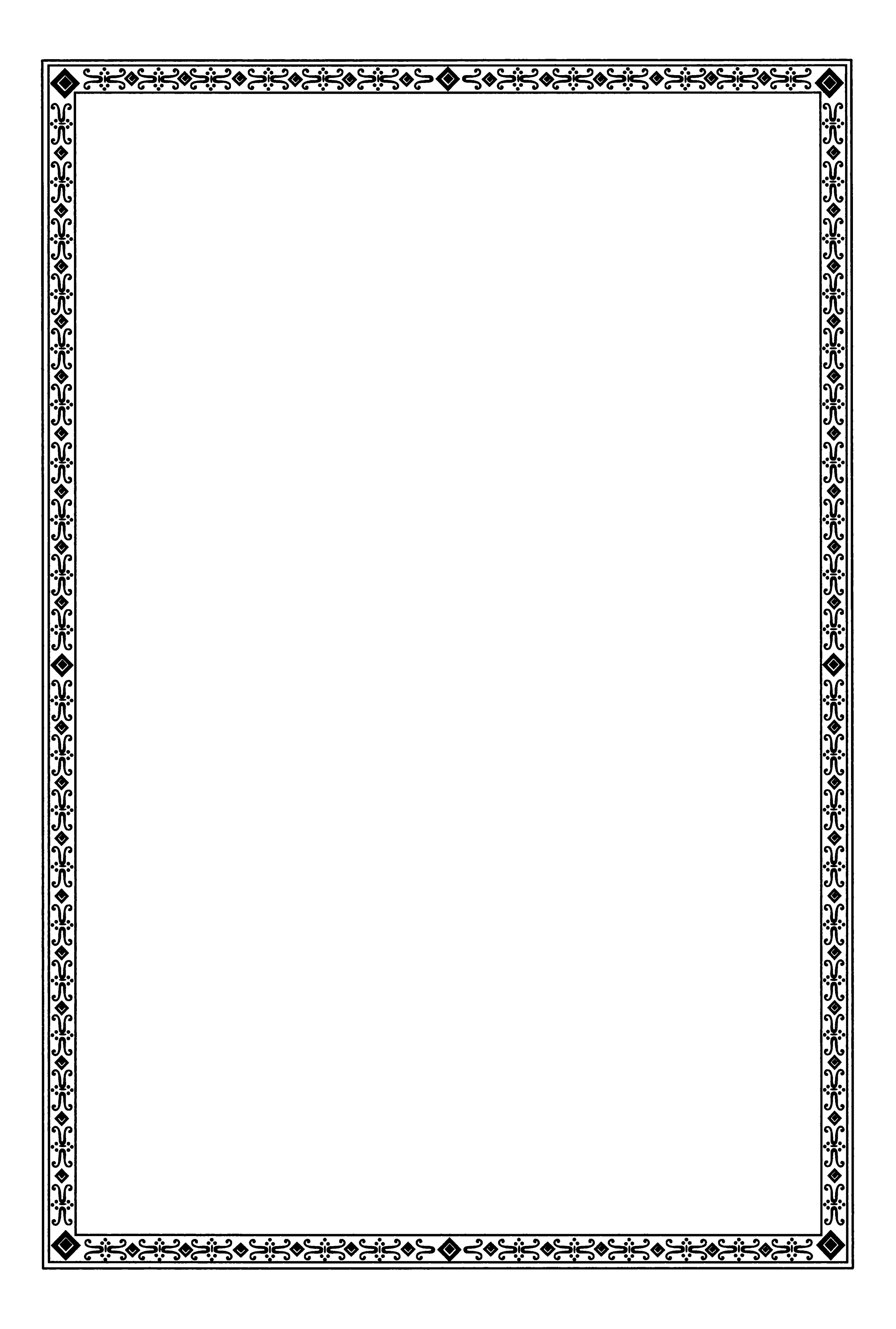
* * *

(١) أخرجه الطبري «جامع البيان» ٢٢/ ٦٢٢- ٦٢٣.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٤٠.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الجمعة» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الآية:٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «كنا جلوسا عند النبي ﷺ، إذ نزلت عليه سورة الجمعة»(١).

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- فضلها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان]، وأن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة والمنافقين(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى عما لا يليق به، والثناء عليه.

٢- الامتنان على هذه الأمة ببعثة محمد ﷺ فيهم، وإنزال القرآن الكريم عليه فضلًا منه وكرمًا.

٣- ذم اليهود؛ لعدم عملهم بالتوراة التي أنزلها الله عليهم، وتكذيب زعمهم أنهم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجمعة ٤٨٩٧، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٤٦، والترمذي في المناقب ٣٩٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة- ما يقرأ في صلاة الجمعة ٨٧٩، والنسائي في الجمعة ١٤٢١.

وأخرجه- دون ذكر صلاة الجمعة وما يقرأ فيها- أبو داود في الصلاة ١٠٧٤، والترمذي في الجمعة ٥٢٠، والنسائي في الافتتاح ٩٥٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٢١.

أولياء الله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

٤- الأمر بالمبادرة إلى صلاة الجمعة إذا نودي إليها، والسعي إلى ذكر الله وترك البيع، والترغيب بالانتشار بعد الصلاة في الأرض وطلب الرزق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الحديد، وفي آخر سورة الحشر.

﴿الْمَلِكِ﴾، أي: الملك للسموات والأرض وما فيها وما بينهما، الخالق لذلك كله المتصرف فيه بأمره وحكمه.

والملِك أعم من المالك، وأبلغ، لأن كل ملِك مالك وليس كل مالك ملكًا.

﴿الْقُدُّوسِ﴾: المعظم المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

في هذه الآية إجابة دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام حين دعا لأهل مكة بقوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، أي: هو الله سبحانه ﴿الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وفي هذا تذكير بعظمته عز وجل، وعظيم نعمته عليهم.

و«بعث» بمعنى أرسل، و«الأميين» جمع أمي، وهو من لا يقرأ ولا يكتب.

والمراد بهم العرب، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ وَالْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال ﷺ لما قال له جبريل: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ»(١).

وقال ﷺ: «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا»(٢).

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو نبينا محمد ﷺ أفضل الرسل وسيد الخلق، فهو عربي من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي.

وهو أمي أيضًا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وتخصيص الأميين، وهم العرب بالذكر؛ لتذكيرهم بعظيم نعمة الله عليهم، فالمنة عليهم أبلغ وآكد، كما أن المسؤولية عليهم في تبليغ الدعوة أعظم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]؛ لأنه بلسانهم، كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وإلا فهو مبعوث فيهم وفي غيرهم، وذكر لهم ولغيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي: لأنذركم

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان ١٦٠- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم ١٩١٣، ومسلم في الصيام- وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال ١٠٨٠، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

به وأنذر به كل من بلغه القرآن.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أي: يقرأ عليهم آيات الله- عز وجل- القرآن الكريم.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، أي: ويطهرهم بما يتلو عليهم من آيات الله- عز وجل- وما فيها من المعاني والأحكام والآداب والمواعظ التي فيها طهارة النفوس والقلوب والأبدان.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، أي: ويعملهم القرآن والسنة، وما فيهما من الأحكام والحكم كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ٩٦] أي: القرآن والسنة.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الواو: حالية، واللام للتوكيد، أي: والحال أنهم كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

والمعنى: وإن كانوا من قبل بعثته ﷺ لفي بُعد وتيه عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بين واضح في نفسه، ﴿مُّبِينٍ﴾ أمر من كان عليه أنه ضائع تائه.

وأيُّ ضلال أبين من الشرك بالله عز وجل.

قال ابن كثير(١): «فبعثه الله- سبحانه وتعالى ولله الحمد والمنة- على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه... وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم- عليه السلام- فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركًا، وباليقين شكًا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها، وأولوها، فبعث الله محمدًا- صلوات الله وسلامه عليه- بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم... وجمع له تعالى- ولله الحمد والمنة- جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحدًا من الأولين، ولا يعطيه أحدًا من الآخرين، فصلوات

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٢.

الله وسلامه عليه إلى يوم القيامة».

﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾، أي: وآخرين ممن بعث فيهم الرسول ﷺ وأنزل فيهم القرآن ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ﴾ لم يحن وقت لحوقهم بهم، أي: أنهم يأتون بعدهم ويدخل فيهم من يأتي بعدهم من العرب والعجم إلى يوم القيامة، وهذا يدل على عموم رسالته ﷺ. فالمعنى: ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ﴾ في الزمن، أي: أنهم يأتون بعدهم، أو: ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ في الفضل. والآية تحتمل الأمرين معًا.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم، حتى سئل ثلاثًا، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال- أو رجل من هؤلاء»(١).

وعن سهل بن سعد الساعدي- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالًا ونساءً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ يعني بقية من بقي من أمة محمد ﷺ»(٢).

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الإشارة إلى ما أعطاه الله- عز وجل- لمحمد ﷺ وخصه به من الرسالة والنبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثته فيهم وإنزال القرآن الكريم عليه؛ ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

فأكرم بهذا، وأنعم به من فضل، يعرفه تمام المعرفة، ويقدره حق قدره من وفقه الله،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجمعة ٤٨٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة- فضل فارس ٢٥٤٦، والترمذي ٣٢٦١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٥- الأثر ١٨٨٩١.

وذاق حلاوة الإيمان، وتأمل في أحوال من لا يدينون بالإسلام، وما هم عليه من الاضطراب والقلق والتذبذب؛ كما قال عز وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وفي المثل الذي ضربه ﷺ لليهود والنصارى وهذه الأمة، قال اليهود والنصارى: نحن أكثر عملًا وأقل عطاءً، فقال عز وجل: «هل ظلمتكم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء»(١).

والفضل: الزيادة منه- عز وجل- بلا استحقاق من المتفضل عليه.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يعطيه الذي يشاء من عباده، فتفضل على محمد ﷺ بالرسالة، وتفضل على أمته ببعثته فيهم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: والله صاحب الزيادة والإفضال والإنعام والجود العظيم، لا راد لفضله ولا مانع لعطائه، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم ما لا نحتاج معه إلى أحد سواك.

الفوائد والأحكام:

١- تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- إثبات أسماء الله- عز وجل: «الملك»، «القدوس»، «العزيز»، «الحكيم» وما تدل عليه من كمال ملكه وتدبيره وتصرفه، وتمام عظمته، وعزته التامة، ونفوذ أحكامه الكونية وكمال أحكامه الشرعية والجزائية، وحكمته البالغة التامة في شرعه وقدره وأمره ونهيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٣- نعمة الله- عز وجل- على العرب وامتنانه عليهم وعلى العالم أجمع ببعثه محمد ﷺ فيهم، وإنزال القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

٤- إثبات رسالته ﷺ، وإنزال القرآن عليه.

٥- أن العرب كانوا قبل الإسلام أميين لا يقرؤون ولا يكتبون، وهكذا كان النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

٦- أن من نعمة الله- عز وجل- وفضله على العرب خاصة جعل النبي منهم وبلسانهم يتلو عليهم القرآن ويطهرهم معنويًا من الشرك والمعاصي وحسيًا من النجاسات والأحداث ويعلمهم القرآن والسنة؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٧- أن المسؤولية في تبليغ الرسالة على العرب أعظم وآكد، لأن الرسول ﷺ منهم والقرآن بلغتهم.

٨- أن القرآن والسنة كل منهما من وحي الله- وهما مصدرا التشريع؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٩- ضلال العرب البين الواضح وبعدهم عن الحق قبل بعثة محمد ﷺ فيهم ونزول القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

١٠- عموم رسالة النبي محمد ﷺ لجميع الناس السابق منهم واللاحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾.

١١- تأكيد عزته- عز وجل- وكمال حكمه وتمام حكمته وأن من كمال عزته وحكمه وحكمته أن بعث محمدًا ﷺ رسولًا إلى الناس كافة، وأنزل عليه القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٢- الإشارة لعظم فضل الله- عز وجل- على محمد ﷺ في تخصيصه بهذه الرسالة العظيمة وعلى العرب في اختياره منهم، وعلى الأمة المحمدية كلها ببعثة محمد ﷺ فيهم وإنزال القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

١٣- إثبات المشيئة لله- عز وجل- وعظيم فضله وإفضاله وإنعامه على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل فضله على الأمة المحمدية ببعثة محمد ﷺ فيهم وإنزال القرآن عليه، أتبع ذلك بذم اليهود الذين أنزل الله عليهم التوراة فلم يعملوا بها وكذبوا بآيات الله.

وذلك بيانًا لما هم عليه من سيء الصفات، وتحذيرًا للأمة المحمدية من مسالكهم السيئة.

قوله: ﴿مَثَلُ﴾، أي: شبه ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ يعني اليهود الذين أنزلت عليهم التوراة وكلفوا علمها والعمل بما فيها.

والتوراة: هي الكتاب الذي أنزله- عز وجل- على نبيه وكليمه موسى بن عمران- عليه السلام- كتبها الله عز وجل بيده، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وفي الحديث: «قال آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده»(١).

وفي الحديث الآخر: «أن الله غرس جنة عدن بيده، وخلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة طه ٤٧٣٦، ومسلم في القدر ٢٦٥٢، والترمذي في القدر ٢١٣٥، وابن ماجه في المقدمة ٨٠، وأحمد ٢/ ٢٦٨، ٣٩٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٧/ ٢٨ (٣٣٩٥٧)، وابن المبارك في «الزهد والرقائق» ونعيم بن =

أنزلها الله عز وجل جملة واحدة على موسى عليه السلام مكتوبة بألواح، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾، أي: ثم لم يعملوا بها، بل خالفوها وحرفوها وبدلوها، وكذبوا بمحمد ﷺ وقد أمروا بالإيمان به فيها واتباعه وتصديقه.

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾، أي: مثلهم في عدم العمل بالتوراة وعدم الانتفاع بها والاستفادة منها، كمثل وشبه الحمار الحيوان المعروف الذي يضرب به المثل في البلادة.

﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ الأسفار: جمع «سِفْر» وهي كتب العلم الكبار، أي: يحمل كتبًا على ظهره، لكنه لا يدري ماذا عليه، وماذا فيها، ولا تلحقه فضيلة بسبب حملها، ولا ينتفع بها ولا يستفيد منها بوجه، ولو حملت عليه كتب الدنيا كلها، وإنما حظه منها النصب والتعب والثقل. كما قيل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول[1]

قال الزمخشري[2]: «شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها، ثم أنهم غير عاملين بها، ولا منتفعين بآياتها، وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به، ولم يؤمنوا به بالحمار حمل أسفارًا، أي: كتبًا كبارًا من كتب العلم، فهو يمشي بها، ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله، وبئس المثل».

=
حماد في «الزهد» ١/ ٥١٢، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» ٧/ ٣٠٦ (٢٣٢)، والآجري في «الشريعة» ٣/ ١١٨ (٧٥٧).

(١) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» ٢/ ٢٣٢، «نفحة اليمن» ص١٢٦، «جواهر الأدب» ١/ ١٣١.

(٢) في «الكشاف» ٤/ ٩٦.

وقال ابن كثير(١): «أي كمثل الحمار إذا حمل كتبًا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملًا حسيًا ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظًا ولم يفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالًا من الحمير، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]».

ولهذا ذمهم الله في مواضع كثيرة من كتابه وتوعدهم، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا، والذي يقول له: أنصت، ليس له جمعة»(٢).

﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بئس: فعل ذم، أي: قبح وساء شبه اليهود الذين كذبوا بآيات الله. فقد شبهوا في هذا المثل بالحمار أبلد الحيوانات، حال كونه يحمل كتبًا في العلم لا يستفيد منها؛ لعدم فهمه، وفقدانه ما أعطاهم الله من فهم.

والمراد بآيات الله ما يشمل الآيات الشرعية التي أنزلت في التوراة، والآيات الكونية، ومنها الآيات التسع التي أيد الله بها موسى، كالعصا والحية والطوفان وغيرها.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٣.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٣٠. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/ ١٨٤: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، وفيه مجالد ابن سعيد وقد ضعفه الناس ووثقه النسائي في رواية».

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: والله لا يوفق القوم الظالمين ولا يقبل أعمالهم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم.

وقد سبق الكلام على هذه الآية مفصلًا في سورة الصف.

وفي قوله: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أن هذا المثل كما هو مثل لليهود هو مثل لكل من كذب بآيات الله، وكان من الظالمين من اليهود وغيرهم.

قال ابن القيم[(١)]: «قاس من حمّله- سبحانه- كتابه، ليؤمن به، ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله، إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له، ولا عمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها فحظه منها حملها على ظهره، ليس إلا، فحظ هذا من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته».

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾، أي: نادهم منبهًا لهم بهذا الوصف، ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾، أي: الذين رجعوا وتابوا من الكفر والشرك وعبادة العجل، واتبعوا دين «يهودا»، أحد أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولاد يعقوب عليه السلام.

﴿إِن زَعَمۡتُمۡ﴾، أي: إن ادعيتم. والزعم يطلق غالبًا على زعم الأمر الباطل.

﴿أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: أحبابه، والذين يوالونه ويوادونه ويواليهم ويحبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨]،

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٤٨- ٤٤٩.

وكما قال قائلهم: نحن شعب الله المختار.

فهم يزعمون أنهم أولى الناس بالله وأنهم هم الذين على الهدى، وأن محمدًا ﷺ وأصحابه وغيرهم على ضلالة.

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾، أي: فاطلبوا الموت أو ادعوا على أنفسكم بالموت.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أولياء الله وأحباؤه، لتنالوا أجر ولايتكم؛ لأن المحب يحب القرب من حبيبه، ولتستريحوا من كرب الدنيا وهمومها وغمومها بالموت، ولتنتقلوا سريعًا إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه.

قال ابن كثير(١): «أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمدًا وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تزعمونه».

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ الواو: عاطفة و«لا» نافية، أي: ولا يمكن أن يتمنوه أبدًا.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: ولا يتمنونه أبدا بسبب الذي قدمته أيديهم من الكفر والمعاصي والظلم والفجور.

أو بسبب تقديم أيديهم؛ ذلك لأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا خيرًا، بل لم يقدموا إلا الكفر والمعاصي، وليس أمامهم بعد الموت إلا النار، كما قال تعالى لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٤- ٩٦].

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال أبو جهل- لعنه الله-: إن رأيت محمدًا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٤.

الملائكة عيانًا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ رجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا»(١).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، «عليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، أي: أنه عز وجل ذو العلم التام الواسع بالظالمين وأعمالهم وأحوالهم لا تخفى عليه منهم خافية وسيحاسبهم ويجازيهم عليها، وهو عز وجل عليم بالظالمين وغيرهم وبجميع خلقه وسيجازي كلا بعمله، وإنما خص الظالمين هنا تهديدًا لهم ووعيدًا؛ لأن السياق معهم، بل مع أظلم الظالمين، وهم اليهود المغضوب عليهم.

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد: ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ﴾، أي: الذي تهربون منه وتخافونه أيها اليهود.

﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ لا محالة، فلا بد أن تموتوا. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

قال زهير(٢):

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم

وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته ... عليها طريقي أو علي طريقها(٣)

وقال الآخر:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب ... متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب(٤)

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة العلق ٤٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة اقرأ ٣٣٤٨، وأحمد ١/ ٢٤٨.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٢٩.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» ١/ ١٥.

(٤) البيت للشاعر محمد بن عثيمين، من قصيدة قالها في رثاء الشيخ عبد الله العجيري سنة ١٣٥٢هـ وهي =

وقال الآخر:

المـوت بـاب وكـل النـاس داخلـه يا ليت شعري بعد الموت ما الـدار[1]

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: ثم بعد الموت تبعثون وترجعون إلى عالم السر والعلانية، وهو الله الذي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

وقدّم عز وجل الغيب على الشهادة؛ لتأكيد كمال علمه، وأن السر عنده كالشهادة، كما قال عز وجل: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملون، أو فيخبركم بعملكم، ويحاسبكم ويجازيكم على ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- تشبيه اليهود في كونهم حملة التوراة ولم يعملوا بها بأقبح مثل وأحقره وهو مثل الحمار يحمل كتبًا في العلم ولا ينتفع بها وبئس المثل مثلهم لتكذيبهم بآيات الله ومثل ذلك من سلك طريقهم في معرفة الحق وعدم العمل به؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾.

٢- عدم توفيق الله وهدايته للظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣- تحدي اليهود بتمني الموت إن كانوا صادقين في زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس، لأن من كان وليًا لله حقًا يحب لقاءه؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٤- نفي الله- عز وجل- تمني اليهود الموت أبدًا؛ لعلمهم أنهم لم يقدموا لما أمامهم سوى الكفر والمعاصي، وما يستوجبون به النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ

مطبوعة مع ديوان ابن مشرف في ملحق في آخره ص١٨٧، طبع مكتبة الفلاح- الأحساء- الهفوف.

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٤١.

أَيْدِيهِمْ﴾.

٥- تهديد الله- عز وجل- للظالمين من اليهود وغيرهم بعلم الله عز وجل بما هم عليه من الظلم، وأنه سيجازيهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٦- أنه لا مفر ولا محيد من الموت، ولابد لجميع الخلق من لقائه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾.

٧- إثبات البعث والمعاد بعد الموت وإخبار العباد بأعمالهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٨- علم الله- عز وجل- الواسع المحيط بالشاهد والغائب والسر والعلانية والوعيد للظالمين والوعد للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٩- أن الجزاء من جنس العمل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾، أي: إذا أذن لصلاة الجمعة.

ويوم الجمعة: هو سابع أيام الأسبوع، وهو أفضلها.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله شيئًا إلا أعطاه الله إياه»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد»(٢).

﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، أي: امضوا واقصدوا وسيروا إلى ذكر الله- أي: إلى صلاة الجمعة وخطبتها- وفي التعبير بقوله: ﴿فَاسْعَوْا﴾ إشارة إلى أنه ينبغي المبادرة بعد النداء بالذهاب إليها والاهتمام بها والتفرغ لها، والإقبال بالقلب على السعي إليها.

وليس المراد بذلك الركض والمشي السريع إليها.

قال ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم

---

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة ٤٩١- بنحوه، وأخرجه مختصرًا البخاري في الجمعة- الساعة التي في يوم الجمعة ٩٣٥، ومسلم في الجمعة- الساعة التي في يوم الجمعة ٨٥٤، وأبو داود في الصلاة ١٠٤٦، والنسائي في الجمعة ١٤٣٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١١٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٧٦، ومسلم في الجمعة- هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٨٥٥، والنسائي في الجمعة ١٣٦٧.

فأتموا»[١].

﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾، أي: واتركوا البيع والأمر للوجوب، وهو أمر للبائع والمشتري، لأن البيع يطلق على الأمرين ولهذا قال ﷺ «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»[٢].

والمراد بالنداء في الآية النداء الثاني الذي بين يدي خروج النبي ﷺ وجلوسه على المنبر، وكذا الأئمة من بعده.

لأن النداء الأول إنما أمر به الخليفة الراشد- عثمان بن عفان- رضي الله عنه- ليجتمع الناس لما كثروا، كما في حديث السائب بن يزيد- رضي الله عنه- قال: «كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن، وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء[٣]»[٤].

وقد قال ﷺ «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[٥].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الإشارة إلى مصدر الأمر السابق في قوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان- لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار ٦٣٦، ومسلم في المساجد- استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيًا ٦٠٢، وأبو داود في الصلاة ٥٧٢، والنسائي في الإمامة ٨٦١، والترمذي في الصلاة ٣٢٧، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٧٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري أيضًا ٦٣٥، ومسلم ٦٠٣- من حديث أبي قتادة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٧٩، ومسلم في البيوع ١٥٣٢، وأبو داود في البيوع ٣٤٥٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٧، والترمذي في البيوع ١٢٤٦ من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٣) الزوراء: هي دار بالمدينة قرب المسجد فكان يؤذن عليها.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة- الأذان يوم الجمعة ٩١٢، وأبو داود في الصلاة ١٠٨٧، والنسائي في الجمعة ١٣٩٢، والترمذي في الجمعة ٥١٦.

(٥) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٢- من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾، أي: السعي إلى ذكر الله وترك البيع خير لكم، خيرية مطلقة من كل وجه في الدنيا والآخرة، إذ لا مقارنة بين إجابة أمر الله وطاعته، وما فيه السعادة في الدنيا والآخرة، وبين الانشغال بالدنيا الفانية، وما فيه الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، أي: إن كنتم ذوي علم تهتدون به إلى ما ينفعكم.

ومن أهم أسباب الحصول على هذا الخير الموعود به التبكير إلى الجمعة ما أمكن ذلك والغسل والسواك والطيب ولبس أحسن ثيابه، والقرب والدنو من الإمام للأحاديث الكثيرة الواردة في فضل ذلك.

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل غسل الجمعة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»(١).

وعن أوس بن أوس الثقفي- رضي الله عنه-، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غسّل واغتسل يوم الجمعة، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يَلْغُ كان له بكل خطوة أجر سنة، أجر صيامها وقيامها»(٢).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة فضل الجمعة ٨٨١، ومسلم في الجمعة- الطيب والسواك يوم الجمعة ٨٥٠، وأبو داود في الطهارة ٣٥١، والنسائي في الجمعة ١٣٨٨، والترمذي في الجمعة ٤٩٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة- الغسل يوم الجمعة ٣٤٥، والنسائي في الجمعة- فضل غسل يوم الجمعة ١٣٨١، والترمذي في الجمعة- فضل الغسل يوم الجمعة ٤٩٤ وابن ماجه في إقامة الصلاة- الغسل يوم الجمعة ١٠٨٧، وأحمد ٤/ ١٠٤. وقال الترمذي: «حديث حسن».

فليغتسل»(١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»(٢).

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام غسل يوم، وهو يوم الجمعة»(٣).

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب غسل الجمعة.

والجمهور على أنه مستحب. وكلمة «واجب» لا تعني الواجب بمعنى الفرض، كما هو عند الأصوليين والفقهاء، ولما في ذلك من المشقة.

كما يستحب لها السواك والطيب، وأن يلبس لها أحسن ثيابه ففي بعض روايات حديث أبي سعيد- رضي الله عنه: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، والسواك، وأن يمس من طيب أهله»(٤).

وعن أبي أيوب الأنصاري- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله- إن كان عنده- ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع- إن بدا له- ولم يؤذ أحدًا ثم أنصت إذا خرج إمامه

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة- فضل الغسل يوم الجمعة ٨٧٧، والنسائي في الجمعة ١٣٧٦، والترمذي في الجمعة ٤٩٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٨٥٨، ومسلم في الجمعة ٨٤٦، وأبو داود في الطهارة ٣٤١، والنسائي في الجمعة ١٣٧٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٩.

(٣) أخرجه النسائي في الجمعة- إيجاب الغسل يوم الجمعة ١٣٧٨، وأحمد ٣/ ٣٠٤.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يغسل رأسه وجسده». أخرجه البخاري ٨٩٨، ومسلم في الجمعة- الطيب والسواك يوم الجمعة ٨٤٩.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٨٠، ومسلم في الجمعة ٨٤٦، والنسائي في الجمعة ١٣٧٥.

حتى يصلي- كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى»[١].

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته»[٢].

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ- خطب الناس يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب النمار[٣]، فقال: «ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته»[٤].

كما يستحب القرب والدنو من الإمام- كما في حديث أوس بن أوس رضي الله عنه، وغيره.

والعجيب أن كثيرًا من الناس إذا جاهد النفس والشيطان، وجاء قبل خروج الإمام إلى الصلاة، ولو بوقت يسير، أدركه الشيطان في اللحظات الأخيرة بحيث تجده إذا دخل المسجد بدل أن يتجه إلى روضة المسجد خلف الإمام ويمينه تجده يبحث عن مكان يستند فيه على سارية من سواري المسجد أو على حائط من حيطانه ولو كان في مؤخرة المسجد، أو يقبع في زاوية من زواياه، أو يتجه إلى جهة اليسار مع خلو جهة اليمين، أو يتجه إلى نهاية الصف مع خلو وسطه، أو إلى مؤخرة الصفوف مع فراغ أولها، ونحو ذلك، ولا شك أن هذا من تقديم الأدنى على ما هو خير، ومن انتهاز الشيطان الفرصة لحرمان الإنسان من الأجر أو تقليله ما أمكن. وقد قال عز وجل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- اللبس للجمعة ١٠٧٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة- الزينة يوم الجمعة ١٠٩٥.

(٣) ثياب النمار: ثياب يلبسها الأعراب.

(٤) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة- الزينة يوم الجمعة ١٠٩٦.

فالمؤمن إذا دخل المسجد ضيف على أكرم الأكرمين وأجود الأجودين في بيت من بيوت الله- عز وجل- ينبغي أن يحرص على أن يكون في الصف الأول، خلف الإمام، إن أمكنه ذلك، وإن لم يمكنه ذلك فعن يمين الإمام، فإن لم يمكن فعن يساره، فإن لم يجد مكانًا في الصف الأول ففي الصف الثاني على نحو ما تقدم، وإلا ففي الصف الثالث وهكذا.

وإن من العجيب والغريب عدم مراعاة كثير من الناس لهذه المعاني، وزهدهم في القرب من الله وابتغاء مرضاته ومحابه، لأن هذه المعاني من تعظيم الله عز وجل وتعظيم الصلاة ومن كمال الصلاة، وتمام أجرها. ولاشك أن هذا من الجفاء وينقص من أجورهم بقدر جفوتهم وجفائهم.

ولله المثل الأعلى- لو أن إنسانًا استضاف مجموعة من الناس، فلما دخلوا عليه جلسوا عند الباب، أو في مؤخرة المجلس، وأبوا القرب إلى مقدمة المجلس، لعُدَّ هذا من الجفاء في دنيا الناس فكيف لا يعد جافيًا من يجلس في مؤخرة المسجد وفي الصفوف المتأخرة، وأطراف الصفوف تاركًا المنافسة والمسارعة والمسابقة إلى فضل الله، وزيادة الأجر في روضة المسجد وأوائل الصفوف وميامنها وقد قال ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»(١).

وفي المقابل تجد بعضًا من الناس يأتي متأخرًا فيتخطى رقاب الناس وهم جلوس أثناء الخطبة وقبلها، ويخترق الصفوف بسرعة عند إقامة الصلاة مفرقًا بين الناس؛ ليصل إلى ما أمكنه من الصفوف الأُوَل، غير مراع آداب الصلاة والمساجد، وشعور إخوانه المصلين، يريد- بزعمه- فضل الصفوف الأول، فيرتكب منهيًا بأذاه للمصلين وقد قال ﷺ وهو يخطب للذي جاء متأخرًا وأخذ يتخطى رقاب الناس: «اجلس فقد

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦١٥، ومسلم في الصلاة ٤٣٧، والنسائي في المواقيت ٥٤٠، والترمذي في الصلاة ٢٢٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

آذيت وآنيت»[١].

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾، أي: فإذا انتهت الصلاة وفرغ منها.

﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: تفرقوا فيها.

﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾، أي: اطلبوا من فضل الله، وفضل الله: ما عنده عز وجل من الزيادة والإفضال، والمراد به هنا فضل الرزق الدنيوي بالبيع والشراء ونحو ذلك.

فأمرهم عز وجل أولًا: بالسعي للاجتماع لذكر الله: الخطبة والصلاة، وترك البيع، ثم أمرهم بعد قضاء الصلاة بالتفرق في الأرض وطلب الرزق من الله.

وفي الأمر بطلب الرزق- مع أنه أمر جبل عليه الإنسان- إشارة إلى أن التحريم للبيع في وقت الصلاة لا يمثل حرجًا، فصلوا ثم انتشروا وبيعوا واشتروا.

وإشارة إلى أن الشرع إذا منع من شيء أباح أشياء، وأن الأصل في الأشياء الحل.

قال ابن كثير[٢]: «لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء، وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله، فنهاهم أولًا عن البيع بعد النداء، ثم أمرهم بعد قضاء الصلاة بالانتشار في الأرض، والابتغاء من فضله على سبيل الإباحة والرخصة؛ لأن الأمر بعد الحظر يفيد الإباحة والرخصة، والله عز وجل يحب أن تؤتى رخصه كما جاء في الحديث»[٣].

وكان طائفة من السلف يعمد إلى البيع والشراء في هذا الوقت اتباعًا لأمر الله عز وجل وطلبا لبركة هذا الوقت.

عن عراك بن مالك- رضي الله عنه- أنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب

(١) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة ١١١٥- من حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٤٩.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ١٠٨- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته».

المسجد، فقال: «اللهم أجبت دعوتك وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»(١).

وروي عن بعض السلف أنه قال: «من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرة؛ لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾»(٢).

﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، أي: واذكروا الله ذكرًا كثيرًا بتسبيحه وتحميده وتهليله وتكبيره وغير ذلك، حال انتشاركم في الأرض وابتغائكم الرزق من الله وحال بيعكم وشرائكم، وفي جميع أحوالكم وتقلباتكم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

أي: إنكم وإن كنتم خرجتم من ذكر الله عز وجل في خطبة الجمعة وصلاتها فاستمروا على ذكر الله، ولا تنقطعوا عن ذكر الله حتى في حال طلبكم الرزق، ولا تشغلكم الدنيا عن ذكر الله- عز وجل.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل سوقًا من الأسواق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير كتب له ألف ألف حسنة، ومحي عنه ألف ألف سيئة»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٦.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٤٩.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات- ما يقول إذا دخل السوق ٣٤٢٨، وابن ماجه في التجارات والأسواق ودخولها ٢٢٣٥، وأحمد ١/ ٤٧- من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه.

سبب النـزول:

عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: «قدمت عير المدينة ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج الناس، وبقي اثنا عشر رجلًا، فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾»[(١)].

وفي رواية عن جابر- رضي الله عنه- قال: «بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عير إلى المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو تتابعتم، حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي نارًا» ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾. وقال: كان في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما»[(٢)].

وعن جابر- رضي الله عنه- أنهم كانوا إذا نكحوا تضرب الجواري بالمزامير، فيشتد الناس إليهم ويدعون رسول الله ﷺ قائمًا، فنزلت هذه الآية»[(٣)].

وقد قيل: إن هذه القصة وقعت لما كان الرسول ﷺ يقدم الصلاة على الخطبة.

روى ذلك أبو داود في مراسيله[(٤)].

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾.

الواو: استئنافية. والضمير «الواو» يرجع إلى الصحابة الذين كانوا أمامه ﷺ وهو

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجمعة ٤٨٩٩، ومسلم في الجمعة قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ ٨٦٣، والترمذي في التفسير ٣٣١١، وأحمد ٣/ ٣١٣.

(٢) أخرجه أبو يعلى فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٥٠.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٤٨- بإسناد صحيح، وأخرجه أبو عوانة في صحيحه فيما ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٣/ ٧٦.

(٤) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٥٠.

يخطب، وفي الآية شيء من المعاتبة لهم- رضي الله عنهم.

والتجارة: اسم يقع على عقود المعاوضات التي يطلب بها الأرباح كالبيع والشراء ونحو ذلك.

والمراد بها هنا: العير التي قدمت المدينة تحمل البضائع.

﴿أَوْ لَهْوًا﴾ قيل: إنهم كانوا يستقبلون التجارة بالطبل والتصفيق، وقيل مع هذه التجارة طبل.

﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾، أي: خرجوا إليها. والضمير يعود إلى التجارة، لأنها هي المقصودة بالخروج، واللهو تبع لها. والمعنى انفضوا إلى ذلك.

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾، أي: وتركوك قائمًا تخطب، أو قائمًا في الخطبة.

أما خروج الصحابة رضي الله عنهم وهو يخطب، فقد يكون في بداية الأمر قبل استقرار الأحكام، وربما اعتقدوا أن هذا كغيره من المجالس، وخاصة أنه قيل: إن ذلك لما كانت الخطبة بعد الصلاة، أو يكون ذلك؛ لشدة حاجتهم، أو غير ذلك.

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، أي: قل لهم يا محمد الذي عند الله من الأجر والثواب العظيم في الجنة خير وأفضل من اللهو والتجارة.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، أي: أنه عز وجل هو الرازق والرزاق وحده، والرزق كله بيده، فاعبدوه، واطلبوا الرزق منه في وقته، وتوكلوا عليه، كما قال عز وجل: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وليس معنى ذلك أن هناك رازقًا غير الله، بل هو الرازق والرزاق وحده، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨].

وإنما قد يكون بعض المخلوقين سببًا للرزق فقط. أما الرازق والرزاق حقًا فهو الله عز وجل مسبب الأسباب، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾

[المؤمنون: ١٤]. فالخالق حقًّا هو الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الفوائد والأحكام:

١- تنبيه المؤمنين بأهمية الخطاب الموجه إليهم بتصديره بالنداء، وتشريفهم وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان حثًّا على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعد هذا النداء من أمر ونهي؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- مشروعية النداء لصلاة الجمعة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾.

٣- وجوب السعي إلى صلاة الجمعة وخطبتها بعد النداء الثاني لها وترك البيع بعد ذلك وأن في ذلك الخير كل الخير لمن لديه علم ينتفع به؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٤- تحريم البيع بعد النداء الثاني يوم الجمعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾.

قال ابن كثير(١): «ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني. واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة».

وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى صحة البيع، وإن كان البيع في هذا الوقت محرمًا بالإجماع.

٥- إن الصلاة أعظم ذكر الله تعالى.

٦- مشروعية الانتشار والتفرق في الأرض بعد قضاء صلاة الجمعة وطلب الرزق من الله وذكر الله بتسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وغير ذلك في جميع الأوقات، والوعد بالمجازاة على ذلك بالفلاح والسعادة في الدارين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٩.

ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٧- العتاب اللطيف للمؤمنين الذين خرجوا وتركوا الرسول ﷺ قائمًا يخطب لما رأوا التجارة واللهو؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾.

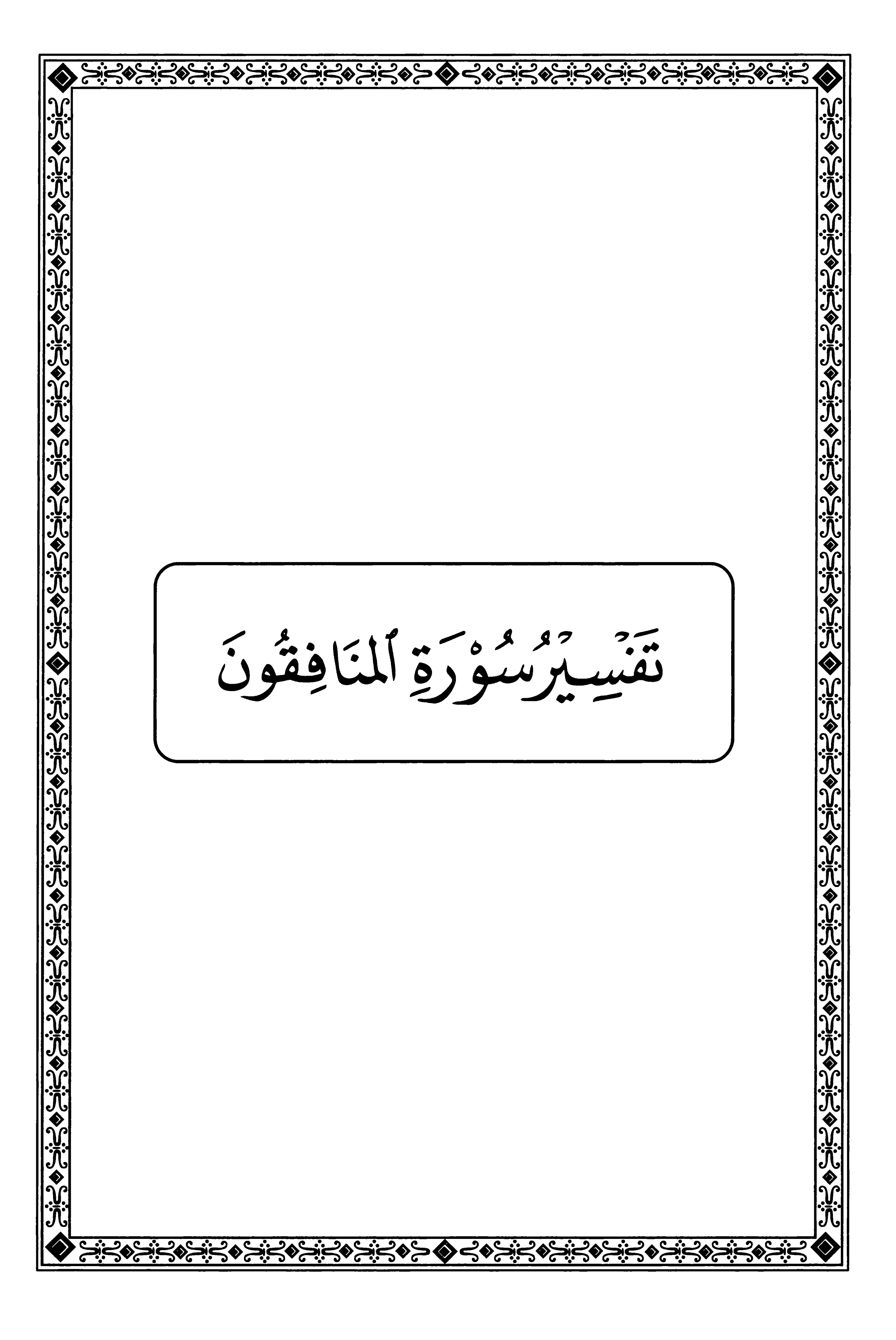
٨- أن المشروع في الخطبة أن يكون الخطيب قائمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾، وفي الحديث: «كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس»(١).

٩- أن ما عند الله من الأجر والثواب العظيم في الجنة خير وأفضل من اللهو ومن التجارة، ومن الدنيا بحذافيرها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ﴾.

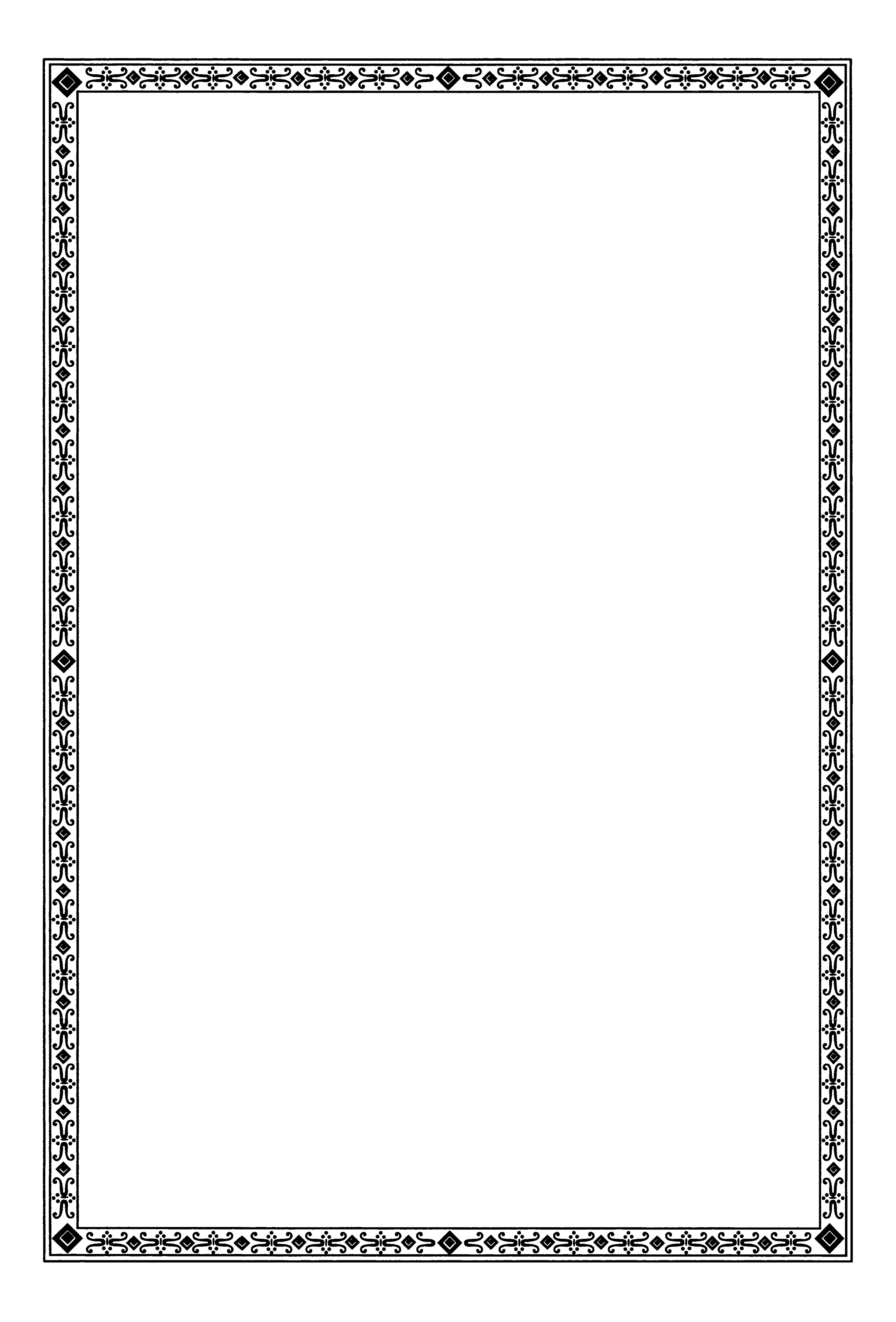
١٠- أن الأرزاق كلها بيد الله- عز وجل- وهو خير الرازقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

* * *

(١) أخرجه مسلم في الجمعة- ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة ٨٦٢، وأبو داود في الصلاة ١٠٩٤، والنسائي في الجمعة ١٤١٨ من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلمنَافِقُونَ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المنافقون»؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [الآية: ١]، ولذكر أحوالهم القبيحة وصفاتهم السيئة فيها.

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- فضلها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين(١).

د- موضوعاتها:

١- تحدثت آيات السورة- فيما عدا ربعها الأخير- عن كذب المنافقين وكشفت نواياهم ودسائسهم الخبيثة، وأحوالهم وأعمالهم السيئة، وحذرت منهم وذمتهم غاية الذم وتوعدتهم.

٢- تحذير المؤمنين من الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله، وأمرهم بالإنفاق من رزق الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

* * *

(١) سبق تخريجه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

سبب النـزول:

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في سفر، أصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته. فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله. فاجتهد يمينه: ما فعل. فقالوا: كذب زيد رسول الله. فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله عز وجل تصديقي في: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، فدعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم، فلووا رؤوسهم. وقوله: ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ قال: كانوا رجالًا أجمل شيء»(١).

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فكسع(٢)رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة» وقال عبد الله بن أبي ابن سلول: وقد فعلوها؟! والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المنافقون ٤٩٠٣. ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٢٧٧٢، والترمذي في تفسير سورة المنافقون ٣٣١٢، وأحمد ٤/ ٣٦٨- ٣٦٩، ٣٧٣.

(٢) أي: ضربه.

قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك. فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»(١).

وروى ابن إسحاق في قصة بني المصطلق في غزوة المريسيع- قال: «فبينا رسول الله ﷺ مقيم هناك، اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري، وكان أجيرًا لعمر بن الخطاب، وسنان بن وَبْر. قال: ازدحما على الماء فاقتتلا، فقال سنان: يا معشر الأنصار. وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين- وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا. والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك»، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من عنده من قومه، وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها. فسمعها زيد بن أرقم، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو- غُلَيِّمٌ- وعنده عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- فأخبره الخبر، فقال عمر- رضي الله عنه-: يا رسول الله، مر عبّاد بن بشر فليضرب عنقه. فقال ﷺ: «فكيف إذا تحدث الناس- يا عمر-: أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا، ولكن ناد يا عمر في الرحيل».

فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم- وكان عند قومه بمكان- فقالوا: يا رسول الله، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم، ولم يثبت ما قال الرجل.

وراح رسول الله ﷺ مهجرًا في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال: والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله ﷺ: «أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي؟ زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المنافقون ٤٩٠٣، ومسلم في البر- نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا ٢٥٨٤، والترمذي في التفسير ٣٣١٥، وأحمد ٢/ ٣٩٢- ٣٩٣.

الأذل». قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل. ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاء الله بك، وإنا لننظم له الخرز لِنُتَوِّجه، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكًا.

فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا، وليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى، ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين»(١).

قوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾.

قوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ﴾، «إذا» ظرفية شرطية. والخطاب في «جاءك» للنبي ﷺ.

﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ جمع منافق، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، سموا بذلك أخذًا من نافقاء «اليربوع»، وهو دويبة صغيرة أكبر من الفأرة، يتخذ جحرًا في الأرض، ويجعل في آخره النافقاء ليس بينها وبين سطح الأرض سوى قشرة رقيقة جدًا، فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج.

فأخذ النفاق والمنافقون من هذا المعنى. وذلك أن المنافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وإذا لقي المؤمنين قال: إنه مؤمن، وإذا لقي غير المؤمنين من المنافقين وغيرهم قال: أنا معكم، وقولي للمؤمنين أنا مؤمن مجرد استهزاء بهم، فيتخلص بهذا من ملامة هؤلاء وهؤلاء قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝١٤ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

كما قال تعالى عنهم هنا: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾.

قوله: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾، أي: قالوا قولًا ظاهرًا بألسنتهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣٠٣- ٣٠٥، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٤٥- ١٥٥.

﴿لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ على وجه الكذب والنفاق منهم، زاعمين مواطأة قلوبهم لما نطقت به ألسنتهم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾، أي: فلا حاجة إلى شهادتهم هذه الشهادة الظاهرة ووسط هذه الجملة بين قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وبين الرد عليهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ للدلالة على عدم الحاجة لشهادتهم، وأن قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ في حد ذاته حق وصدق، وإن كانوا لا يعتقدون ذلك.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾؛ لأنهم لا يعتقدون صحة ما يقولون، بل يُكذِّبون برسالته وبما جاء به من عند الله ولا يشهدون أن محمدًا رسول الله كما أنهم لا يشهدون: أن لا إله إلا الله على الحقيقة.

فقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ مع أن هذا أمر معلوم للرسول ﷺ ذكر- والله أعلم- من باب المقابلة لقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فرد الله عليهم بأمرين: علمه عز وجل بأن محمدًا ﷺ رسوله، وشهادته عز وجل بكذب المنافقين في زعمهم أنهم يشهدون أنه رسول الله.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾، أي: جعلوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾، وهي: جمع يمين، أي: حلفهم ﴿جُنَّةً﴾، أي: سترًا ووقاية لدمائهم وأموالهم وأعراضهم؛ لتسلم من القتل والسلب والاستحلال، كما حصل من عبد الله بن أبي وغيره؛ لأن من دخل في الإيمان عُصم دمه وماله وعرضه، فهم كما قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

و«جنة» من الاجتنان، وهو الاستتار، ومنه سمي «الجنان»- وهو القلب- لأنه مستتر، وسمي «الجن»؛ لأنهم مستترون، وسمي «المجن»؛ لأنه يستتر به، وتتقى به السهام، ويقال: جَن الليل، أي: ستر الكون بظلامه وهكذا.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: فأعرضوا بأنفسهم عن سبيل الله، أي: عن طريقه ومنهجه ودينه، وصدوا غيرهم، فاغتر بهم من لا يعرف حقيقة أمرهم، فصدقهم فيما يقولون واقتدى بهم فيما يفعلون، مع ما هم عليه من خبث القول والعمل، ولهذا قال:

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أي: إنهم ساء وقبح الذي كانوا يعملون، أو عملهم، من الكفر والشهادة بالكذب، والاتقاء بالأيمان الكاذبة، والصد عن سبيل الله، فمن قلدهم فيما يقولون ويفعلون صدوه عن الإيمان بالله وطريقه؛ لأنهم لا يعملون إلا سيئًا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الإشارة لما حصل منهم من أعمال سيئة، أي: إنهم إنما حصل لهم ما حصل من النفاق والشهادة بالكذب واتخاذ الأيمان وقاية وسوء العمل، بسبب تذبذبهم، وأنهم آمنوا وصدقوا ظاهرًا بألسنتهم وجوارحهم الظاهرة، وكفروا وجحدوا باطنًا في قلوبهم، أو أنهم نطقوا بالشهادة وقاموا بالأعمال الظاهرة ثم كفروا بأن ظهر منهم من الأقوال والأفعال ما يدل على كفرهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] أي: وظهر كفرهم بعد إسلامهم، وكقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

وأيضًا آمنوا، أي: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم كفروا، أي: نطقوا بالكفر عند شياطينهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

فهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. وقيل آمنوا ثم ارتدوا.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: فختم على قلوبهم بسبب كفرهم ونفاقهم بعد إيمانهم.

﴿فَهُمْ﴾، أي: فهم بسبب ذلك الطبع على قلوبهم.

﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا فقه لديهم، ولا علم ولا فهم ولا معرفة يهتدون بها إلى

طريق الحق والخير.

قال ابن كثير[١]: «أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي».

﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾، الواو: عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له أي: وإذا شاهدتهم يا نبي الله، وإذا شاهدتهم أيها المشاهد.

﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾، أي: تعجبك أجسامهم؛ لطولها وضخامتها، واستواء خلقها، وجمالها ونضارتها وحسن أشكالها وصورها.

﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾، أي: وإن يتكلموا تصغ أنت ومن يسمعهم لكلامهم لبلاغتهم وفصاحة ألسنتهم، ظانًا صدقهم؛ لأنهم ذوو فصاحة ولسن، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩].

﴿كَأَنَّهُمْ﴾، أي: كأنهم في أجسامهم التي تعجب الناظر لها ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾. «خشب» جمع خشبة، وهي ما يقتطع من سيقان بعض الأشجار الكبيرة كأشجار الأثل وغيرها.

﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾، أي: مسندة على جدار أو على شجر أو غير ذلك، أو إلى شيء يسندها، لأنه لا يمكن أن تعتمد على نفسها، وهي في هذه الحال لا ينتفع بها بل هي ثقل على ما أسندت إليه، فهم كذلك مع كون أجسامهم تعجب الناظر إليها بشكلها ونضارتها لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم، ولا نفع فيهم ولا شفع، أشبه بالأخشاب المسندة على الجدران، وخضراء الدمن، والطبول الجوفاء، صور بلا حقائق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان عبد الله بن أبي وسيمًا جسيمًا صحيحًا صبيحًا ذلق اللسان، فإذا قال: سمع النبي ﷺ مقالته»[٢].

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٥١.

(٢) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ١٢٤ – ١٢٥.

قال الطبري[١]: «لا خير عندهم، ولا فقه لهم، ولا علم، وإنما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول».

وقال ابن كثير[٢]: «فهم جهامات وصور بلا معاني». كما قيل: الطول طول النخلة، والعقل عقل الصخلة[٣]، وكما قال حسان رضي الله عنه[٤]:

لا بأس في القوم من طول ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يظنون كل هيعة، وكل واقعة كائنة أنها نازلة بهم، وأنهم المقصودون بها، لريبهم ونفاقهم وخبثهم وسوء ظنهم وضعف يقينهم وجبنهم وخورهم وشدة خوفهم، كما يقال: «كاد المريب أن يقول: خذوني»[٥]، فإذا صاح صائح، أو نادى مناد في العسكر أو في المدينة أو هنا أو هناك لأي أمر ظنوه إيقاعًا بهم، وخافوا من افتضاح نفاقهم، أو أن ينزل بهم ما يبيح دماءهم وأموالهم، فهم دائمًا في خوف وقلق، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

ففقدوا الأمن والطمأنينة، وأحاطت بهم المخاوف من كل جانب بسبب نفاقهم وعدم إيمانهم، وصدق الله العظيم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم اللعنة، وطعامهم نُهبة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلا هُجْرًا،

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٥٣.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٥٢.
(٣) انظر: «الأمثال العامية في نجد» لمحمد بن ناصر العبودي ٢/ ٧٨١.
(٤) انظر: «ديوانه» ص١٢٩.
(٥) انظر: «التمثيل والمحاضرة» ص٤٤، «المستطرف» ص٣٨.

ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا، مستكبرين، لا يألفون، ولا يؤلفون، خُشُبٌ بالليل، صُخُبٌ أو سُخُبٌ بالنهار»(١).

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾، أي: هم العدو الحقيقي، العدو المطلق، الكاملون في العداوة لك وللمؤمنين؛ لأن العدو البارز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي وهو العدو المبين؛ كما قال تعالى عن الشيطان: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨، ٢٠٨، الأنعام: ١٤٢].

﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾، أي: كن منهم على حذر ويقظة، واحتراز واحتياط، ولا تغتر بظاهرهم وزعمهم الإيمان والأخوة للمؤمنين، فهم أشد عداوة للرسول ﷺ وللمؤمنين من جميع الكفار، وضررهم على المؤمنين أشد من الكفار الظاهرين؛ لأن الكفار الظاهرين يُعرفون ويُحترز منهم، أما المنافقون فهم بين ظهراني المؤمنين، ويصعب الاحتراز منهم.

ولشدة عداوتهم وخطرهم على المؤمنين كان عذابهم أشد من جميع الكفار كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ولهذا يقدم ذكرهم في باب الوعيد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠] وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

قال ابن القيم(٢): «هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٣: قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩/ ٢٢٣: «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجالهم رجال الصحيح». ومعنى «هجرًا»، أي: إعراضًا وتركا، و«دبْرًا»، أي: في آخرها وآخر وقتها. خشب بالليل: أي: كأنهم خشب ملقاة على الأرض، وهو كناية عن أنهم لا يُصلون في الليل، صُخُبٌ أو سُخُب بالنهار: أي: يكثر صخبهم وصياحهم بالنهار على الدنيا شحًا وحرصًا.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٥٣.

يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرًا وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة، وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم، وهم في الباطن على خلاف دينهم أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة، أو أيامًا، ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل، صباحًا ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكن مناجزتهم فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًا من الكفار المجاهرين».

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أي: أهلكهم ولعنهم الله وأخزاهم كيف يُصرفون عن الحق وإلى أي وجه يُصرفون عن الحق مع البيان وقيام البرهان، وهذا حكم من الله عليهم بالهلكة، وتعليم لعباده وأمر لهم أن يدعوا عليهم بذلك.

الفوائد والأحكام:

١- تشريف الله- عز وجل- لرسوله ﷺ وتكريمه له بخطابه تعالى له، وعنايته به ودفاعه عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الآيات.

٢- شهادة المنافقين ظاهرًا بأنه ﷺ رسول الله، وشهادة الله تعالى إنهم لكاذبون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

٣- إثبات علم الله- عز وجل- أن محمدًا رسوله، وإثبات رسالته ﷺ، فلا حاجة لشهادة المنافقين الكاذبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

٤- فضح سرائر المنافقين وشهادة الله- عز وجل- وهو خير الشاهدين- بكذبهم في زعمهم أنهم يشهدون أن محمدًا رسول الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

٥- تستر المنافقين بأيمانهم الكاذبة وقاية لأنفسهم وأموالهم وصدهم عن سبيل الله

بأنفسهم ولغيرهم، وبئس الصنيع صنيعهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

٦- تذبذب المنافقين بإظهارهم الإيمان وقيامهم بالأعمال الظاهرة وكفرهم وجحودهم في الباطن؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾.

٧- معاقبتهم بسبب نفاقهم وتذبذبهم بالختم على قلوبهم فلا يفقهون ولا يعلمون ما ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾.

٨- حسن مظهر المنافقين وكلامهم، مما يعجب المشاهد، ويبهر السامع، مع سوء مخبرهم، فهم أشبه بالخشب المسندة والطبول المجوفة؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾.

٩- قلق المنافقين وشدة خوفهم وريبتهم، وظنهم أن كل صيحة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾.

١٠- أن المنافقين هم العدو الحقيقي للرسول ﷺ وللمؤمنين، وللإسلام؛ لأنهم بين ظهراني المؤمنين فهم أشد وأخطر من الكفار الظاهرين فيجب الحذر كل الحذر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾.

١١- لعن المنافقين وإهلاكهم؛ لعظيم خطرهم، وشرهم، والتعجب من انصرافهم عن الحق مع البيان وقيام البرهان؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ الواو: عاطفة و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، و«قيل» فعل الشرط.

وقوله: ﴿قِيلَ﴾ بالبناء للمجهول، ولم يقل: وإذا قال الله لهم، أو قال لهم رسوله، أو قال لهم المؤمنون؛ ليشمل أي قائل لهم.

﴿لَهُمْ﴾، أي: للمنافقين، وعلى رأسهم زعيمهم عبد الله بن أبي رأس المنافقين.

﴿تَعَالَوْا﴾، أي: هلموا وأقبلوا.

﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ الجملة جواب شرط مقدر، أي إن تقبلوا يستغفر لكم رسول الله، أي: يطلب لكم رسول الله من الله مغفرة ذنوبكم، بسترها عن الخلق والتجاوز عن عقوبتها.

﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ جواب شرط «إذا». قرأ نافع وروح بتخفيف الواو الأولى: «لَوَوْا»، وقرأ الباقون بتشديدها.

وقراءة التخفيف على أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة، وقراءة الباقين تدل على تكرارهم ذلك.

ومعنى ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾، أي: أمالوا رؤوسهم وأعناقهم، وهزوا رؤوسهم؛ استهزاء برسول الله ﷺ، وإشارة فعلية تدل على إبائهم واستكبارهم.

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾، أي: وشاهدتهم يعرضون بأبدانهم وقلوبهم.

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونهم مستكبرين، أي: أن صدودهم وإعراضهم عما قيل لهم إنما سببه استكبارهم وأنفتهم واحتقارهم لما قيل لهم ولمن قاله، حتى قال عبدالله بن أبي: «ما بقي إلا أن أسجد لمحمد»(١).

وهكذا يحمل الكبر صاحبه- عياذًا بالله- على رد الحق والصد والإعراض عنه- كما قال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢)، أي: رد الحق وازدراء الناس وتنقصهم.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، أي: سواء على هؤلاء المنافقين الذين لووا رؤوسهم؛ استكبارًا وعنادًا واستهزاء سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم، أم لم تسأله ذلك.

﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، أي: لن يستر ذنوبهم ويتجاوز عن عقوبتهم عليها، بل سيفضحهم بها، ويعاقبهم عليها، كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾، أي: إن الله لا يوفق القوم الخارجين عن طاعته عز وجل.

فالهداية المنفية عنهم هي الهداية الخاصة بالله- عز وجل- هداية التوفيق والقبول، لا الهداية العامة فقد دلهم الله عز وجل وأرشدهم، هم وغيرهم بكتابه وعلى لسان رسوله ﷺ إلى ما فيه خيرهم، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهذا من إرشادهم، لكنهم كما ذكر الله عنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فبسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله- عز وجل- حرموا هداية التوفيق من

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦٥٨.

الله عز وجل، كما قال عز وجل عن الكفار: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٥، ١٥٦].

﴿هُمُ﴾، أي: المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ لإخوانهم من المنافقين وغيرهم:

﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، يعني: من المهاجرين رضي الله عنهم الذين هاجروا وتركوا ديارهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم ابتغاء وجه الله.

﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾، أي: حتى يخرجوا من المدينة، ويتفرقوا عن رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن أبي- لعنه الله-: «لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله»، وقال لقومه: «هكذا صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها»(١).

وكأنهم بهذا القول من أكرم الناس، وهم أبخلهم، وكأنهم المتكفلون بنفقة المؤمنين، ولهذا رد الله عليهم بقوله:

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، «لله» جار ومجرور خبر مقدم؛ لإفادة القصر والحصر، أي: إن خزائن ملك السموات والأرض وما فيهما من الأموال والأرزاق وغير ذلك له وحده دون سواه، فيؤتي الرزق من يشاء ويمنعه من يشاء، وييسر أسبابه لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء، وهو المتكفل بأرزاق جميع الخلق، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ

---

(١) سبق تخريجه في ذكر سبب نزول السورة.

مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] ورزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره، ولو كان أحد يستطيع أن يمنع رزق أحد لمات جُلُّ الناس جوعًا، ولما عاش العصفور مع الصقر.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا فقه عندهم على الحقيقة؛ إذ كيف يقولون هذه المقالة، التي فحواها أن نفقة من عند رسول الله ﷺ عليهم، وأن خزائن الأرزاق في أيديهم وتحت مشيئتهم.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ كما قال كبيرهم عبد الله بن أبي: «والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»(١).

أي: يقولون مقسمين: لئن رجعنا وعدنا، يعني: من السفر، وكان ذلك في غزوة المريسيع.

﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾، يعني: المدينة النبوية مدينة رسول الله ﷺ.

﴿لَيُخْرِجَنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن.

﴿ٱلْأَعَزُّ﴾، أي: الفريق الذي هو أعز، و«أعز» على وزن «أفعل» اسم تفضيل، أي: الفريق الذي بلغ أعلى درجات العز، يعنون به أنفسهم. وهم أذل وأخس وأحقر خلق الله وأهونهم على الله، وعلى خلقه في الدنيا والآخرة، فحياتهم في الدنيا حياة مادية بهيمية كحياة الحمار، مع الشقاء والتذبذب وفقدان السعادة، ومصيرهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار.

﴿مِنْهَا﴾، أي: من المدينة.

﴿ٱلْأَذَلَّ﴾، أي: الفريق الذي هو أذل، و«أذل» على وزن «أفعل» اسم تفضيل، أي:

---

(١) سبق تخريجه في ذكر سبب نزول السورة.

الفريق الذي بلغ أدنى درجات الذل ويقصدون بذلك- أخزاهم الله- الرسول ﷺ وأصحابه. وكما يقال: اعكس تصب، فإن الذي بلغ غاية الذل والمهانة والحقارة هو عبد الله بن أبي وأشياعه من المنافقين، وهل هناك أذل وأحقر ممن كفر بالله، بل وأظهر الإيمان خوفًا من الخلق، فأذله الله.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾، أي: ولله- عز وجل- وحده العزة التامة بجميع معانيها وأنواعها:

عزة الامتناع، فهو- عز وجل- ممتنع عن كل عيب ونقص، وعن أن ينال بسوء.

وعزة القهر والغلبة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

وعزة القوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

فهو- عز وجل- ذو العزة التامة- كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وهو عز وجل صاحب العزة، كما قال عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وكل عزة مستمدة من عزته عز وجل؛ ولهذا قال هنا:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعزة الرسول ﷺ والمؤمنين من عزة الله عز وجل، لأن العز كل العز بطاعة الله- عز وجل- قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

كما أن الذل كل الذل بمعصية الله عز وجل؛ ولهذا لا أذل بعد إبليس من المنافقين، لأنهم بلغوا من المعصية والكفر بالله منتهاه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: ولكن المنافقين لا يعلمون حقيقة أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

فنفى عنهم الفقه أولًا، ثم نفى عنهم العلم ثانيًا، وهو تدرج في الذم لهم من سيءٍ إلى أسوأ منه، فالذي لا يعقل هو الذي لا يستطيع الفهم والإدراك والاستنباط بعقله، وأسوأ منه الذي لا يعلم فهو مع كونه لا يستطيع الإدراك بعقله لا يستطيع أيضا أن يعلم ويعرف ما أدركه غيره واستنبطه، وهذا غاية الغباء والجهل.

وأسوأ من هذا الذي لا يشعر فلا يدرك ولا يحس ولا بما تدركه الحواس الظاهرة فهو معدوم الإحساس، كما وصفهم بهذا في سورة البقرة في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

وقد روي: «أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وقف على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك، فقال: مالك؟ ويلك. فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقة، فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله، والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن»(١).

وروى ابن إسحاق وغيره: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي، فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلًا فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، فأدخل النار فقال

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦٦٢- ٦٦٣، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٥٩.

رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»(١).

ومما ينبغي أن يعلم خطر النفاق، وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يشعر، مما يوجب الحذر والخشية منه، وقد قال عبد الله بن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل»(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحذيفة رضي الله عنه: «يا حذيفة نشدتك بالله، هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم- يعني من المنافقين- ؟ قال: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا»(٣).

وقال الحسن: «ما أمن النفاق إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن»(٤).

الفوائد والأحكام:

١- تكبر المنافقين وليهم رؤوسهم، وصدودهم وأنفتهم من المجيء إلى الرسول ﷺ ليستغفر لهم وعن قبول الحق والانقياد له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

٢- تيئيس المنافقين من مغفرة الله لهم سواء استغفر لهم الرسول ﷺ أو لم يستغفر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

٣- عدم توفيق الله للمنافقين ولغيرهم من الفاسقين الخارجين عن طاعة الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٢٩٢- ٢٩٣، «جامع البيان» ٢٢/ ٦٩٩- ٦٧٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٥٩.

(٢) انظر «فتح الباري» ١/ ١٠٩، «مجموع الفتاوى» ١٠/ ١٠٧.

(٣) انظر ترجمة حذيفة في: «تاريخ دمشق»، «كنز العمال» ١٣/ ٣٤٤، «مدارج السالكين» ١/ ٣٩٩.

(٤) انظر «صفة المنافقين» للفريابي ص ٦٠-٦١، و«فتح الباري» ١/ ١٠٩.

٤- محاولة المنافقين الإضرار بالمؤمنين اقتصاديًا بمنع الانفاق عليهم ليضطروهم للخروج من المدينة، وكأنهم المتكفلون بأرزاق العباد؛ لقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾.

٥- بيان أن خزائن السموات والأرض كلها لله والأرزاق كلها بيده يرزق من يشاء ويحرم من يشاء لكن المنافقين لا يفقهون هذه الحقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

٦- فضح عبد الله بن أبي في مقالته السيئة المشينة: «ليخرجن الأعز منها الأذل» وتبنيه مع أتباعه من المنافقين إخراج الرسول ﷺ والمؤمنين من المدينة، وإذلال الله- عز وجل له، وتخييب أمله، وإبطال كيده؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾.

٧- إثبات أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن الذل لمن خالف أمر الله ورسوله من المنافقين وغيرهم، ولكن المنافقين لا يعلمون هذه الحقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨- أن العز كل العز في طاعة الله تعالى ورسوله، وأن الذل كل الذل في معصية الله ورسوله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾.

ذكر الله عز وجل فيما سبق من السورة أحوال المنافقين ومواقفهم ومقالاتهم المخزية ثم ختم الله عز وجل السورة بنهي المؤمنين عن الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله وأمرهم بالإنفاق مما رزقهم الله قبل حلول الأجل وانقطاع العمل.

وفي هذا تحذير من مسلك المنافقين وصفاتهم الذميمة، وهي الانشغال بالأموال والأولاد، ومنع الإنفاق من رزق الله، لأنهم ينظرون للحياة نظرة مادية فقط.

قوله: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾، أي: لا تشغلكم أموالكم، والأموال: كل ما يتمول من دراهم وعقار وأثاث وغير ذلك.

﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾، أي: ولا تشغلكم أولادكم. والأولاد يشمل أولاد الإنسان وأولاد بنيه، وإن نزلوا بمحض الذكور.

﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ عام في جميع أنواع ذكر الله من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والثناء على الله عز وجل، والتهليل والتكبير، ودعاء الله واستغفاره والتضرع إليه، وسائر أعمال البر والخير كلها من الواجبات والمستحبات، من أذكار القلب واللسان والجوارح، والأذكار القولية والفعلية وغيرها. لأن بالذكر حياة القلوب، فهو لها كالماء للزرع، وكالماء للسمك لا حياة له إلا به.

قال ابن القيم(١): «المقصود: أن دوام الذكر لما كان سببًا لدوام المحبة وكان الله سبحانه أحق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال كان كثرة ذكره من أنفع ما

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٥٣- ٤٥٥.

للعبد، وكان عدوه حقًا هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته».

وقدم الأموال على الأولاد- والله أعلم- لأنها تشغل أكثر إذا كثرت عند الإنسان- والناس يختلفون في هذا- لكن المنشغلين بالأموال أكثر من المنشغلين بالأولاد.

ولأن الأموال كثيرًا ما تشغل عن ذكر الله وعن الأولاد أيضًا، أي: عن تربيتهم وتعليمهم وتوجيههم، فكم من والد انشغل عن أولاده بسبب أمواله وأعماله.

وأيضًا فإن الانشغال بالأولاد قد ينتهي بكبر الأولاد، لكن الانشغال بالمال يزداد مع كثرته وازدياد الحرص عليه مع الكبر وحتى القبر.

فالمال فتنة وأي فتنة؛ لأن زيادته تكون غالبًا على حساب نقصان الدين، ونقصان نصيب الإنسان من ربه، هذا إذا كان من طرق حلال فكيف إذا كان من طرق محرمة أو مشتبهة مما يجعل الإنسان قلقًا طول حياته. وما خلقنا لهذا، اللهم غفرًا.

قال أبو الفتح البستي(١):

زيادة المرء في دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسران

وكل وجدان حظ لا ثبات له ... فإن معناه في التحقيق فقدان

يا عامرًا لخراب الدار مجتهدًا ... بالله هل لخراب العمر عمران

ويا حريصًا على الأموال يجمعها ... أنسيت أن سرور المال أحزان

زع الفؤاد عن الدنيا وزخرفها ... فصفوها كدر والوصل هجران

وخص الأموال والأولاد في قوله: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنهما من أعظم ما يلهي عن ذكر الله. كما قال عز وجل: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. ولهذا قال تعالى: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠، ١١٦]،

(١) انظر: «ديوانه» ص٣٥.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقد يلتهي الإنسان بغير الأموال والأولاد من حب الرياسة والشهرة والمناصب والرياضة وغير ذلك مما ينتظمه قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] أي: ألهاكم التكاثر في الأموال والأولاد وغير ذلك.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الواو: استئنافية، و«من» شرطية و«يفعل» فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وارتبط الجواب بالفاء لأنه جملة اسمية.

والإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: ومن يلته وينشغل بالأموال والأولاد عن ذكر الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

أي: فأولئك الذين يلتهون بالأموال والأولاد عن ذكر الله ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ و«الخاسرون» جمع خاسر والخسر والخسران: ضد الربح.

وقد أكد الجملة هنا بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: فأولئك هم الخاسرون حقًّا، الذين غُبنوا نصيبهم من الله عز وجل ورحمته وفضله، والذين بلغوا الغاية العظمى في الخسارة، وهي الخسارة في الدين التي لا تشبهها خسارة فخسروا السعادة في الدنيا والآخرة، وخسروا الجنة، والنعيم المقيم في الآخرة؛ لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى.

قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

فالخسارة العظمى، والمصيبة الكبرى، والكسر الذي لا ينجبر أن يصاب الإنسان

في دينه نسأل الله السلامة. وقد أحسن القائل:

وكـــل كســـر فـــإن الله يجـــبره ... ومـا لكســر قنـاة الـدين جـبران[١]

وأي خسارة كخسارة من ألهته الأموال والأولاد عن عبادة الله التي خلق من أجلها، وعن ذكره الذي أمر عز وجل بالإكثار منه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١].

والذي به يذكر الله العبد، كما قال عز وجل: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

والذي هو سبب الفلاح والمغفرة، والأجر العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥، الجمعة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والذي يحوز صاحبه قصب السبق قال ﷺ: «سبق المفردون» قالوا: يا رسول الله، وما المفردون؟، قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»[٢].

والذي هو خير الأعمال وأزكاها- كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله تعالى»[٣].

﴿وَأَنفِقُوا۟﴾، أي: وأنفقوا أيها المؤمنون في سبل الخير كلها من النفقات الواجبة والمستحبة، من الزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وفي الحج، والصدقة على الفقراء والمساكين والمحتاجين، وفي أعمال البر والخير، من بناء المساجد، وتعليم كتاب الله

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٨٠.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء- الحث على ذكر الله تعالى ٢٦٧٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات- فضل الذكر ٣٣٧٧، وابن ماجه في الآداب- فضل الذكر ٣٧٩٠، والحاكم ١/ ٤٩٦ وصححه ووافقه الذهبي.

تعالى، وسنة نبيه ﷺ، وغير ذلك من العلوم النافعة، وفي بناء المدارس ومراكز الخدمات الصحية والاجتماعية، وفتح الطرق وتعبيدها، وحفر الآبار، وغير ذلك من وجوه البر والخير وما أكثرها.

﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾، «من» للتبعيض و«ما» موصولة، أو مصدرية أي: من الذي زرقناكم، أو من رزقنا إياكم- والرزق هو العطاء، أي: مما أعطيناكم من الأموال.

وفي هذا حث لهم على الإنفاق والبذل والعطاء والسخاء في ذلك؛ لأن الرزق من الله- عز وجل- والمال ماله- عز وجل- وهو عارية بيد الإنسان فلِمَ البخل به ومنعه وهو عز وجل الرزاق الذي يخلف على من أنفق، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وفي الحديث: «اللهم أعط منفقًا خلفًا وأعط ممسكًا تلفا»(١)

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، أي: من قبل حضور الموت، بحضور علاماته وأماراته، وحلول سكراته، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

والموت: هو عبارة عن خروج الروح من البدن ومفارقتها له.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾، أي: هلا أجلتني فيكون استفهامًا، وقيل: «لا» صلة، فيكون الكلام بمعنى التمني.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ جواب «لولا»، أي: إلى زمان قريب، أي: قليل.

والمعنى: فيقول يا رب هلا أجلتني وأخرت موتي إلى أجل ووقت قريب، أي: هلا زدت في عمري شيئًا يسيرًا، لأستدرك ما فات.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أصله (فأتصدق) أدغمت التاء في الصاد، أي: فأتصدق من مالي.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قرأ أبو عمرو: ﴿وأكونَ﴾ بالواو ونصب النون.

وقرأ الباقون بجزم النون من غير واو.

والمعنى: فأتصدق وأنفق من مالي، وأعمل أعمالًا صالحة، واستعتب واستدرك ما ضاع من عمري بلا عمل، في هذه المدة اليسيرة. وهيهات، ولات ساعة مندم، ما بعد حضور الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، كما قال عز وجل عن الكفار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

فكل مفرط يود إعطاءه مهلة ليتدارك ما فات ويستعتب من الخطأ والتقصير حتى أهل النار يودون الرجوع إلى الدنيا مع أنهم لو رجعوا لعادوا لما نهوا عنه، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وحتى الذين يتمنون عند الموت المهلة لو أعطيت لهم ما أجابوا الدعوة ولا اتبعوا الرسل ولا أنفقوا ولا عملوا صالحًا؛ لأن الله لو علم فيهم صدقًا فيما يقولون لوفقهم إلى التدارك قبل حضور الموت.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾، أي: ولن يؤجل الله نفسًا وينظرها إذا حضر أجلها، لأن الآجال محدودة، والأنفاس معدودة، كما قال عز وجل: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤، النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥، المؤمنون: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا

تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

وهذا لا ينافي ما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»(٢).

وكذا ما جاء في معنى هذين الحديثين؛ لأنه ليس معنى ذلك أن يزاد في العمر أو ينقص منه، بعد ما كتب وقدر ولكن معنى ذلك أن الله كتب أن هذا يبسط له في رزقه ويطول عمره بسبب صلته لرحمه، وأنه أيضًا يبارك الله لمن فعل ذلك في رزقه وعمره، وفي عقبه وذريته كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر، فقال: «إن الله لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها، وإنما الزيادة في العمر أن يرزقه الله ذرية صالحة، يدعون له، فيلحقه دعاؤهم في قبره»(٣)

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿بما يعملون﴾ بالياء.

وقرأ الباقون بالتاء: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله خبير بالذي تعملون، أو بعملكم.

و«الخبير» المطلع على بواطن الأمور، فهو أخص من العليم، وإذا كان مطلعًا على البواطن فاطلاعه على الظواهر من باب أولى. فهو عز وجل عليم بأعمال العباد باطنها

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٦٧، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ١٥٩.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٦٠.

وظاهرها خفيها وجليها دقيقها وجليلها، لا تخفى منها عليه خافية، وسيجازي كلًا بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير خطاب المؤمنين بالنداء للتنبيه لهم والعناية بخطابهم والاهتمام به؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، ووجوب امتثال ما بعد هذا النداء من أمر واجتناب ما بعده من نهي؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣- التحذير من الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله وما يقرب إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

٤- أن الخاسرين حقًا من انشغلوا عن ذكر الله- عز وجل- وطاعته بالأموال والأولاد وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

٥- الأمر بالإنفاق في سبيل الله بإخراج النفقات الواجبة من الزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، وبالنفقات المستحبة والصدقات المندوبة في وجوه البر كلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾.

٦- الحث والترغيب في المبادرة إلى الإنفاق في سبيل الله ووجوه البر قبل حضور الموت وعلاماته؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

٧- تذكير الإنسان بأن ما عنده من مال هو من رزق الله وأن المال مال الله- عز وجل- وهو وديعة عند الإنسان فلا ينبغي أن يبخل بالإنفاق منه؛ لقوله تعالى: ﴿مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾.

٨- سؤال كل مفرط بالإنفاق والعمل الصالح وتمنيه عند حضور الموت لو أمهل إلى أجل قريب ليستعتب ويتدارك ما فات بالصدقة والعمل الصالح ولكن هيهات

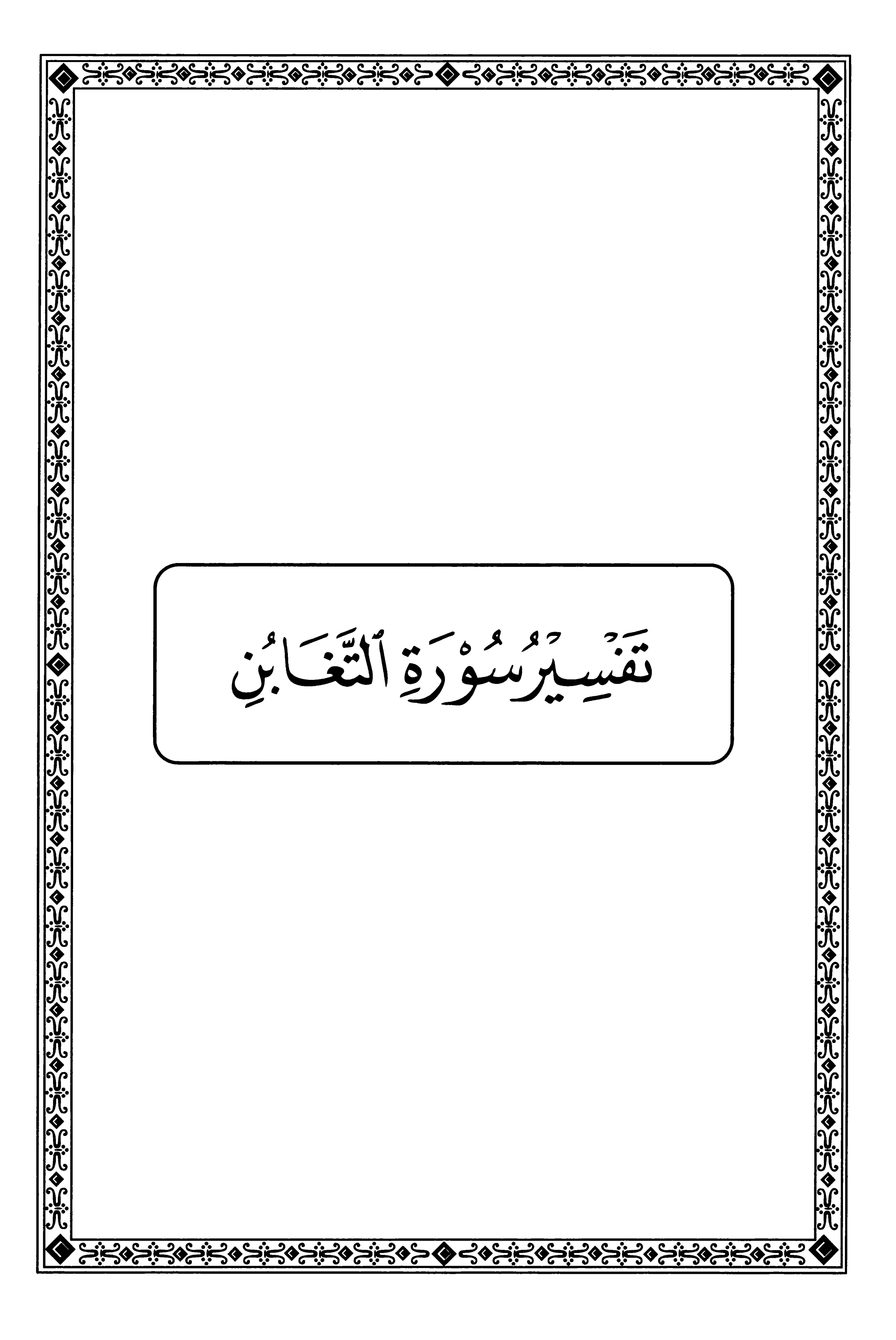
ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ﴾.

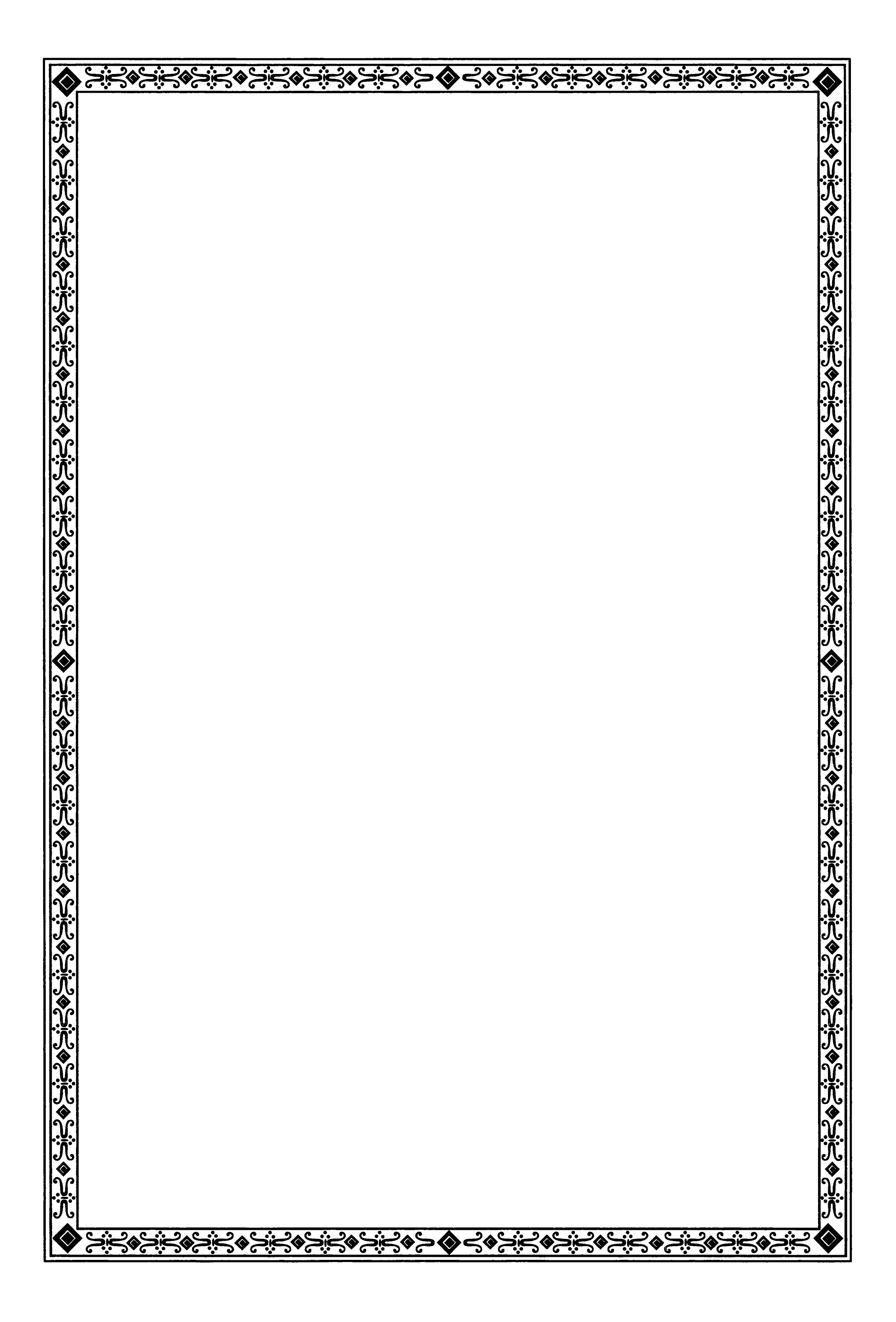
١٠- أن لكل أجل كتابًا، وأجل الله إذا جاء لا يؤخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾.

١١- سعة خبرة الله- عز وجل- وعلمه واطلاعه على أعمال العباد، ومجازاته كلًّا منهم بما عمل، وفي هذا وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلتَّغَابُنِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة التغابن»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [الآية:٩].

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقيل: مكية، وقيل: أولها مكي، وآخرها مدني.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى وتعظيمه والثناء عليه، باختصاصه بالملك والحمد، وقدرته على كل شيء.

٢- بيان مظاهر تمام قدرته عز وجل في خلق بني آدم، وخلق السماوات والأرض، وعلمه ما فيها، وبما يُسر ويُعلن، وبذات الصدور.

٣- التذكير بأخبار المكذبين من قبل للرسل، وما لقوا من العقوبات في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم؛ لكفرهم وتوليهم.

٤- الرد على منكري البعث، وتأكيد أنه حق وصدق: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾.

٥- الأمر بالإيمان بالله ورسوله والقرآن الكريم: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾.

٦- التحذير من يوم القيامة وما فيه من التغابن، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يُدخلون جنات النعيم وذلك الفوز العظيم، والذين كفروا وكذبوا بآيات الله في النار خالدين فيها أبدًا، وبئس المصير.

٧- إثبات القدر، وأن ما يقع من المصائب كل ذلك بقضاء الله وقدره وإذنه الكوني: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾.

٨- الأمر بطاعته عز وجل وطاعة رسوله، وأن مهمته البلاغ المبين، وإثبات وحدانيته ووجوب التوكل عليه.

٩- التحذير من فتنة الأزواج والأولاد والأموال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥)﴾.

١٠- الأمر بتقوى الله حسب الاستطاعة والسمع والطاعة، والإنفاق في سبيله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)﴾.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ سبق الكلام على هذا.

وقد ختم الله- عز وجل- السور المسبحات بهذه السورة، وهن خمس سور: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن.

وأشبهها بمطلع هذه السورة سورة الجمعة ففيها قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وفي سورة الحديد ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وفي سورة الحشر والصف ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ قدّم الخبر وهو الجار والمجرور للدلالة على اختصاصه عز وجل وحده دون غيره بالملك حقيقة.

لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص والحصر، أي: له وحده- عز وجل- الملك، أي: ملك السموات والأرض وما بينهما؛ الخلق خلقه والأمر أمره، وهو مالك الملك وحده، له ملك الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

ويظهر ويتبين كمال ملكه وتمامه يوم القيامة يوم تخضع الأملاك والملوك وما ملكوا له عز وجل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]»(١).

لا شريك له في ذلك كله، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢].

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ قدم الخبر وهو الجار والمجرور لإفادة الحصر والاختصاص، أي: وله عز وجل وحده الحمد التام، كما قال عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١، غافر: ٦٥].

والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، فله- عز وجل- الحمد في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠].

وله الحمد في السموات والأرض وفي جميع الأوقات كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨].

وله حمد جميع ما في السموات والأرض من جميع المخلوقات.

﴿وَهُوَ﴾، أي: وهو سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: على كل شيء من الأشياء، صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا، خفيًّا كان أو جليًّا، أو أيًا كان هذا الشيء.

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: ذو القدرة التامة، فلا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١١، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٨٦، والترمذي في التفسير ٣٢٣٨.

لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾، على الخبر: ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، أي: هو الذي أوجدكم وأنشأكم من العدم وعلى غير مثال سابق، وحده دون سواه. وأصل الخلق: التقدير، ثم التنفيذ والإيجاد.

﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ قدم الكافر على المؤمن- والله أعلم- لأن الكفار هم الكثرة الكاثرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]. وذلك- والله أعلم- إشارة وتنبيه على وجوب الحذر من مسلكهم.

أي: فمنكم أيها الناس كافر قدرًا وكونا. والكفر هو جحود وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته أو شيء من ذلك، ضد الإيمان.

﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، أي: ومنكم أيها الناس ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ قدرًا وشرعًا، والإيمان يشمل الإيمان بالله، بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وبكل ما يجب الإيمان به مما جاء في الكتاب والسنة.

وفي الآية دلالة على أن الله عز وجل قدر مقادير كل شيء قبل خلق الخلق، ومن ذلك الكفر والإيمان، كما جاء في الحديث «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٥٦- من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنه.

بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١).

وليس في تقدير الكفر على الكافرين، والإيمان للمؤمنين حجة لمن كفر أو عصى؛ لأن الله عز وجل أقام الحجة على الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب وبيان الحق من الباطل والهدى من الضلال، والإنسان لا يعلم ما قدر له، فمن بحث عن الهدى والإيمان وتحراه وفق له، ومن أعرض عن ذلك وبحث عن الكفر والشر يسر له كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ١].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: والله بالذي تعملون أو بعملكم.

﴿بَصِيرٌ﴾، أي: مطلع عليه لا تخفى عليه منه خافية، وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن آمن ووعيد لمن كفر.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، أي: أوجد السموات والأرض بالحق والعدل والحكمة فقامت السموات والأرض، وقام الكون كله على الحق والعدل والحكمة والغاية المقصودة له عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾، أي: صور أشكالكم وخالف بينها.

﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ جعلها أحسن المخلوقات صورة، وأجملها وأبهاها منظرًا، فلم يجعلها على صور قبيحة سيئة كصورة القرد أو الحمار، أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً

---

(١) أخرجه البخاري في القدر ٦٥٩٤، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: وإليه وحده- عز وجل- المرجع والمآل والمآب في الدنيا والآخرة- كما قال عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦].

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يعلم جميع الذي في السموات والأرض من الكائنات والمخلوقات، فعلمه محيط بكل شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، أي: ويعلم الذي تسرون وتخفون والذي تعلنون وتظهرون، أو يعلم إسراركم وإعلانكم، أي: إخفاءكم وإظهاركم.

وقدم عز وجل علمه بما يسرون على علمه بما يعلنون؛ تأكيدًا لشمول علمه وعدم خفاء شيء عليه سبحانه، وأن السر عنده كالعلانية، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: والله عليم بصاحبة الصدور، وهي القلوب التي في الصدور قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

أي إنه- عز وجل- ذو علم تام بالقلوب وما تنطوي عليه من المكنونات والأسرار.

كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

وقد أكد عز وجل في هذه الآية كمال علمه وشموله لكل شيء متدرجًا من العام

إلى الخاص إلى ما هو أخص منه فذكر أولا علمه بما في السموات والأرض، ثم عطف عليه علمه بما يسرون وما يعلنون، ثم عطف عليه علمه بذات الصدور، فبدأ بذكر علمه العام، ثم عطف عليه بذكر علمه الخاص، ثم عطف عليه بذكر علمه بأخص الخاص وهو العلم بذات الصدور.

وفي هذا بيان لإحاطة علمه- عز وجل- بكل شيء، ووجوب مراقبته في السر والعلن.

الفوائد والأحكام:

١- تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- اختصاص الله- عز وجل- بالملك وحده دون غيره فله عز وجل الملك والأمر والتدبير؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾.

٣- أن الحمد التام لله عز وجل هو المستحق له وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾.

٤- إثبات كمال قدرة الله- عز وجل- وأنه سبحانه ذو القدرة التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٥- امتنان الله- عز وجل- على الخلق وبيان تمام قدرته في خلقهم ونفوذ قدره الكوني فيهم فمنهم كافر ومنهم مؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

٦- إثبات إحاطة علمه- عز وجل- واطلاعه وبصره بجميع أعمال العباد، ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٧- خلق الله عز وجل السموات والأرض بالحق، وإقامته هذا الكون على العدل؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٨- امتنان الله- عز وجل- على بني آدم بجعل صورهم أحسن الصور وأبهاها منظرًا، وأعدلها خلقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

٩- أن المرجع والمصير والمآب إلى الله- عز وجل- منه البداية وإليه النهاية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٠- سعة علم الله- عز وجل- وإحاطته بما في السموات والأرض وبما يخفي الخلائق وبما يعلنون وبما تنطوي عليه القلوب والضمائر، ومقتضى هذا محاسبة الخلائق ومجازاتهم بأعمالهم، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾.

في هاتين الآيتين تهديد وتحذير للمكذبين الكافرين من هذه الأمة بذكر أخبار المكذبين قبلهم وعقوباتهم وعذابهم.

قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ الاستفهام للتقرير، أي: ألم يأتكم خبر الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله من قبلكم من الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم. والخطاب لعموم الناس الذين بعث فيهم نبينا محمد ﷺ. والنبأ: الخبر الهام كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢].

﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾، أي: فتجرعوا ومسهم عقوبة كفرهم وتكذيبهم الوخيمة وما حل بهم من العذاب والنكال والخزي الدنيوي؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ولهم مع هذا العقاب الدنيوي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة بالنار، و«أليم» «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم موجع حسيًا للأبدان، ومؤلم موجع معنويًا ونفسيًا للقلوب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ﴾، أي: ذلك العقاب الدنيوي الذي حل بالذين كفروا من قبلهم والعذاب الأخروي الذي توعدوا به بسبب أنه:

﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: بالحجج والبراهين والدلائل القاطعات؛ لإقامة الحجة عليهم.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ الاستفهام للإنكار، والاستكبار، أي: فقالوا استكبارًا

وإنكارًا أن يكون المرسل إليهم، ومن يدلهم على طريق الهداية بشرًا مثلهم، ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾، أي: كيف يهدينا ويرشدنا بشر، ليس لهم فضل علينا، ولماذا خُصوا بذلك دوننا، كما قال قوم صالح عليه السلام: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥].

وهذا منهم على سبيل العناد والاستكبار، وإلا فكون الرسول بشرًا من جنسهم هو الأقرب لهدايتهم، وبه إقامة الحجة عليهم؛ إذ لو كان ملَكًا لادعوا أنه ليس منهم، بل للزم أن يكون على هيئة رجل؛ ليفهموا منه خطابه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

فمقتضى الحال أن يكون الرسول منهم إقامة للحجة عليهم، ولهذا قال الرسل لأقوامهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقال تعالى ممتنًا على العباد: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿فَكَفَرُوا۟﴾ جحدوا وكذّبوا بما جاءتهم به رسلهم من البينات.

﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ أعرضوا عن الحق بقلوبهم وتولوا بأبدانهم.

﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾، أي: أظهر غناه عنهم، وعن إيمانهم به وبرسله لأنه عز وجل لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»(١).

﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾، أي: غني عن جميع خلقه، له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه،

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الذي غناه من لوازم ذاته سبحانه الذي له ملك السموات والأرض وخزائنهما بيده.

﴿حَمِيدٌ﴾ في أقواله وأفعاله وأوصافه، محمود عند جميع خلقه على غناه وإفضاله وجوده وكرمه وإنعامه عليهم.

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد والتحذير للمكذبين والكافرين من هذه الأمة بذكر أخبار المكذبين الكافرين من الأمم قبلهم وعقوبات الله لهم وما أعد لهم من العذاب الأليم في الآخرة والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢- أن الكبر والعناد من أعظم أسباب رد عوة الرسل والكفر بما جاؤوا به من الآيات البينات والتولي عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾.

٣- غنى الله- عز وجل- عن من تولى وأعرض عن طاعته؛ لأنه- عز وجل- لا تنفعه طاعة المطيع كما لا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾.

٤- إثبات صفة الغنى الكامل لله عز وجل، وأنه- عز وجل- الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه المحمود عند جميع خلقه على غناه وإفضاله وكرمه وجوده وإنعامه عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحٗا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾.

قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾، «زعم»، أي: ادعى وأكثر ما يستعمل الزعم بالادعاء الكاذب. قال ابن عمر رضي الله عنهما: «زعم: كنية الكذب»[(١)].

وفي الحديث: «بئس مطية الرجل زعموا»[(٢)].

أي: زعم وادعى الذين كفروا وجحدوا ما جاءتهم به رسل الله من المشركين والملحدين وغيرهم، أنهم لن يبعثوا من قبورهم أحياءً بعد موتهم، كما قال عز وجل عنهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدٗا﴾ [الكهف: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ كقوله تعالى في سورة يونس ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [الآية: ٥٣]، وقوله تعالى في سورة سبأ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [الآية: ٣٠].

فهذه ثلاثة مواضع في القرآن الكريم أمر الله بها رسوله ﷺ أن يقسم على أن البعث حق.

ومعنى قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾، أي: قل لهم يا محمد مقسمًا لهم بربك.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٩.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في قول الرجل: «زعموا» ٤٩٧٢، وأحمد ٤/ ١١٩، ٥/ ٤٠١ من حديث أبي مسعود الأنصاري وحذيفة رضي الله عنهما.

﴿بَلَىٰ﴾، أي: نعم.

والواو في قوله: ﴿وَرَبِّي﴾ واو القسم، والمقسم به هو «الرب» عز وجل والياء للمتكلم.

﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لتبعثن، أي: لتخرجن من قبوركم أحياء بعد موتكم.

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، «ثم» حرف عطف، ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ معطوف على ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ فاللام فيه للقسم، أي: ثم والله ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، أي: لتخبرن بالذي عملتم أو بعملكم من خير وشر، وتحاسبون وتجازون على ذلك.

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الإشارة تعود إلى مصدر الفعلين ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، أي: بعثكم وإخباركم بأعمالكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: هين سهل؛ لأن الله لا يعجزه شيء، ولا عسير عليه سبحانه وتعالى.

فالذي خلق وأوجد من العدم قادر على إعادة الخلق من باب أولى، بل ذلك عليه أهون، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والجملة في محل جزم جواب الشرط المقدر، أي: إن كان الأمر كذلك في أن البعث والإنباء بالأعمال حق ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾.

والخطاب للمشركين المكذبين بالبعث، والأمر للوجوب، فيجب الإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ والنور الذي أنزله الله، وهو القرآن الكريم.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته والإيمان بالرسول: شهادة أنه محمد رسول الله، وذلك بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن الكريم كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

والإيمان بما أنزل الله: الاعتقاد بأنه كلام الله، وتصديق أخباره، والعمل بأحكامه والاتعاظ بوعده ووعيده وزواجره.

فمن آمن بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله عز وجل سار في هذه الحياة على هدى ونور من الله في أقواله وأفعاله وجميع تصرفاته، وسلم من الحيرة والقلق والتذبذب، وأحس بطعم الإيمان وطعم الحياة على منهج الله- عز وجل- وسعد في دنياه وأخراه.

هدوء وطمأنينة، حزم في أداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، وفي البعد عن المنهيات، شكر في حال السراء، وصبر في حال الضراء، كما قال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(١).

وصدق الله العظيم حيث يقول في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(٢).

فما بالك يا أخي بمن كان الله له بهذه المثابة هذا منتهى العز وغاية السعادة والشرف والسؤدد والحياة الكريمة في الدنيا والآخرة. نسأل الله الهداية والتوفيق.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أي: والله بعملكم أو بالذي تعملون ﴿خَبِيرٌ﴾، أي: ذو

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩، والدارمي في الرقاق ٢٧٧٧ من حديث صهيب رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

خبرة واطلاع على عملكم، باطنه وظاهره، دقيقه وجليله، خفيه وجليه، لا تخفى عليه منه خافية وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

وقدّم هنا المتعلق ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ لتأكيد علمه عز وجل بجميع أعمالهم ما بطن منها وما ظهر.

وفي الأمر بالإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله، وتأكيد علمه عز وجل بأعمالهم توكيد لما سبق في الآية قبله من تقرير البعث والحساب.

أي: فانقطعت حجة منكري البعث فلم يبق من سبيل للنجاة إلا الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ قرأ يعقوب: «نجمعكم» بالنون، وقرأ الباقون بالياء.

وهذا من تأكيد البعث والحساب، فأمر عز وجل رسوله ﷺ بأن يقسم للذين كفروا بأن البعث والحساب حق، ثم أمر عز وجل بالإيمان به وبرسوله والنور الذي أنزله لأهمية ذلك؛ لأنه السبب للنجاة في ذلك اليوم، ثم أكد أحقية البعث فقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾.

﴿يَوْمَ﴾ مفعول به لفعل محذوف، تقديره: اذكر، ويوم الجمع هو يوم القيامة، وسمي يوم الجمع؛ لأن الله يجمع فيه الخلائق كلهم أولهم وآخرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ

ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة الطويل: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسْمعهم الداعي وينفذهم البصر»(١).

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة ليوم الجمع يوم القيامة، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾، أي: اليوم الذي يظهر فيه التغابن الحقيقي بين الخلق.

و«التغابن» تفاعل من «الغبن» بمعنى النقص والخسارة وفي الحديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»(٢).

فالغبن الحقيقي بين الناس يظهر في ذلك اليوم تمام الظهور، فمن مستظل تحت ظل الرحمن، ومن ملجم بالعرق إلجاما، ومن معطى كتابه بيمينه، ومن معطى كتابه بشماله، ومن مار على الصراط كالبرق أو الريح أو كأجاود الخيل، ومن حاب عليه حبوًا، ومن مكردس في النار. ومن شارب من الكوثر والتسنيم، ومن شارب من الماء الحميم.

يظهر الغبن الحقيقي عندما يُخلَّد أناس في الجنان والنعيم، ويُخلَّد آخرون في النيران والجحيم، يظهر الغبن عندما يرى المؤمن مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرًا، ويرى الكافر مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء: ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزلة ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٢، والترمذي في الزهد ٢٣٠٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٠- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني فيكون عليهم حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول لولا أن الله هداني، قال: فيكون له شكرًا»، أخرجه أحمد ٢/ ٥١٢، ٥٤١.

وفي حديث علي رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا =

يظهر الغبن عندما يأخذ أناس حسنات أناس آخرين ويضعون عليهم من سيئاتهم بسبب المظالم، ويظهر الغبن عندما يرفع أقوام إلى أعلى عليين، ويرد أناس إلى أسفل سافلين.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان[(١)]

فليس الغبن والخسارة خسارة مال، أو أهل، أو ولد، أو جاه أو منصب، أو صحة أو حياة، بل الغبن أعظم وأشد من ذلك، بل هو غبن لا يتصور.

فكم من شخص لا يذوق غمضًا إذا غبن في صفقة، أو خسر في تجارة، أو نزلت قيمة الأسهم، لكنه لسوء حظه وعدم توفيقه تفوته صلاة الجماعة أو بعضها فلا يتأثر لذلك، بل الأمر عنده سواء، أدركها أو لم يدركها، وهكذا غيرها من الواجبات والحقوق؛ لأنه لا يحسب للغبن الحقيقي في «يومِ التغابُن» أيَّ حساب.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾.

في هاتين الآيتين تفسير الغبن وتصويره في أعظم صورة إذ لا غبن أعظم على الكافرين من إدخالهم النار وتخليدهم في العذاب، بينما يدخل المؤمنون الجنة ويخلدون في النعيم.

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، و«يؤمن» فعل الشرط، وجوابه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

ومعنى ﴿يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، أي: يؤمن بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وآياته وشرعه.

=

وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار...» الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٥، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨.

(١) البيت لابن القيم ضمن القصيدة النونية ص١١.

﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، أي: ويعمل عملًا صالحًا، وحذف الموصوف، واكتفى بذكر الصفة «صالحًا»؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا.

ويكون العمل صالحًا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله عز وجل ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥] أي: أخلص لله، وهو متبع ما جاء به الرسول ﷺ.

فإن كان العمل فيه شرك لغير الله فهو باطل، قال تعالى في الحديث القدسي: «من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»(١).

وإن كان العمل على غير ما جاء به الرسول ﷺ فهو مردود قال ﷺ «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»(٢).

وفي رواية «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(٣).

﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، أي: يمحو ويزيل عنه سيئاته ويتجاوز عن عقوبته عليها و«سيئات» جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي، وسميت بذلك؛ لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، كما تسوء غيره في الحال إما مباشرة إن كانت متعدية، وإما بآثارها السيئة إن كانت غير متعدية قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

وذكر تكفير سيئاته أولًا، ثم عطف عليه إدخاله الجنة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

و«جنات» جمع جنة، فللمؤمن أكثر من جنة، كما قال عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم في الأقضية ١٧١٨- من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) أخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩٧، ومسلم في الأقضية ١٧١٨، وأبو داود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤ من حديث عائشة رضي الله عنها.

رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، وذكر صفاتهما، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] وذكر صفاتهما.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أم الربيع بنت البراء، وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة وكان قتل يوم بدر، أصابه سهم غرب[1]، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، قال: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[2].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات»، أي: تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها الأنهار المختلفة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، «خالدين» حال، وجمع باعتبار معنى «من»، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، فلا هم يفنون، ولا يخرجون منها، ولا هي تفنى. وهذا باتفاق المسلمين- نسأل الله من فضله.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ الإشارة لتكفير سيئات من آمن بالله وعمل صالحًا، وإدخاله الجنات، وخلوده الأبدي فيها، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

و«الفوز» هو الفلاح والنجاح والظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كمًا وكيفًا، والذي لا يقدر قدر عظمته إلا الذي وصفه بأنه عظيم وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: جحدوا وأنكروا آياتنا الكونية والشرعية وكذبوا بها.

(١) أي: سهم طائش لا يدرى من أين أتى.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٠٩، والترمذي في التفسير ٣١٧٤.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أهلها وساكنوها وملازموها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا يتحولون عنها ولا يخرجون منها كما قال عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال عز وجل: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

إلى غير ذلك من الآيات فالنار لا تفنى، ولا يفنى عذابها ولا أهلها على الصحيح من أقوال أهل العلم وهو قول الجمهور.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: وبئس المرجع والمنقلب النار.

وإذا كان الله عز وجل وصف هذا المصير بهذا الوصف فلا يعلم مدى بؤس وقبح هذاالمصير إلا من وصفه بذلك وهو العليم الخبير.

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب الكفار بالبعث والمعاد، وزعمهم أنهم لن يبعثوا؛ لقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾.

٢- أمر الله- عز وجل- لنبيه ﷺ بالإقسام لهم بربه على أحقية بعثهم وإخبارهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها، وأن ذلك على الله يسير؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾.

٤- وجوب الإيمان بالله ورسوله والقرآن وما فيه من الهدى والنور؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾.

٥- جواز عطف اسم الرسول ﷺ على اسم الله تعالى بالواو التي تقتضي التشريك في باب الإيمان؛ لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله.

٦- إثبات سعة علم الله- عز وجل- وخبرته واطلاعه على جميع أعمال العباد والوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

٧- تأكيد البعث وجمع الخلائق للحساب والجزاء، وذلك يوم الجمع يوم التغابن يوم يظهر حقيقة الربح والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾.

٨- أن الغبن الحقيقي إنما يكون يوم القيامة، يوم نصب الموازين، وتطاير الصحف، فآخذ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذ ذات الشمال إلى النار.

٩- أن من شرط صحة الإيمان العمل الصالح الذي يتوفر فيه الإخلاص لله ومتابعة الرسول ﷺ، وفي هذا رد على المرجئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾.

١٠- وعد الله- عز وجل- الذي لا يخلف الميعاد لمن آمن بالله وعمل صالحًا بتكفير سيئاته، وإدخاله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا؛ ترغيبًا وحثًّا على الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

١١- عظم ما أعد الله- عز وجل- لعباده المؤمنين من الثواب والفوز العظيم مما لا يقدر قدره إلا العظيم سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

١٢- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكفرة المكذبين بآيات الله بالنار، وملازمتهم لها، وخلودهم فيها، وبئس المصير النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

١٣- خلود أهل النار فيها خلودًا أبديًّا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾، «ما» نافية، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، «إلا» أداة حصر، ومعنى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بأمره وإرادته وقدره وقضائه الكوني؛ لأن الإذن ينقسم إلى قسمين: إذن شرعي، وإذن كوني.

والإذن الكوني لا بد من وقوعه وهو بمعنى الإرادة الكونية، ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله.

والإذن الشرعي لا يلزم وقوعه، وهو بمعنى الإرادة الشرعية، ولا بد أن يكون محبوبًا لله عز وجل، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، أي: ما لم يشرعه الله.

وهذه الآية كقوله عز وجل في سورة الحديد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الآية: ٢٢].

فكل ما يقع ويحصل من المصائب في الأرض من جدب وقحط وغرق وحرق وتلف محاصيل وغير ذلك، وكل ما يقع من المصائب في الأنفس من أمراض وموت وغير ذلك، كل ذلك وغيره بإذن الله وأمره وقدره الكوني.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ الواو: عاطفة و«من» شرطية و«يؤمن» فعل الشرط، وجوابه ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»(١).

أي: ومن يؤمن بالله عز وجل وقضائه وقدره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما

(١) أخرجه عبد الرازق في «تفسيره» ٢/ ٢٩٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٢.

أخطأه لم يكن ليصيبه، فيرضى ويسلم.

﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾، أي: يوفق قلبه للصبر واليقين والتسليم لأمره، والرضا بقضائه وقدره، والاحتساب، ويعينه على تحمل ما أصابه ويعوضه خيرًا في دينه ودنياه وآخرته.

و يهد قلبه أيضًا لزيادة الإيمان والاطمئنان ويوفقه للثبات أمام المصائب والفتن، قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله وتصديق به، وجهاد في سبيله». قال: أريد أهون من هذا يا رسول الله. قال: «السماحة والصبر». قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: «لا تتهم الله في شيء قضى لك به»(١).

فمن آمن بالله عز وجل وقضائه وقدره خيره وشره انشرح صدره، وسعد واطمأن في حال السراء والضراء.

كما قال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(٢).

وهذه الدرجة لا يصل إليها إلا من صدق في إيمانه بالله عز وجل، ظاهرًا وباطنًا، فعلًا للمأمورات واجتنابًا للمحظورات، وعلم أن ما يجري في الكون من حركة أو سكون، من مصائب وغيرها إنما ذلك بقدر الله عز وجل، وسأل الله عز وجل على الدوام الهداية والتوفيق للشكر عند السراء، والصبر والتسليم والرضا عند الضراء، وسأل الله الثبات على الحق واللطف في قضائه وقدره، وحسن الختام، فإن الإنسان قد يضعف عندما تنتابه بعض المصائب والمشكلات وقد يضيق بها ذرعًا ويعز عليه الصبر

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٨- ٣١٩.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩ من حديث صهيب رضي الله عنه.

ما لم يتداركه الله بعونه وعنايته وتوفيقه فلا ينبغي أن يغتر أحد بنفسه، أو يثق بعمله، وإنما يثق برحمة أرحم الراحمين، ولطفه سبحانه وتعالى.

فاشدد يديك بحبل الله معتصمًا ... فإنه الركن إن خانتك أركان

من يتق الله يحمد في عواقبه ... ويكفه شر من عزوا ومن هانوا(١)

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، أي: أنه عز وجل ذو علم تام بكل شيء أيا كان من المصائب، وأحوال القلوب وغير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [طه: ٩٨].

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الطاعة: الامتثال بفعل أوامر الله عز وجل وترك نواهيه.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، «ال» في «الرسول» للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود محمدًا ﷺ وطاعته بفعل ما أمر به ﷺ وترك ما نهى عنه.

وأعاد الفعل ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ ولم يقل: «وأطيعوا الله والرسول» إشارة إلى أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالا بمعنى أن طاعته تجب فيما أمر به مما لم يأت في القرآن الكريم.

وفي هذا رد على الذين يدعون إلى الأخذ بالقرآن وحده واطراح السنة مصداق ما أخبر به الرسول ﷺ كما جاء في حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه: «رب رجل جالس على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا إنما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله»(٢).

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾، أي: فإن أعرضتم عن طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ والتولي يكون بالإعراض بالقلب والبدن.

﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط و«إنما» أداة حصر، وهي

---

(١) البيتان لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٧٢.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة- باب لزوم السنة ٤٦٠٤، ٤٦٠٥، والترمذي في العلم ٢٦٦٣، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في المقدمة ١٢، ١٣، وأحمد ٤/ ١٣٠، ١٣٤، وابن حبان في «موارد الظمآن» ٩٧، والحاكم في المستدرك، ١/ ١٠٨.

كافة ومكفوفة، والبلاغ: الوصول إلى الغاية، يقال: بلغ إلى كذا، بمعنى وصل إليه وفي قصة الثلاثة الأبرص والأقرع والأعمى: «فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»[(١)].

والمعنى: وما على رسولنا إلا تبليغ رسالة الله عز وجل إلى الناس والحصر هنا إضافي، أي: ليس عليه فيما يتعلق بهم إلا تبليغهم الرسالة أما هدايتهم فأمرها إلى الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، لكن عليه ﷺ الطاعة والامتثال بنفسه.

﴿ٱلْمُبِينُ﴾ اسم فاعل، من أبان الشيء، بمعنى أظهره وأوضحه، أي: البلاغ المظهر الموضح لما دعا إليه وبلغه، ومن لازم ذلك أن يكون بينًا في نفسه، فهو بيِّن بنفسه مبيِّن لغيره.

أي: فاعلموا أنما مهمة الرسول ﷺ محصورة ومقصورة في تبليغ الرسالة والدعوة والبلاغ البين الواضح، وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، فبلغ ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤].

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ في هذا إثبات الألوهية والعبودية لله عز وجل وحده، ونفيها عما عداه، كما في كلمة وشهادة التوحيد: «لا إله إلا الله»، أي: لا معبود بحق إلا الله.

قال ابن كثير[(٢)]: «خبر عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له، وأخلصوها لديه».

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٦٤، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٦٤.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اللام في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ لام الأمر، وهو للوجوب، وأكد ذلك بتقديم المتعلق، وهو قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون ويفوضوا أمورهم.

والتوكل على الله: التفويض والاعتماد على الله في جلب النفع ودفع الضر، مع تمام الثقة به عز وجل.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: المؤمنون الإيمان المطلق، كاملو الإيمان، فكلما قوي إيمان العبد وكمل كان توكله أقوى وأكمل، وكلما ضعف إيمانه ضعف توكله، فضعف الإيمان سبب لضعف التوكل، وضعف التوكل دليل على ضعف الإيمان.

ولهذا يجمع الله عز وجل بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان وما في معناه، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات قدر الله السابق، وأن ما يقع في الكون من مصائب هو بأمر الله- عز وجل- وتقديره؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٢- أن من آمن بالله- عز وجل- وقضائه وقدره هدى قلبه وشرح صدره للتسليم والرضا بقضاء الله فاطمأن وسعد في حياته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

٣- علم الله- عز وجل- بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٤- وجوب طاعة الله ورسوله، وإثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

٥- أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالًا بحيث تجب طاعته فيما أمر به أو نهى عنه وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم، وفي هذا رد على من يرون الاكتفاء بالقرآن؛ لقوله

تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

٦- التحذير من التولي عن طاعة الله ورسوله، وبيان أن مهمة الرسول ﷺ هي تبليغ الرسالة للناس بلاغًا بينًا، وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، وهداية القلوب بيد علام الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

٧- إثبات وحدانية الله- عز وجل- وتفرده بالألوهية واستحقاق العبودية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- وجوب التوكل والاعتماد على الله- عز وجل- وأن ذلك شرط لصحة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهمّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، «إن»: للتوكيد و«من»: للتبعيض، أي: إن بعض أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم.

ويفهم من هذا أن بعض الأزواج والأولاد ليسوا بأعداء، بل منهم من يكون عونًا على الخير وطاعة الله تعالى.

والأزواج: جمع زوج، وهو يطلق على المرأة وزوجها في لغة القرآن الكريم اللغة الفصحى، فيقال: زوج فلانة، وزوج فلان.

والمراد هنا الزوجات، أي: إن بعض زوجاتكم وأولادكم ﴿عَدُوًّا لَّكُمْ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التغابن ٣٣٧٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٨، والحاكم ٢/ ٤٩٠. وقال الترمذي: «حسن صحيح» وقال الحاكم «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي

كما قد يكون بعض الأزواج أعداءً لزوجاتهم أيضًا.

والعدو من يريد لك الشر، أو يحملك عليه، أو يكون سببا في منع الخير عنك عن قصد منه أو عن غير قصد فبعض الأزواج أعداء لأزواجهم، وبعض الأولاد أعداء لوالديهم، وذلك من وجوه عدة من أهمها:

أنهم قد يلتهون بهم عن طاعة الله عز وجل والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

ومنها أنهم قد يحملونهم على معصية الله ويثبطونهم عن طاعة الله تعالى فقد يتساهل الأزواج والوالدان في ترك بعض الواجبات كترك الهجرة والجهاد وغير ذلك، أو في ارتكاب بعض المنهيات مجاراة لأزواجهم وأولادهم ونزولًا عند رغباتهم فتحملهم العاطفة، أو طلب رضاهم على تقديم محبتهم ورضاهم على محبة الله ورضاه.

وقد يقصر الأزواج أو الوالدان في توجيه أزواجهم وأولادهم وفي حملهم على أداء الواجبات والبعد عن المنهيات، ونحو ذلك فيأثمون بسبب ذلك.

قال ابن القيم(١): «ليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر... وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده».

﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾، أي: كونوا منهم على حذر. والحذر: الاحتراز والحيطة من الشيء المخيف.

والمعنى: فاحذروهم على دينكم، أو فاحذروهم أن يضروكم في دينكم، أو أن

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٥٩- ٤٦٠.

توافقوهم على رغباتهم فيما لا يرضي الله.

قال مجاهد: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ قال: «يحمل الرجل على قطيعة الرحم، أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه»(١).

أقول- والله المستعان- كم حمل الأزواج والأولاد أزواجهم ووالديهم- كما قال مجاهد رحمه الله- على قطيعة الرحم مع الإخوة والأخوات وغيرهم من الأقارب، بل ومع الآباء والأمهات، وكم حملوهم على المعصية، بإدخال آلات اللهو والفساد في البيوت، والسفر إلى بلاد الكفر والإباحية، وأماكن الفساد وغير ذلك؛ إرضاء لهم.

وكم تهاون الأزواج والوالدان في حمل أزواجهم وأولادهم على الحق وقصرهم وأطرهم عليه، من أداء الواجبات وترك المنهيات، ومن شكر النعم وعدم الإسراف فيها وغير ذلك مجاملة مع أزواجهم وأولادهم، وإرضاء لهم.

﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾ العفو: التجاوز عما حصل من الذنب والخطأ، والصفح: تناسي ذلك الذنب والخطأ، وترك اللوم والتثريب عليه، وهو أعلى من العفو، كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، لكن حيث قرنت بالعفو والصفح هنا فمعناها: الستر.

والمعنى: وإن تتجاوزوا أيها المؤمنون عما حصل من أزواجكم وأولادكم مما فيه ضرر عليكم في دينكم من حملكم على ترك الهجرة أو الجهاد ونحو ذلك وتتركوا اللوم والتثريب على ذلك، وتستروه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جواب الشرط: «إن»، والفاء: رابطة لجواب الشرط.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٥- ١٦.

أي: فإن الله عز وجل ذو الستر لذنوب عباده والتجاوز عن عقوبتهم عليها، والرحمة الواسعة بهم وبغيرهم.

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما أموالكم وأولادكم إلا فتنة، أي: ابتلاء واختبار لكم.

عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين- رضي الله عنهما- عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[1].

والفتنة والابتلاء تكون في الخير والشر، كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ما منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله تعالى من مضلات الفتن»[2].

فالأموال والأولاد قد تكون شرًا وضررًا على الإنسان في دينه ودنياه وآخرته، وقد تكون خيرًا.

فالأموال قد تشغل الإنسان وتلهيه عن دينه وطاعة ربه، وهذا كثير في أصحاب الأموال، قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

فكم فُرِّط في الصلاة والزكاة وغيرهما من الواجبات بسبب الانشغال بالأموال

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- الإمام يقطع الخطبة لأمر يحدث ١١٠٩، والنسائي في الجمعة- نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة وقطعه كلامه ١٤١٣، والترمذي في المناقب- مناقب الحسن والحسين ٣٧٧٤، وابن ماجه في اللباس- لبس الأحمر للرجال ٣٦٠٠، وأحمد ٥/ ٣٥. وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ١١٥- ١١٦.

وحبها.

وكم صلى الإنسان صلاة لا يدري ماذا قال فيها بسبب ذلك.

وكم انتهكت المحرمات من الربا والغش والرشوة وأكلت أموال الناس بالباطل من أجل الأموال وحبها.

وكم نسي كثير من الناس حقوق الله وحقوق خلقه، ونسوا الموت والحساب والجنة والنار بسببها.

قال ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»(١).

وكم انحرف الأولاد بسبب تقصير والديهم في تربيتهم، قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه ، أو يمجسانه»(٢).

قال ابن القيم(٣): «وكم ممن أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة؛ بإهماله وترك تأديبه، وإعانته له على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده، وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء».

وكم حمل الأولاد والديهم على التساهل في فعل الواجبات وارتكاب المنهيات كما سبق ذكره.

وفي حديث الأشعث بن قيس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في الأولاد: «فإن فيهم قرة عين وأجرا إذا قبضوا وإنهم لمجبنة محزنة، إنهم لمجبنة محزنة»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «تحفة المودود بأحكام المولود» ص٢٤٢.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٢١١.

وعن أبي يعلى العامري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الولد ثمرة القلوب، وإنهم لمجبنة مبخلة محزنة»[(١)].

قال الزجاج[(٢)] في كلامه على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾: «وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده؛ لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله تعالى».

وينبغي أن يتأمل هذا من ابتلي بالفقر والعقم فلا يأسى على ما فاته، ويرضى بما قدّر الله له، ويعلم أن الخيرة فيما اختاره الله، ويحسن الظن بربه ويجزم بأن ما اختاره الله له هو عين الخيرة، فكم من أناس كان سبب شقائهم في الدنيا والآخرة وهلاكهم أموالهم وعلى أيدي أولادهم.

وقد يكون المال مطية للخير إذا وفق صاحبه لاكتسابه من حلال، وصرفه في حلال، وأداء حقوق الله عز وجل فيه، والإنفاق منه في سبل الخير، وكما قال ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[(٣)].

كما قد يكون الأولاد عونا على الخير إذا أصلحهم الله وهداهم فيكونون عونًا لوالديهم على أمر الدين والدنيا.

إلا أن الغالب والمشاهد- وكما هو الظاهر من النصوص- أن الأموال والأولاد كثيرًا ما يلحق أهليهم الضرر منهم، إلا من رحم الله.

مما يوجب على المرء الاحتراز من أخطار المال وضرره وتبعاته بحيث يجعل المال في يده لا في قلبه وأن يعرف من أين يكتسبه وفيم ينفقه ويؤدي حقوق الله- عز وجل- فيه

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٦٦٦. وصححه البوصيري، وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ١١/ ١٤٠، ٢٠١٤٣، والبزار ٢/ ٣٧٨. والحاكم ٢/ ١٦٤ وصححه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ١٥٥ «رجاله ثقات». ومعنى مجبنة، مبخلة، محزنة؛ أي: أنهم يحملون والديهم على الجبن والبخل والحزن.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦١.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٧، ٢٠٢- من حديث عمرو بن العاص- رضي الله عنه.

ويبذل منه هاء وهاء في سبل الخير.

وأن يعمل على توجيه أولاده وتربيتهم التربية الصالحة منذ نعومة أظفارهم مع المتابعة في ذلك حتى يبلغوا ويرشدوا مع الدعاء لهم دائمًا.

وأن يحترز من أن تحمله مجاملتهم أو طلب رضاهم في الوقوع فيما لا يرضي الله، فإن من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس كما جاء في الحديث(١).

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾، أي: والله عنده ثواب عظيم في الدنيا والآخرة فلا ينبغي أن يكون المال والولد سببا لمعصية الله، فإن الله عز وجل عنده ثواب عظيم وفضل كبير لمن أطاعه واتقى الله في ماله وولده في الدنيا والآخرة وأعظم ذلك الجنة، وما فيها من ألوان النعيم.

فلا ينبغي للمسلم أن يحمله المال على معصية الله عز وجل فإن سلوك الطرق المشروعة في كسب المال وإنفاقه في وجوهه وأداء الحقوق الواجبة فيه والمستحبة سبب لنمائه، والبركة فيه والزيادة من الله عز وجل في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة.

كما لا ينبغي للمسلم أن تحمله المجاملة مع أولاده والتماس رضاهم فيما يسخط الله، أملا في نفعهم أو دفع شرهم والسلامة من أذاهم، فإن في توجيههم إلى الحق وحملهم عليه والصبر على مجاهدتهم من الثواب العظيم وحسن العاقبة له ولهم في الدنيا والآخرة، وصلاح أحوالهم ما يتضاءل أمامه ذلك المأمول العاجل على حساب رضى الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٤٩٣ وأخرجه الترمذي في الزهد ٢٤١٤ بلفظ «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس».

عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، أي: فاتقوا الله بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه بقدر جهدكم وطاقتكم واستطاعتكم، كما قال عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وقال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»(١).

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- قال: «كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعتم»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا، واعلموا أنه لن يدخل أَحَدَكم عملهُ الجنة، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»(٣).

فالحمد لله الذي جعل التكليف قدر الوسع والطاقة والاستطاعة فلم يكلف الإنسان ما لا يستطيع، ووضع عن هذه الأمة الآصار والأغلال التي كانت على من قبلهم، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن قواعد الشريعة الإسلامية: أن المشقة تجلب التيسير، وأن الضرورات تبيح

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٨، ومسلم في الحج ١٣٢٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام ٧٢٠٢، ومسلم في الإمارة ١٨٦٧، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٢٩٤٠، والنسائي في البيعة ٤١٨٧، والترمذي في السير ١٥٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٦٤، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٨- من حديث عائشة رضي الله عنها وفي رواية عنها «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٧٧.

المحظورات، وأن الضرر ممنوع، كما قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢]، وفي الحديث: «لا ضرر ولا ضرار»(١).

وليس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ما ينافي كون التكليف حسب الوسع والطاقة؛ لأن معنى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، أي: قدر استطاعتكم فهو مقيد ومفسر بالآيات والأحاديث التي فيها الأمر بالتقوى قدر الاستطاعة، وليس منسوخًا بها؛ لأن الله لا يأمر بما لا يستطاع.

بل نهى الشرع الحكيم عن الانقطاع للعبادة والتبتل ونحو ذلك، وجعل ذلك ليس من الدين في شيء ولهذا رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون والنفر الذين معه التبتل وترك الزواج والانقطاع للعبادة بقيام الليل وصيام النهار.

وقال ﷺ: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٢).

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾، أي: واسمعوا لأمر الله ورسوله بآذانكم وقلوبكم.

﴿وَأَطِيعُواْ﴾، أي: انقادوا لذلك بجوارحكم ظاهرًا وباطنًا، كما قال الله عز وجل عن المؤمنين: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وقد عاب الله عز وجل على الذين يسمعون ولا يطيعون، قال تعالى عن اليهود: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا

(١) أخرجه ابن ماجه في الأحكام ٢٣٤٠ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
(٢) سبق تخريجه.

وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ [النساء: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

أي: لا يسمعون سماع انتفاع كما قال الله عز وجل ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَأَنفِقُوا﴾، أي: أنفقوا النفقات الواجبة والمستحبة من الزكوات والنفقة على الأهل والأولاد وعلى المحتاجين من الأقارب وغيرهم، وفي طرق الخير المختلفة.

﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾، أي: خيرًا تدخرونه لأنفسكم تجدون أثره الطيب على أنفسكم وأموالكم في حياتكم، وتجدون ثوابه عند الله عز وجل أوفر ما يكون بعد مماتكم كما قال تعالى بعد هذا: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الشح: الحرص الشديد الذي قد يحمل على منع الواجب مما في يده والتطلع والحرص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شح به، وبخل بإخراجه.

فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، كما قال ﷺ: «إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»(١).

ومعنى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أي: ومن يكف بخل نفسه الشديد الذي قد يحمل على منع الواجب فأولئك هم المفلحون الفائزون، الذين بلغوا غاية الفوز والفلاح والظفر والنجاح، فازوا بالمطلوب ونجوا من المرهوب.

وقد تقدم الكلام على هذه الآية بأوسع من هذا في سورة الحشر.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة- باب في الشح ١٦٩٨، والحاكم ١/ ٤١٥ وصححه ووافقه الذهبي- من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما.

قال ابن القيم[(١)]: «فالإيثار ضد الشح، فإن المؤْثِر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه والشحيح حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شح عليه وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، فالبخيل من أجاب داعي الشح، والمؤثر من أجاب داعي الجود، كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضل من سخاء البذل، قال عبد الله بن المبارك: «سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل».

والشح أعم من كونه بالمال، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ يقول: هوى نفسه حيث يتبع هواه ولم يقبل الإيمان»[(٢)].

وترتيب الفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار على الوقاية من الشح يدل على عموم الشح وأنه ما حمل الإنسان على التقصير في الواجب أو تركه، أو على ارتكاب المنهي.

فمن وقي شح نفسه كان ذا نفس سمحة مطمئنة، وصدر منشرح لشرع الله عز وجل منقاد لفعل أوامره وترك نواهيه، ومن ذلك الإنفاق في وجوه البر، وحب الخير للغير.

ومن لم يوق شح نفسه كان ذا نفس قلقة، وصدر ضيق حرج، غير منقاد لفعل أوامر الله وترك نواهيه إلا بمشقة وكره.

يريد الاستئثار بكل شيء لنفسه لا يحب الخير لغيره. يشح بالنفقات الواجبة فضلا عن المستحبة، بل يشح بالسلام والدعاء والعفو والتسامح وبشاشة الوجه حتى مع أهله ووالديه وأولاده وإخوانه وأقاربه وجيرانه وأصدقائه وسائر من لهم به علاقة، لا يحب الخير إلا لنفسه، نظرته إلى الناس والحياة نظرة سوداوية، فهو دائمًا في هم وقلق وحرج، وما علم أن الأمر أيسر من ذلك، يقدم سوء الظن دائمًا وكأنه سوف يؤكل،

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦١.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٠.

يحتاط لنفسه احتياطات لا حاجة لها بسبب أوهامه وتخوفاته كما قال المتنبي(١):

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في شك من الليل مظلم

﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: إن تقرضوا الله في الإنفاق في سبل الخير كلها استجابة لأمره لكم في قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ وغير ذلك.

﴿قَرْضًا﴾، أي: انفاقًا وبذلًا وتصدقًا في وجوه البر.

﴿حَسَنًا﴾، أي: خالصًا لوجه الله عز وجل، ومن كسب طيب وبنفس طيبة، لا منّ فيه ولا أذى للمتصدَّق عليه، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢، ٢٦٣].

وسمى الله عز وجل الإنفاق في الخير والصدقة قرضًا ترغيبًا فيه، وإشارة إلى أن الله عز وجل تكفل بجزائه وأجره.

وإذا كان عدم رد القرض يكون بسبب ظلم المقترض أو إعدامه، فإن الله عز وجل يقول عن نفسه في الحديث القدسي: «من يقرض غير عديم ولا ظلوم»(٢).

﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾، أي: يزده لكم، وضعف الشيء: كثره مرتين.

والله عز وجل يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

كما قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٤٥٩).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٥٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله في السماء الدنيا لشطر الليل أو لثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ أو يسألني فأعطيه؟، ثم يقول: من يقرض غير عديم ولا ظلوم».

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾، أي: يستر ذنوبكم عن الخلق، ويتجاوز عن العقوبة عليها؛ لأن معنى المغفرة: الستر والتجاوز، ومنه سمي المغفر وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة في تقرير الله عز وجل للعبد المؤمن بذنوبه وتذكيره بها ثم يقول عز وجل: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[١].

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الكثير على القليل، ويجزي من أحسن بالحسنى والزيادة، كما قال عز وجل: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦].

قال الطبري[٢]: «والله ذو شكر لأهل الإنفاق في سبيله بحسن الجزاء لهم على ما أنفقوا في الدنيا في سبيله».

﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

قال ابن القيم[٣]:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: عالم السر والعلانية والخفاء والجهر.

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ذو العزة التامة؛ عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع، وذو الحكم التام؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة، الحكمة الغائية والحكمة الصورية. وقد سبق الكلام على هذا مفصلا في آخر سورة الحشر.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) في «جامع البيان» ٢٣/ ٢١.
(٣) انظر «النونية» ص١٤٨.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء تنبيها لهم وعناية واهتمامًا بخطابهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان، تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف.

٣- أن من الأزواج والأولاد من يكونون أعداء لأزواجهم ووالديهم يحملونهم على معصية الله- عز وجل- ومخالفته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾.

٤- وجوب الحذر من أن تكون محبة الأزواج والأولاد وطلب رضاهم وتلبية رغباتهم سببًا في التقصير في طاعة الله ورسوله أو في ارتكاب معصية الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾.

٥- الترغيب في التجاوز وترك التثريب وستر ما حصل وما يحصل من الأزواج والأولاد من خطأ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٦- إثبات أنه عز وجل ذو المغفرة التامة والرحمة الواسعة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٧- التحذير من فتنة الأموال والأولاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

٨- أن ما عند الله- عز وجل- من الأجر العظيم في الدنيا والآخرة أهم وأعظم من الأزواج والأولاد والأموال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

٩- وجوب تقوى الله- عز وجل- قدر الاستطاعة والسمع والطاعة لأمره ونهيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾.

١٠- مشروعية الإنفاق وجوبًا بأداء الزكاة والنفقات الواجبة واستحبابًا في غير

ذلك من وجوه البر، والترغيب في ذلك؛ فهو خير يدخره المرء لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾.

١١- التحذير من شح النفس الذي يحمل على منع الحق وترك الواجب وارتكاب المحرم، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

١٢- أن من وفقهم الله- عز وجل- فوقاهم من الشح هم المفلحون حقًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

١٣- الترغيب في الصدقة والإنفاق في طرق الخير بتسمية ذلك قرضًا لله عز وجل ووعده عز وجل بمضاعفته لهم، ومغفرته؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

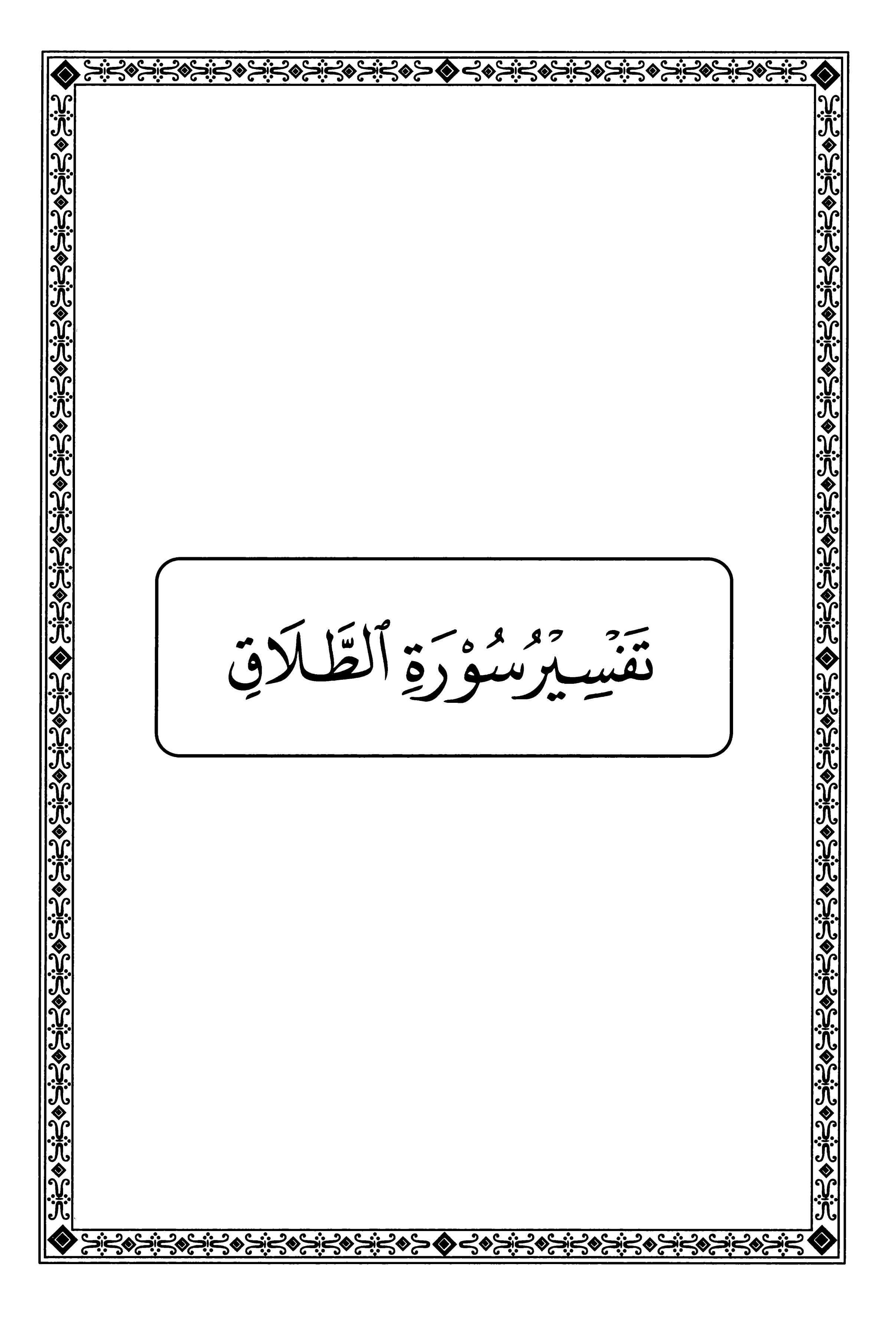
١٤- ينبغي أن يكون التصدق والإنفاق خالصًا لله عز وجل، من مال طيب، وبنفس طيبة، بلا منّ ولا أذى؛ لقوله تعالى: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾.

١٥- إثبات صفة الشكر له عز وجل للمخلصين له المنفقين في سبيله بمجازاتهم بأحسن الجزاء، وإثبات صفة الحلم له عز وجل وعدم معاجلته من عصاه بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

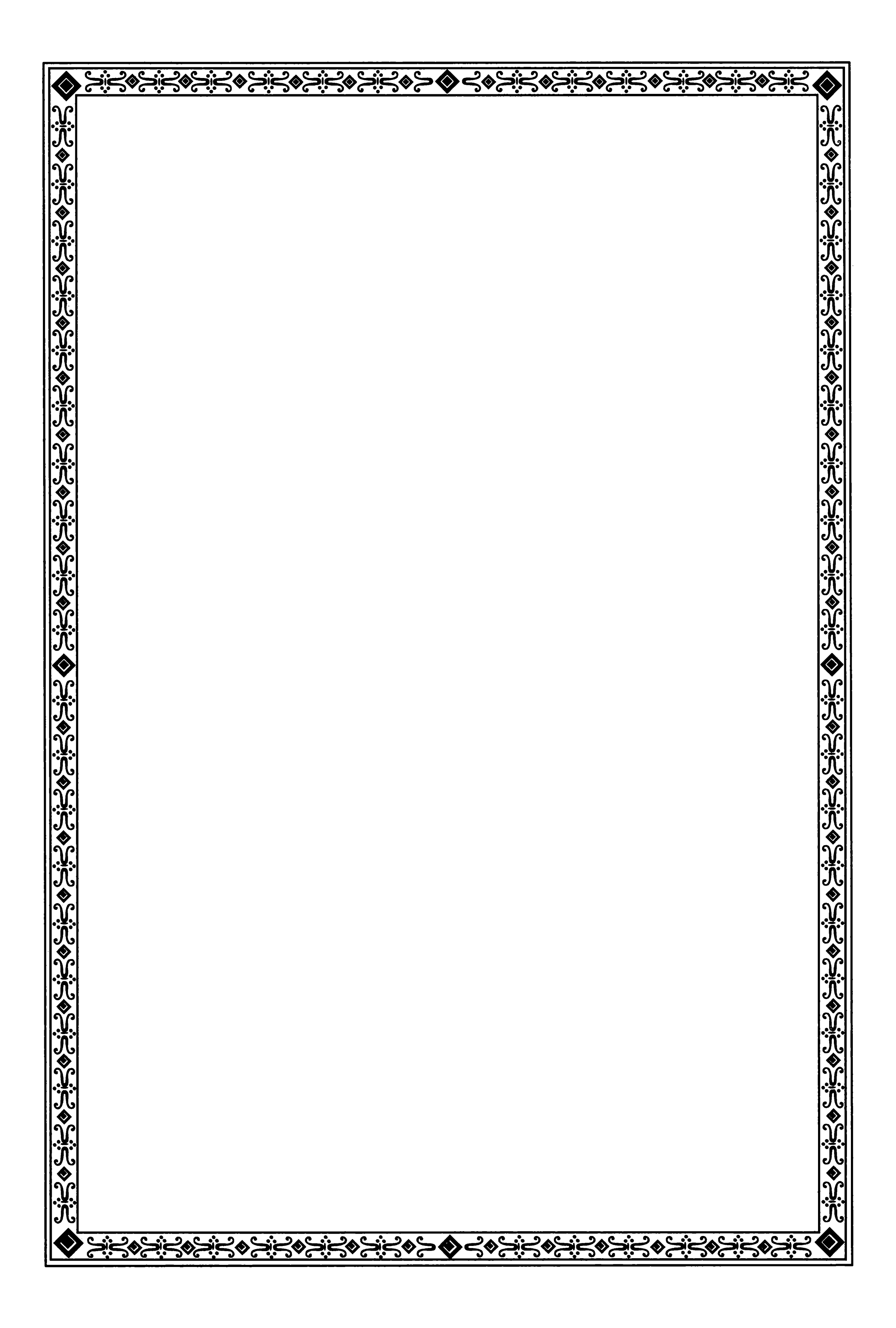
١٦- علم الله- عز وجل- بالسر والعلانية والغيب والشهادة؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

١٧- إثبات اسمين من أسماء الله- عز وجل- وهما «العزيز» و«الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة والحكم النافذ والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلطَّلَاقِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الطلاق»؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ... ١﴾، واشتمالها على جملة من أحكام الطلاق.

وتسمى: «سورة النساء القصرى»، كما في حديث أبيّ بن كعب وابن مسعود رضي الله عنهما[١].

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- تحدثت السورة عن أحكام الطلاق والعدة والرجعة والسكن والنفقة والرضاع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾.

٢- الترغيب بتقوى الله والتوكل عليه، وضمانه عز وجل مخرج ورزق من اتقاه، وكفايته من توكل عليه.

٣- التذكير بما حل بكثير من القرى بسبب عتوها عن أمر ربها ورسله من الحساب الشديد والعذاب النُّكر والخسران في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

٤- وجوب تقوى الله، والامتنان على المؤمنين بإنزال القرآن على الرسول ﷺ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾.

---

(١) سيأتي تخريجهما.

٥- بيان عظمته عز وجل وتمام قدرته وعلمه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى في الأصل مفعول به، معناه: «أدعوك» و«ها» للتنبيه.

﴿ٱلنَّبِىُّ﴾ «ال» فيه: للعهد، أي: النبي المعهود في الأذهان محمد ﷺ الذي أنزل الله عليه القرآن.

و«النبي»: مشتق من النبأ، وهو الخبر، ومن النبوة وهي المكان المرتفع؛ لأن النبي منبَأ ومُخْبَر من عند الله عز وجل، ومنبِئ ومُخْبِر لقومه بما نبئ به.

ولأن الأنبياء ذوو مكانة عالية رفيعة عند الله عز وجل.

والمراد بالنبي هنا النبي الرسول، أي: الذي أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه.

وفي ندائه ﷺ بوصف النبوة، وتخصيصه بذلك من بين الأنبياء تشريف وتكريم له ﷺ وإشارة إلى فضله على سائر الأنبياء عليهم السلام حيث ينادون في القرآن الكريم بأسمائهم لا بوصف النبوة.

﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، «إذا» ظرفية شرطية، و«طلقتم» فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

وقد خاطب الله عز وجل النبي ﷺ أولًا، تشريفًا وتكريمًا له فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾،

ثم خاطب أمته تبعًا فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

وهذا يدل على أن الخطاب له ﷺ خطاب لأمته ما لم يدل دليل على تخصيصه بذلك.

ومعنى ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، أي: إذا أردتم طلاقهن، والطلاق: حل عقد الزوجية. وهو جائز في الإسلام، وقد تدعو إليه الحاجة والضرورة عندما يصعب الوفاق بين الزوجين وتصبح الحياة بينهما جحيمًا لا يطاق، ويكون بقاء الزوجية بينهما سببًا لمعصية كل منهما ربه في حق الآخر، ففي الطلاق في مثل هذه الحال مخرج وفرج، وفضل الله واسع، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، أي: فطلقوهن مستقبلات لعدتهن بأن يكون طلاق المرأة في طهر لم يجامعها فيه، لا في حال حيضها، ولا في طهر جامعها فيه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر عمر ذلك لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها، فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»(١).

وفي بعض الروايات قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ»(٢).

وأيضا فلا يطلقها ثلاثًا أو يتبع الطلقة الطلقة؛ لأن ما بعد الطلقة الأولى من الطلقات لم تكن في استقبال عدتها، بل هي في نفس العدة؛ لأن العدة ابتدأت منذ

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق- ٥٢٥١، ومسلم في الطلاق- تحريم طلاق الحائض بغير رضاها ١٤٧١، وأبو داود في الطلاق- طلاق السنة ٢١٧٩، والنسائي في الطلاق- ما يفعل إذا طلق تطليقة وهي حائض ٣٣٩٠، والترمذي في الطلاق- ما جاء في طلاق السنة ١١٨٥، ١١٨٦، وأحمد ٢/ ٢٦، ٤٣.

(٢) جاء هذا في رواية مسلم.

الطلقة الأولى.

قال ابن القيم[١]: «ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث: إنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى في ذلك الطهر؛ لأنه غير مطلق للعدة، فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى، فلا تكون الثانية للعدة».

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

قال: «لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة»[٢].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال في قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال: «الطهر من غير جماع»[٣].

وهكذا قال جمهور العلماء من السلف ومن بعدهم.

وعن عكرمة: «﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ العدة: الطهر، والقرء: الحيضة، أن يطلقها حبلى مستبينًا حملها، ولا يطلقها وقد طاف عليها، ولا يدري حبلى هي أم لا»[٤].

قال ابن كثير[٥]: «ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقسموه إلى طلاق سنة، وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، أو حاملًا قد استبان حملها. والبدعي: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة، وغير

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦٥.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٩.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٥/ ١، ٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٢٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٢، ٢٣، والبيهقي في «سننه» ٧/ ٣٢٥.
(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٦٩.
(٥) في «تفسيره» ٨/ ١٦٩.

المدخول بها».

﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾، أي: احفظوها واضبطوها واعرفوا بدايتها، ونهايتها بالأقراء، وهي الحيض أو الأطهار، أو بالأشهر، أو بوضع الحمل.

وذلك لما يترتب على إحصائها وضبطها من حق لله عز وجل، وحق للزوج المطلق؛ ليتمكن من مراجعتها إذا أرادها، وغير ذلك، وحق لها في النفقة وغيرها، ولئلا تطول العدة على المرأة، وغير ذلك، وحق لمن يتزوجها بعد؛ لئلا تختلط المياه، وغير ذلك.

والأمر في قوله: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ متوجه للزوجين.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ بفعل ما أمركم الله به وترك ما نهاكم عنه، ومن ذلك أن يكون طلاق النساء في استقبال عدتهن، وإحصاء العدة وضبطها.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، أي: لا تخرجوا أيها الأزواج المطلقات ما دمن في العدة من بيوتهن؛ لأن لهن عليكم حق السكنى، ولا يجوز لهن أن يخرجن ما دمن في العدة؛ لأن من حقكم عليهن بقاءهن حتى انتهاء عدتهن.

فإخراجهن قبل انتهاء العدة اعتداء على حقهن في السكن حتى انتهاء العدة وخروجهن بأنفسهن فيه إضاعة حق الزوج، وفي هذا وذاك اعتداء على حرمات الله عز وجل.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، «إلا» أداة استثناء، أي: لا تخرجوهن أنتم من بيوتهن ولا يخرجن هن منها إلا في حال إتيانهن بفاحشة مبينة.

والفاحشة: ما يستفحش شرعًا وفي عرف المسلمين كالزنا والنشوز وبذاءة اللسان وأذية الزوج وأهله في القول والفعل ونحو ذلك.

﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾، أي: بينة واضحة.

ففي هذه الحال يجوز إخراجها من بيت الزوج وإن كانت في العدة؛ لأنها هي التي تسببت في إخراج نفسها، بإتيانها الفاحشة.

وهذا في المعتدة الرجعية. وأما البائن فليس لها سكنى واجبة؛ لأن السكن تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارة ﴿تلك﴾ إلى ما سبق من أحكام الطلاق والعدة، المتضمنة أوامر ونواهي وأشار إليها بإشارة البعيد إشارة لعظمها وأهميتها، أي: أن هذه الأحكام والشرائع هي حدود الله التي حدها وأوجب العمل بها.

والحد في الأصل: الفاصل بين شيئين، وسميت حدودًا؛ لأنه لا يجوز تجاوزها ولا تعديها كما أن الحدود الأرضية بين الجيران والمالكين تمنع من تجاوز أحدهم وتعديه إلى أرض الآخر.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، أي: من يتجاوز أحكام الله وشرائعه تركًا لما أمر الله به، أو ارتكابًا لما نهى الله عنه.

﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعدي حدود الله، بمخالفة أمره أو ارتكاب نهيه، حيث نقص نفسه حظها، وبخسها حقها؛ لأن النفس وديعة عند الإنسان يجب أن يحملها على ما فيه سعادتها ونجاتها في الدنيا والآخرة، لا أن يوردها موارد الهلاك في الدنيا والآخرة، ولا ظلم أعظم للنفس من حملها على تعدي حدود الله، ومعصيته بمخالفة أمره ونهيه، وتعريضها لعذاب النار.

﴿لَا تَدْرِى﴾، أي: لا تدري أيها المطلق ولا تعلم.

﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، «لعل» للترجي، أي: ترجون أن يحدث الله بعد ذلك الذي حصل من الطلاق أمرًا، فتتبدل الأحوال، ويذهب ما في الأنفس، ويندم الزوج على طلاق زوجته، وقد تتبعها نفسه حيث يراها أمامه فيراجعها بجماع أو غيره.

ومن أعظم أسباب حصول هذا بقاؤها في بيت زوجها، وعدم إخراجها، فهو أقرب وأرجى لصلاح الحال، أما لو خرجت بعد الطلاق مباشرة فهذا أعظم للشقة والخلاف وتنافر القلوب وتباعدها.

وهكذا فسر أكثر السلف ومن بعدهم قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ بالرجعة.

فجعل الله عز وجل السكنى للمطلقة إذا كانت رجعية، رجاء أن يحدث الله أمرًا وهو رجعتها.

فأما إن كانت المطلقة مبتوتة لا رجعية، أو متوفى عنها فليس لها نفقة ولا سكنى لحديث فاطمة بنت قيس الفهرية حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائبًا عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير نفقة فتسخطته، فقال: والله ليس لك علينا شيء. فأتت رسول الله ﷺ فقال: «ليس لك عليه نفقة ولا سكنى» وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك»(١).

وفي بعض رواياته: أن رسول الله ﷺ قال لها: «انظري يا ابنة آل قيس، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة، فلا نفقة ولا سكنى، اخرجي فانزلي على فلانة»، ثم قال: «إنه يُتَحدث إليها انزلي على ابن أم مكتوم، فإنه أعمى لا يراك...»(٢).

وهذا ما عليه جمهور أهل العلم أنه لا نفقة ولا سكنى للمبتوتة ولا للمتوفى عنها، لكن المتوفى عنها زوجها تعتد في البيت الذي توفي وهي فيه إن كان لها، وكذا إن أجاز الورثة ذلك إذا لم يكن لها فإن طلبوا خروجها خرجت(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق- المطلقة ثلاثا ١٤٨٠، وأبو داود في الطلاق- نفقة المبتوتة ٢٢٨٤، والنسائي في النكاح ٣٢٢٢، والترمذي في النكاح ١١٣٥، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٣٦، وأحمد ٦/ ٣٧٣، ٤١٢.

(٢) جاء هذا في رواية لأحمد والنسائي في الطلاق- باب الرخصة في ذلك وصحح إسناده ابن القيم في «زاد المعاد» ٥/ ٥٢٦.

(٣) انظر «زاد المعاد» ٥/ ٦٨٧- ٦٨٨.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، أي: فإذا قاربن، أي: المطلقات انتهاء عدتهن وشارفن على ذلك ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بمراجعتهن والعزم على إبقائهن في عصمتكم.

﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بما هو معروف بين الزوجين المسلمَين من حسن الصحبة وأداء الحقوق والعشرة الطيبة، كما قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ومن ذلك الصفح ونسيان أخطاء الماضي وفتح صفحة جديدة من الحياة بين الزوجين.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بتسريحهن بإحسان بعد انقضاء عدتهن من غير مغاضبة ولا مضارة، ولا أذى لا بفعل ولا بقول، مع أداء ما لهن من حقوق عليكم كما قال عز وجل: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وكما قال عز وجل لنبيه ﷺ في أمره بتخيير نسائه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وقدم عز وجل الأمر بالإمساك؛ لأنه- والله أعلم- أحب إليه، ولأن الطلاق أبغض الحلال إلى الله؛ لما في الطلاق من تشتت شمل الأسرة، والآثار السيئة المترتبة على ذلك غالبًا.

﴿وَأَشْهِدُوا﴾، أي: وأشهدوا على الطلاق والرجعة.

والأصل في الأمر الوجوب، فالإشهاد واجب، وقيل مستحب، وقيل واجب على الرجعة ومستحب على الطلاق.

﴿ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، أي: صاحبي عدل منكم أيها المسلمون أي: شاهدين عدلين منكم، فلا يكفي شهادة رجل واحد، ولا بد من كون الشاهدين «عدلين»، ولا بد من كونهما من المسلمين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد رجلين، كما قال الله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ عند الطلاق وعند المراجعة، فإن

راجعها فهي عنده على تطليقتين، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانت منه بواحدة، وهي أملك بنفسها، ثم تتزوج من شاءت هو أو غيره»(١).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها، ولم يشهد على طلاقها، ولا على رجعتها، فقال: «طلقت لغير سنة، ورجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعُد»(٢).

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾، أي: أقيموا الشهادة خالصة لله عز وجل، إذا استشهدتم وأدوها كما تحملتم من غير زيادة ولا نقصان.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الإشارة لما أمر الله عز وجل به في الآية من إمساك النساء إذا بلغن أجلهن بمعروف، أو مفارقتهن بمعروف مع الإشهاد على ذلك وأداء الشهادة خالصة لوجه الله عز وجل، أو لكل ما سبق.

﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ الموعظة هي ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨] أي: نعم الذي يعظكم به.

﴿مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾، أي: الذي كان منكم يؤمن بالله، أي: يؤمن بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، أي: ويؤمن باليوم الآخر يوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء.

وسمي اليوم الآخر؛ لأنه آخر الأيام فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة. وكثيرًا ما يقرن الله عز وجل بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر أعظم دافع وباعث على العمل؛ لأن فيه الحساب والجزاء على الأعمال.

أي: أن هذه الأحكام والمواعظ إنما يتعظ بها ويستفيد منها وينتفع بها من كان يؤمن

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤١.
(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق- الرجعة ٢٠٢٥.

بالله وبشرعه، ويرجو ثوابه ويخاف عقابه في الدار الآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠- ١٢].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾، أي: ومن يتق الله بفعل أوامره وترك نواهيه، في أحكام الطلاق والرجعة وغير ذلك.

﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، أي: يجعل له كونا وقدرًا مخرجًا وفرجًا في الدنيا والآخرة من كل كرب، ومن أي ضائقة تصيبه وتلم به، مالية، أو اجتماعية، أو نفسية أو غير ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة»(١).

فعلى الزوجين كما على غيرهما تقوى الله عز وجل ليوفقهم ويأخذ بأيديهم لما هو أصلح لهم وأسعد في دينهم ودنياهم، كما قال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن أجمع آية في القرآن: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾»(٢).

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ الرزق هو العطاء، أي: يعطيه العطاء الكثير.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، أي: ييسر له أسباب الرزق من حيث لا يشعر ولا يعلم، ومن حيث لا يخطر بباله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩١].

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣، ٨/ ١٧٢.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٨.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «جعل رسول الله ﷺ يتلو عليَّ هذه الآية ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال: «يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم» قال: فجعل يتلوها ويرددها علي حتى نعست، ثم قال: «يا أبا ذر كيف تصنع إن أخرجت من المدينة؟» قلت: إلى السعة والدعة أنطلق، فأكون حمامة من حمام مكة. قال: «كيف تصنع إن أخرجت من مكة؟» قال: قلت: إلى السعة والدعة، إلى الشام والأرض المقدسة، قال: «وكيف تصنع إن أخرجت من الشام؟» قال: قلت: والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي، قال: «أو خير من ذلك؟» قلت: أو خير من ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع، وإن كان عبدًا حبشيًا»(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»(٢).

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانا»(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب»(٤).

وقد قال بعضهم: «ما افتقر تقي قط، قالوا: لم؟ قال: لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٨- ١٧٩.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢، وابن ماجه في الفتن- باب العقوبات ٤٠٢٢.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٦٤، وأحمد ١/ ٣٠، ٥٢، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٢٤٨.

(٥) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٨.

وفي المقابل فإن من لم يتق الله بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه في أمر الطلاق والرجعة وغير ذلك من أموره فإنه يصير إلى ضيق وشدة لا مخرج له منها، وتتعسر عليه أبواب الرزق.

وهذا أمر مشاهد، فمثلا من لم يراع السنة في الطلاق بل أوقعه على الوجه المحرم كالثلاث مثلًا فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها؛ كما قال الفرزدق- لما تعجل وطلق امرأته «نوار» ثلاثًا- قال[1]:

نـــدمت ندامـــة الكســـعي لمـــا ... غـــدت منـــى مطلقـــة نـــوار

وكانـــت جنتـــي فخرجـــت منهـــا ... كـــآدم حـــين لـــج بـــه الضـــرار

وكنـــت كفـــاقئٍ عينيـــه عمـــدًا ... فأصـــبح مـــا يضـــيء لـــه النهـــار

وهكذا من لم يتق الله في جميع أموره تراه ينتقل من ضائقة إلى أخرى، وتتعسر عليه أسباب الرزق والحياة، وتنغلق أمامه الأبواب؛ ولهذا جاء في الأثر «بشّر القاتل بالقتل، والزاني بالفقر، ولو بعد حين»[2]، وهذا أمر يشهد له الواقع.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: ومن يعتمد على الله ويفوض جميع أموره إلى الله مع تمام الثقة بالله عز وجل في جلب النفع ودفع الضر، مع فعل الأسباب.

﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، أي: فهو كافيه كل ما أهمه في أمر دينه ودنياه، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال لي: «يا غلام إني معلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٥٧-٢٥٨، وانظر: «تهذيب اللغة» ١/ ١٩٦، و«الكامل في اللغة والأدب» ١/ ١٠٣.

(٢) انظر: «المقاصد الحسنة» ص٢٣٨، «كشف الخفاء» ١/ ٢٨٦.

إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس كان قمنًا أن لا تسد حاجته، ومن أنزلها بالله عز وجل أتاه الله برزق عاجل، أو موت عاجل»(٣).

قال ابن القيم(٤): «وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة، فإنه سبحانه لا يُخيِّب أمل آمل، ولا يُضيع عمل عامل، فإنه لا أشرح للصدر، ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به».

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾، جمعٌ بين الأمر بفعل الأسباب والتوكل على الله، ومن جمع بين ذلك جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٦٣٥. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٠.
(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤٤٢.
(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦٨.

يحتسب، وكفاه كل ما أهمه في أمر دينه ودنياه.

ومن فرط في أحد الأمرين كأن يتوكل على الله ويترك فعل الأسباب أو يفعل الأسباب ويعتمد عليها فهذا ليس على شيء.

قال ابن القيم[1]: «فإن الله إنما يكون حسب المتوكل عليه إذا اتقاه، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها لا إضاعتها».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ قرأ حفص عن عاصم: ﴿بَٰلِغُ﴾ بغير تنوين، و﴿أَمۡرِهِۦ﴾ بالخفض، وقرأ الباقون بالتنوين والنصب: «بالغٌ أمرَه».

والمعنى: أن الله منفذ أمره وقضائه وحكمه الكوني في خلقه فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٤٠]، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾، أي: قد جعل الله كونا ﴿لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾، أي: لكل شيء تقديرًا وتوقيتًا، تقديرًا من حيث كنهه وكمه وكيفه، لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وتوقيتًا من حيث وقته وزمنه، لا يتقدم ولا يتأخر عنه.

أي: قد جعل الله لكل شيء تقديرًا علميًا، وهو تقديره عز وجل لمقادير الخلائق في علمه وكتابه قبل تكوينها، ثم كونها على ذلك القدر الذي علمه وكتبه، كما قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للنبي ﷺ للعناية والاهتمام، ونداؤه بوصف النبوة فيه إثبات لنبوته ﷺ وتشريف له وتكريم، وإشارة لفضله على سائر الأنبياء عليه وعليهم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦٩- ٤٧٠.

الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

٢- أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب للأمة ما لم يدل دليل على تخصيصه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

٣- إباحة الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

ومع أن الطلاق جائز فهو أمر يبغضه الله كما في الحديث: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»(١).

وهذا الحديث وإن كان فيه كلام لأهل العلم من حيث سنده فإن معناه صحيح يؤيده الحديث في بعث الشيطان سراياه للإفساد، كما في حديث جابر رضي الله عنه وغيره أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يبعث الشيطان سراياه فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا. قال: ثم يجيء أحدهم، فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته. قال: فيدنيه، ويقول: نِعْم أنت»(٢).

٤- يجب أن يكون طلاق النساء في استقبال عدتهن بأن يكون طلاقهن في طهر لم يجامعن فيه، لا في حال حيضهن، ولا في طهر حَصَل جماعهن فيه، ولا يطلقن ثلاثًا، ولا يردف المطلق الطلقة بأخرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

٥- وجوب إحصاء العدة وضبطها لما يترتب على ذلك من حق لله- عز وجل، وحق للزوج المطلق، وحق للمطلقة، وحق لمن يتزوجها بعد، ولئلا تطول العدة على المرأة، ولكي يتمكن المطلق من رجعتها إذا أرادها، ولئلا تختلط المياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾.

٦- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، في أحكام الطلاق والعدة

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢١٧٨، وابن ماجه في الطلاق ٢٠١٨ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقد ضعفه كثير من أهل العلم، وحسنه بعضهم.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨١٣.

وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٧- التذكير بعظمة الله تعالى وعبوديته وربوبيته، وعظيم نعمه، والتحذير من مخالفته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمْ﴾.

٩- لا يجوز إخراج المطلقات الرجعيات من بيوتهن، ولا يجوز لهن أن يخرجن ما دمن في العدة، حفاظًا على حقوقهن وحقوق أزواجهن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، وفي هذا دلالة على وجوب السكنى للرجعيات.

١٠- إذا أتت المرأة بفاحشة بينة من زنا أو نشوز أوبذاءة لسان جاز للزوج إخراجها من بيته وهي في عدة طلاقها الرجعي؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، ويفهم من هذا أنه لا يجوز إخراجهن بمجرد دعوى الزوج إتيانها بفاحشة بلا بينة.

١١- أن ما أمر الله به من أوامر وما نهى الله عنه من نواه في أحكام الطلاق والعدة وغير ذلك كل ذلك من حدود الله التي يجب الوقوف عندها ولا يجوز تجاوزها ولا تعديها ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

١٢- أن من الحكمة في تحريم إخراج المطلقة الرجعية من بيتها، وإيجاب السكنى لها رجاء أن يكون ذلك سببًا في صلاح الحال ومراجعتها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

١٣- أن الإنسان لا يدري ولا يعلم ما تؤول إليه عواقب الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

١٤- قدرة الله- عز وجل- التامة على تغيير الأحوال وتبديلها إلى ما هو أصلح فينبغي التعلق به ورجاؤه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

١٥- إذا قاربت المعتدة الرجعية انقضاء عدتها وجب إما مراجعتها بالمعروف، وإما مفارقتها بالمعروف من غير مضارة؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾.

١٦- مشروعية إشهاد رجلين عدلين من المسلمين على الطلاق وعلى الرجعة وهو على الرجعة آكد وأوجب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

١٧- وجوب إقامة الشهادة خالصة لله، وأدائها كما تحملها الشاهد من غير زيادة ولا نقصان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾.

١٨- أن ما أمر الله به من إمساك النساء إذا بلغن أجلهن أو مفارقتهن بالمعروف والإشهاد على ذلك وإقامة الشهادة لله وغير ذلك مما يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

١٩- وجوب الإيمان بالله، وإثبات اليوم الآخر، ووجوب الإيمان به.

٢٠- أن من اتقى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه في أحكام الطلاق والرجعة وغير ذلك جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب ولا يخطر بباله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾.

٢١- وجوب التوكل على الله مع فعل الأسباب، وأن من توكل على الله كفاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾.

٢٢- أن الله منفذ أمره وقضاءه الكوني في خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾.

٢٣- تقدير الله- عز وجل- مقادير كل شيء وعلمه بها وكتابته لها قبل كونها ثم تكوينها وإيجادها وفق ذلك التقدير؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝٧﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾.

ذكر الله عز وجل في سورة البقرة أن المطلقات يعتددن ثلاثة قروء، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والمراد بالقروء: الحِيَض، وقيل: الأطهار.

وقال عز وجل في مطلع هذه السورة: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، أي: مستقبلات لعدتهن، بأن تطلق المرأة في طهر لم تجامع فيه، لا في طهر جامعها فيه، ولا في حال الحيض.

وهذا إنما ينطبق على ذوات الأقراء، أي: اللاتي يحضن، ثم أتبع ذلك بذكر عدة الآيسات واللاتي لم يحضن وأولات الأحمال في هذه الآية، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾.

سبب النـزول:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «قلت لرسول الله ﷺ إن ناسًا من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عِدَدٌ لم يُذكرْنَ في القرآن: الصغار، والكبار، اللائي قد انقطع عنهن الحيض، وذوات الحمل،

قال: فأنزلت التي في النساء القصرى ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾»[(١)].

قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾، أي: اللائي كبرن وبلغن سن الإياس من المحيض من نسائكم.

وقد اختلف في حد الإياس فقيل: خمسون سنة، وقيل: ستون سنة، وقيل: لا حد له ويعرف بيأس أقاربها.

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يختلف باختلاف النساء، وليس له حد يتفق فيه النساء، والمراد بالآية: أن يأس كل امرأة من نفسها، قد ينقطع حيضها وتأيس منه ولها أربعون ونحوها، وغيرها لا تأيس منه وإن كان لها خمسون[(٢)]

﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾، أي: إن شككتم في حكم عدتهن، وبماذا يعتددن.

ويؤيد هذا ما جاء في سبب نزول الآية. وهو الأظهر في المعنى، والأصح.

وقال بعض المفسرين: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾، أي: إن رأين دمًا وشككن في كونه حيضًا أو استحاضة وارتبتم فيه، رُويَ هذا عن مجاهد والزهري وابن زيد[(٣)].

﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ الجملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فعدتهن إذا طلقن ثلاثة أشهر.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ لصغرهن ونحو ذلك فعدتهن كذلك ثلاثة أشهر وحذف هذا لدلالة المذكور عليه.

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾، أي: وصاحبات الأحمال، أي: الحوامل ﴿أَجَلُهُنَّ﴾، أي: نهاية

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٠.
(٢) انظر «الاختيارات الفقهية» ص٢٨، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٧٥- ٤٨٢.
(٣) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٩- ٥٠.

عدتهن من طلاق أو وفاة.

﴿أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع خبر قوله: ﴿أَجَلُهُنَّ﴾، والجملة خبرٌ لقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾.

أي: نهاية عدتهن وضع حملهن كله، واحدًا، أو توأمين أو أكثر، حيًّا كان أو ميتًا، تام الخلقة، أو ناقصها، نفخ فيه الروح أو لم ينفخ، سواء طالت مدة الحمل أو قصرت، زادت على أربعة أشهر وعشر، أو نقصت، حتى ولو وضعت بعد الطلاق أو الموت بلحظة انتهت عدتها.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال لرسول ﷺ: لا أدري أمشتركة أم مبهمة قال رسول الله ﷺ: «أية آية» ؟ قال: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾، المتوفى عنها والمطلقة؟ قال: «نعم»(١).

وعن سبيعة الأسلمية رضي الله عنها: «أنها كانت تحت سعد بن خولة- وكان ممن شهد بدرًا وتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي»(٢).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «قتل زوج سبيعة الأسلمية، وهي حبلى

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٣٩٩١، ومسلم في الطلاق- انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها أو غيرها بوضع الحمل ١٤٨٤ وأبو داود في الطلاق- عدة الحامل ٢٣٠٦، والنسائي في الطلاق- عدة المتوفى عنها زوجها ٣٥١٨، وابن ماجه في الطلاق- الحامل المتوفى عنها زوجها إذا وضعت حلت للأزواج ٢٠٢٧، ٢٠٢٨.

فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله ﷺ. وكان أبو السنابل فيمن خطبها»(١).

وعن المسور بن مَخْرَمَةَ رضي الله عنه: «أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلما تعلت من نفاسها خطبت، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح فأذن لها أن تُنكح فنُكحت»(٢).

فانتهاء عدة المطلقة بائنًا كانت أو رجعية والمتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملًا بمجرد وضع الحمل، ولو كان ذلك عقب الطلاق أو الوفاة بلحظات لقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، ولقصة سبيعة الأسلمية رضي الله عنها، وغيرها وبهذا قال جمهور السلف وأهل العلم بعدهم.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من شاء لاعنته ما نزلت: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت، يريد بآية المتوفى عنها زوجها ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]»(٣).

وعنه قال: «أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون عليها الرخصة؟ نزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق ٤٩٠٩، وفي الطلاق ٥٣١٨ ومسلم في الطلاق ١٤٨٥، والنسائي في الطلاق ٣٥١١ والترمذي في الطلاق ١١٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٢٠، والنسائي في الطلاق ٣٥٠٦، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٢٩، وأحمد ٤/ ٣٢٧.

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢٣٠٧، والنسائي في الطلاق- عدة المتوفى عنها زوجها ٣٥٢٢، وابن ماجه في الطلاق- الحامل المتوفى عنها ٢٠٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق ٤٩١٠، والنسائي في الطلاق- عدة المتوفى عنها زوجها ٣٥٢١.

يعني بسورة النساء القصرى سورة الطلاق، ويعني بالطولى سورة البقرة.

وقد قيل إن الآية ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ خاصة بالمطلقات، أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر كما في آية البقرة.

وقيل تعتد المتوفى عنها زوجها وهي حامل آخر الأجلين فإن كان أطولهما وضع الحمل كأن تكون توفى عنها زوجها وهي في أول الحمل اعتدت بوضع الحمل وإن كان أطولهما أربعة أشهر وعشرًا اعتدت به بمعنى أنها لا تقل عدتها عن أربعة أشهر وعشر، وقد تزيد إلى تسعة أشهر، أو إلى أكثر من ذلك حتى تضع حملها وهذا لأجل العمل بالآيتين آية البقرة، وآية سورة الطلاق.

رُوِيَ هذا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه(١)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما.

فعن أبي سلمة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد موت زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي يعني: أبا سلمة، فأرسل ابن عباس غلامه كريبًا إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ وكان أبو السنابل فيمن خطبها»(٢).

والصحيح القول الأول كما دلت عليه الآية ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ والأحاديث في قصة سبيعة وغير ذلك وهو قول الجمهور من الصحابة والفقهاء بعدهم.

وقد استدل له ابن القيم بعموم الآية: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾،

---

(١) أخرجه عن علي رضي الله عنه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦١.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٠٩، ومسلم في الطلاق ١٤٨٥، والنسائي في الطلاق ٣٥١١، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٩٤، وأحمد ٤/ ٣٢٧.

من ثلاث جهات:

عموم الخبر عنه؛ وهو أولات الأحمال، فإنه يتناول جميعهن.

الثاني: عموم الأجل فإنه أضافه إليهن، واسم الجمع إذا أضيف إلى معرفة يعم، فجعل وضع الحمل جميع أجلهن.

الثالث: أن المبتدأ والخبر معرفتان؛ إذ التقدير: وأولات الأحمال أجلهن وضع حملهن، وإذا كان المبتدأ والخبر معرفتين اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول[1].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ تأكيد وحض على تقوى الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فقد قال قبل هذا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾، أي: يجعل له فرجًا من كل كرب ومن كل ضائقة بعد حصولها.

وقال ههنا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾، أي: ييسر له أموره من حيث البداية، فيسلم بإذن الله عز وجل من الكروب والضائقات.

والمراد بالجعل في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ الجعل الكوني القدري.

والضمير في قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ يحتمل أن يعود إلى الله، أي: يجعل الله له من أمره الكوني يسرا.

ويحتمل عود الضمير إلى من اتقى الله، أي: ومن يتق الله يسهل له أمره والمعنى على التقديرين واحد وهو: ومن يتق الله ييسر ويسهل له أمور دينه ودنياه، فمهما توجه لأمر من الأمور كان الله معه يسدده ويعينه وييسر أموره ويحفظه، كما قال ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» الحديث[2].

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٧١.

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه(١):

إذا لم يكن عون من الله للفتى　　　فأول ما يجني عليه اجتهاده

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة لما ذكر في الآية السابقة من أحكام الطلاق والرجعة والعدة وغيرها، أو لما ذكر فيها وفيما قبلها، أو لكل ما شرعه الله من أحكام وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، أي: أمر الله وحكمه الشرعي.

﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾، أي: أنزله إليكم بما أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ من القرآن الكريم المنزل من عند الله عز وجل، ومن السنة النبوية التي هي من وحي الله عز وجل قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] أي: القرآن والسنة، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ هذا تأكيد ثالث لتقوى الله عز وجل وحضٌ عليها، رتب عليه الجزاء الأخروي وهو تكفير السيئات والأجر العظيم.

ومعنى ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، أي: يمحو ويزيل عنه سيئاته، ويسترها عن الخلق ويتجاوز عن عقوبتها.

والسيئات: جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي، سميت بذلك؛ لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل وقد تسوء غيره.

﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾، أي: ويجعل أجره وثوابه عظيما، كمًا وكيفًا عنده- عز وجل- بإدخاله الجنات وما فيها من النعيم ورؤية الرب الرحيم.

وقدم تكفير السيئات على ذكر عظم الأجر لأن التخلية قبل التحلية.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن

---

(١) انظر: «الفرج بعد الشدة» ١/ ١٧٧.

إخراج المعتدات من بيوتهن، وأنه لا ينبغي أن يخرجن، وفي هذا بيان وجوب السكنى لهن. ثم أكد ذلك في قوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ الآية، وبين قدر إسكانهن، وأنه من حيث يسكنون ومن وجدهم.

والأمر في قوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ لمن يطلقون زوجاتهم طلاقًا رجعيًا، أي: أسكنوا زوجاتكم اللاتي طلقتموهن طلاقًا رجعيًا ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾.

«من» تبعيضية أي: من بعض سكنكم وعندكم، وفي بيوتكم اللاتي تسكنونها.

﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وتفسير له، أي: من قدر سعتكم وطاقتكم.

﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾، أي: ولا تضاروهن عند إسكانكم لهن بالقول أو بالفعل؛ لأجل التضييق عليهن ليخرجن من بيوتكم قبل تمام عدتهن، أو ليفتدين أنفسهن منكم بما لهن، وقيل بأن يطلقها فإذا قاربت انتهاء عدتها راجعها مضارة لها.

﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ﴾، أي: وإن كن- يعني: المطلقات- صاحبات حمل، أي: حوامل.

﴿فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ الأمر للوجوب، فتجب النفقة على المطلقة الحامل لها وللحمل حتى تضع، وإن طالت مدة الحمل وهذا بالإجماع إذا كان الطلاق رجعيًا.

واختلف أهل العلم بالنسبة للمطلقة البائن:

فذهب كثير من السلف، منهم ابن عباس وعمر وابن مسعود رضي الله عنهم(١)، وكثير من الفقهاء: إلى وجوب النفقة عليها؛ لأجل الحمل، وحملوا الآية على البائن؛ قالوا: لأن الرجعية نفقتها واجبة مطلقا سواء كانت حاملًا أو حائلًا.

وقال بعض أهل العلم: لا نفقة لها وإن كانت حاملًا؛ لأن السياق كله في الرجعيات، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية؛ لأن الحمل تطول

(١) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٢، ٦٣.

مدته غالبًا؛ لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة.

وظاهر الآية وجوب النفقة عليها لأجل الحمل.

قال الطبري[١]: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن لا نفقة للمبتوتة إلا أن تكون حاملًا؛ لأن الله جلّ ثناؤه جعل النفقة بقوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ للحوامل دون غيرهن من البائنات من أزواجهن، ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل في الواجب لهن من النفقة على أزواجهن سواء لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر في هذا الموضع وجه مفهوم، إذ هن وغيرهن في ذلك سواء، وفي خصوصهن بالذكر دون غيرهن أدل الدليل على أن لا نفقة لبائن إلا أن تكون حاملًا» ثم استدل بحديث فاطمة بنت قيس. وقد سبق.

واختلف أهل العلم هل النفقة لها بواسطة الحمل أو للحمل وحده على قولين.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾، أي: فإن أرضعن لكم المولود بعد انقضاء عدتهن وبينونتهن منكم، ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، أي: اعطوهن أجور إرضاعهن لأولادكم وذلك أجرة المثل، أو ما يتفقان عليه وهن أحق بإرضاعهم من غيرهن ما لم تزد أجرة إرضاعهن عن أجرة المثل.

وفي هذا دلالة على أنه لا يجب عليهن إرضاعهم، وقد بن بانقضاء عدتهن.

قال ابن كثير[٢]: «أي: إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد بِنَّ بانقضاء عدتهن ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللِّبَأ وهو باكورة اللبن، الذي لا قوام للولد غالبًا إلا به، فإن أرضعت استحقت أجرة مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة».

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٤.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٧٩.

﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم﴾ الائتمار: التشاور والتفاهم والاتفاق، أي: تشاوروا وتوافقوا فيما بينكم ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾، أي: بما هو معروف شرعًا وعرفًا في أمر إرضاع المولود وأجرة ذلك، وفي جميع أموركم، من غير مضارة، كما قال عز وجل: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾، أي: وإن تعسر الأمر بينكم في إرضاع الولد وأجرة ذلك بأن امتنعت أمه من إرضاعه مطلقا، أو طلبت أجرة لم يوافق عليها الزوج، أو بذل الزوج أجرة لم توافق عليها هي، ونحو ذلك.

والتعاسر: تفاعل من العسر، أي: عَسُر على كل منكما قبول رأي الآخر في مقدار أجرة الرضاع، ونحو ذلك.

﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾، أي: يطلب له مرضعة أخرى غير أمه لكن إن رضيت الأم بالأجرة التي استؤجرت بها الأجنبية فهي أحق به.

وإن لم يقبل إلا ثدي أمه تعين عليها إرضاعه، ولها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾، أي: لينفق صاحب السعة والغنى أي: الذي وسع الله عليه في رزقه.

﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾، أي: بقدر وسعه وغناه، بحيث يوسع على من ينفق عليهم.

ومن ذلك التوسيع في النفقة على المطلقة الرجعية، وعلى البائن إذا كانت حاملًا وعلى المولود، سواء كان المنفق هو أبوه، أو وليه من بعده، ومن ذلك التوسيع على المرضعة بالأجرة وبخاصة إذا كانت أم المولود.

ويؤخذ من هذه الآية وجوب نفقة الولد على الأب دون الأم.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾، أي: ومن ضيق عليه رزقه.

﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، أي: فلينفق من الذي آتاه الله، أي: بقدر الذي آتاه الله من الرزق.

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة نفر، كان لأحدهم عشرة دنانير، فتصدق منها بدينار. وكان لآخر عشر أواق فتصدق منها بأوقية. وكان لآخر مائة أوقية، فتصدق منها بعشر أواق. فقال رسول الله ﷺ: «هم في الأجر سواء كل تصدق بعشر ماله. قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾»(١).

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾، أي: لا يُحمِّل الله نفسًا إلا قدر الذي آتاها من الوسع والطاقة، وبما هو من مقدورها، فجعل عز وجل كلا بحسبه وخفف عن المعسر.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الآية: ٢٨٦].

فحمدًا لك اللهم على جعل التكليف وفق الوسع والطاقة.

رُويَ: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل عن أبي عبيدة رضي الله عنه فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل أخشن الطعام. فبعث إليه بألف دينار، وقال للرسول: انظر ما يصنع بها، إذا هو أخذها. فما لبث أن لبس اللين من الثياب، وأكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره، فقال: رحمه الله تأول هذه الآية ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾»(٢).

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أمر الله عز وجل من قدر عليه رزقه بالإنفاق بقدر ما آتاه الله، ثم وعد عز وجل بأنه سيجعل بعد عسر يسرا وذلك تسلية لمن لم يقدر إلا على القليل، وحثًّا وتشجيعًا له لئلا يشح بهذا القليل.

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ﴾، أي: سيجعل الله كونًا وقدرًا ﴿بَعْدَ عُسْرٍ﴾، أي: بعد ضيق وشدة

(١) أخرجه الطبراني في الكبير فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٨٠، وقال ابن كثير «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٩- ٧٠.

وفقر ﴿يُسۡرًا﴾ سعة ورخاء وغنى.

وهذا وعد منه عز وجل وهو الذي لا يخلف الميعاد بأنه سيجعل ويقدر بعد الضيق والشدة سعة ورخاء وفرجًا ومخرجًا، فالعسر يعقبه بإذن الله عز وجل اليسر.

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ جالسًا وحياله جحر، فقال: «**لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه**»، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الانشراح: ٥، ٦]»(١).

بل إنه عز وجل يتبع العسر بيسرين؛ لأنه عز وجل ذكر العسر معرفًا في الموضعين، فدل على أن الثاني هو الأول، وذكر اليسر منكرًا فدل على أن الثاني غير الأول.

ولهذا رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لن يغلب عسر يسرين»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأته امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها، وإلى التنور فسجرته، ثم قالت: اللهم ارزقنا. فنظرت، فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئًا، قال: فرجع الزوج قال: أصبتم بعدي شيئًا؟ قالت امرأته: نعم، من ربنا»(٣).

الفوائد والأحكام:

١- أن عدة المطلقات الآيسات من المحيض واللاتي لم يحضن ثلاثة أشهر، وأولات الأحمال نهاية عدتهن وضع حملهن سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن؛ لقوله

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٦ وروي موقوفًا من كلام ابن مسعود رضي الله عنه. انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٥٣.

(٢) أخرجه مالك في الجهاد- الترغيب في الجهاد، انظر «تنوير الحوالك» ١/ ٢٩٦.

وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٦ عن الحسن البصري.

وأخرجه عنه مرفوعًا إلى النبي ﷺ مرسلًا، عبد الرزاق في «تفسيره» ٢/ ٣٨٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٩٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٢٨.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٥١٣، وأخرجه بأطول من هذا ٢/ ٤٢١.

تعالى: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾.

٢- الترغيب في تقوى الله، والوعد لمن اتقى الله بتيسير أموره في الدنيا وتكفير سيئاته وتعظيم أجره في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾.

٣- أن ما ذكر من أحكام الطلاق والرجعة والعدة وغير ذلك من أحكام جاءت في القرآن الكريم كل ذلك مما أمر الله به شرعًا وأنزله في كتابه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾.

٤- وجوب إسكان المطلقات طلاقًا رجعيًا من حيث يسكن أزواجهن ومن وجدهم، وتحريم مضارتهن للتضييق عليهن؛ ليخرجن قبل تمام العدة أو ليفتدين أنفسهن من أزواجهن بمالهن، أو بتطليقهن ثم مراجعتهن إذا قاربن انتهاء العدة مضارة لهن؛ لقوله تعالى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾.

٥- وجوب النفقة للمطلقة الحامل لها وللحمل إذا كان الطلاق رجعيًا ووجوب النفقة عليها لأجل الحمل إذا كان الطلاق بائنًا، وقيل لا تجب لها النفقة في هذه الحال وظاهر الآية وجوب النفقة لها لأجل الحمل حتى تضع؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾.

٦- يجب إعطاء المطلقات البائنات أجرة المثل إذا هن أرضعن أولاد من طلقوهن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

٧- وجوب الائتمار والتشاور والتوافق بالمعروف في أمر إرضاع المولود وأجرة ذلك، وفي جميع الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ﴾.

٨- إذا تعاسر الزوجان في إرضاع الولد وفي أجرة ذلك ترضعه امرأة أخرى غير

أمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾.

٩- أن نفقة الولد على الأب دون الأم.

١٠- الترغيب لمن وسع الله عليه في الغنى أن يوسع في النفقة على المنفق عليهم من الأهل والأولاد، ومن ذلك التوسيع في الإنفاق على المطلقة الرجعية، وعلى البائن إذا كانت حاملًا وعلى المولود وعلى المرضعة بالأجرة وبخاصة إذا كانت الأم: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

١١- لا حرج على من ضيق عليه رزقه أن ينفق بقدر ما آتاه الله؛ لقوله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.

١٢- أن التكليف على قدر الوسع والطاقة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾.

١٣- وعد الله- عز وجل- بأنه سيجعل بعد عسر يسرًا وهو الذي لا يخلف الميعاد؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، بل إن كل عسر معه من الله يسران؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٥، ٦].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾.

أمر الله عز وجل من مطلع السورة إلى هنا بامتثال جملة من أحكام الطلاق والعدة والرجعة وسكنى المعتدة والنفقة عليها وعلى حملها ورضاعه.

ثم أخبر عما حل بمن خالف أمر الله ورسله من الأمم السالفة من العذاب والعقوبات الدنيوية وما أعد لهم من العذاب الشديد في الآخرة؛ تأكيدًا لوجوب امتثال ما أمر الله به ورسوله من أحكام، وتحذيرًا من المخالفة لأوامر الله- عز وجل ورسوله.

قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾، أي: وكثير من القرى.

﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾، أي: عصت وتمردت وتجبرت وطغت واستكبرت عن أمر ربها الشرعي ورسله، أي: عن أوامر الله الشرعية وأوامر رسله.

والقرية: مأخوذة من القري، وهو مكان التجمع، ومنه سمي القرو وهو مكان تجمع الماء، وسمي القرآن: لأنه مجموع حروف وكلمات وآيات وسور.

والمراد بالقرية: مكان اجتماع طائفة من الناس، يقال لها مدينة ويقال لها قرية، فهي المصر الجامع، قال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣].

والمراد: وكثير من أهل القرى.

قال الطبري[1]: «وكم من أهل قرية طغوا عن أمر ربهم وخالفوه، وعن أمر رسل

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٧٠.

ربهم فتمادوا في طغيانهم وعتوهم، ولجوا في كفرهم».

وفي إضافة ضمير «قرية» إلى اسم «الرب» عز وجل في قوله: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ تأكيد لوجوب طاعة الله عز وجل وعدم مخالفته، وتذكير بنعمة ربوبيته فهو عز وجل الخالق المالك المدبر سبحانه وتعالى.

﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾، أي: حاسبناها على تمردها وعتوها حسابا صعبًا عسيرًا، وناقشناها نقاشًا دقيقًا استقصينا فيه عليهم، ولم نتجاوز فيه عن شيء، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨].

وقد قال ﷺ: «من نوقش الحساب هلك»(١).

ولهذا قال بعده: ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾، أي: وعذبناها في الدنيا عذابًا منكرا فظيعًا، بأنواع العذاب والعقوبات، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

﴿فَذَاقَتْ﴾، أي: فأحست وتجرعت ومسها.

﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾، أي: غب وعاقبة وعقوبة أمرها؛ لما خالفت أمر الله ورسوله.

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾. [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾، أي: وكان نهاية أمرها خسرًا، أي: غبنًا ونقصًا، وخسرانًا لا ربح فيه بوجه من الوجوه.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، أي: هيأ الله لهم في الآخرة عذابًا شديدًا وهو عذاب النار، العذاب الأشد والأكبر، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٦، والترمذي في الرقائق ٢٤٢٦- من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٤].

والمعنى: أن الله عز وجل عذب أولئك الذين تمردوا عن أمره عذابًا منكرًا وعقوبة عاجلة تجرعوها في الدنيا مع ما أعد الله لهم من العذاب الشديد في الآخرة، وكانت نهاية أمرهم الخسار والبوار في الدنيا والآخرة.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾، أي: فاتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه يا أصحاب العقول والبصائر السليمة، التي تفقه، وتهدي أصحابها إلى ما ينفعها وإلى ما فيه سعادتها في دينها ودنياها وأخراها. وفيه تحذير لهم من مسلك ومصير من تمردوا على أوامر الله ممن لديهم العقول التي هي مناط التكليف، لكنها لم تنفعهم، كما قال عز وجل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، «الذين» اسم موصول مبني في محل نصب عطف بيان على «أولي» أو بدل منه، أي: الذين صدقوا وانقادوا ظاهرًا وباطنًا.

﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾، «قد» للتحقيق، أي: قد أنزل الله إليكم ذكرا، وهو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، [الحجر:٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ﴾ هذا كالتفسير لقوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

قال بعضهم: ﴿رَسُولًا﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة؛ لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر، وقال بعضهم: ﴿رَسُولًا﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره: أرسل رسولا، والمراد بقوله: ﴿رَسُولًا﴾ هو محمد ﷺ، ونكره لأنه معهود ومعروف.

﴿يَتْلُوا﴾ يقرأ ويقص.

﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية وهي آيات الذكر، القرآن الكريم، المنزل من عند الله؛ لأن القرآن الكريم بما اشتمل عليه من إعجاز في لفظه ومعناه وأحكامه وأخباره وصلاحيته لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، وما دل عليه من صدق من جاء به كل ذلك علامة على أنه من عند الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ حال، أي: يتلو عليكم آيات الله حال كونها مبينات.

قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ بكسر الياء وتشديدها؛ اسم فاعل، أي: أنهن مبينات للحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام.

وقرأ الباقون: «مبيَّنات» بفتح الياء مع التشديد؛ اسم مفعول، بمعنى: أوضحهن الله عز وجل وبينهن.

﴿لِّيُخْرِجَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يخرج الرسول ﷺ بما يتلو من الآيات البينات ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بالله ورسوله ﷺ وبالآيات المنزلة عليه من عند الله عز وجل.

﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم. وحذف الموصوف دون الصفة للدلالة على أن المهم كون العمل صالحًا، أي: وعملوا الأعمال الصالحات التي يتوفر فيها: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: من ظلمات الكفر والشك والجهل إلى نور الإيمان واليقين والعلم، نور القرآن الذي به الهداية وحياة القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وجمع الظلمات ووحد النور؛ لأن طرق الباطل كثيرة متشعبة، وطريق الحق واحد كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

ذكر الله عز وجل قبل هذا عذابه الدنيوي لمن عصى وتمرد عن أمر الله ورسله، وما أعد لهم من العذاب الشديد في الآخرة، ثم ذكر ما أعده لمن آمن وعمل صالحًا من الجنات وما فيها من الأنهار والرزق الحسن.

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، و«يؤمن» فعل الشرط، و«يعمل صالحًا» معطوف عليه، و«يدخله جنات» جواب الشرط.

فمن آمن بالله ورسوله، وكل ما أوجب الله الإيمان به، وعمل عملًا صالحًا خالصًا لله عز وجل ووفق شرعه استحق هذا الجزاء وهو دخول الجنات.

والجنات: ما أعده الله عز وجل لإقامة أوليائه فيها من ألوان النعيم ما لا يعلمه إلا الله كما قال عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ صفة لـ «جنات»، أي: أن أنهارها المختلفة تجري من تحت أشجارها وقصورها ومساكنها وغرفها، كما قال عز وجل: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وهي كما وصفها الله عز وجل بقوله: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ﴾، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا يتحولون عنها.

وجمع «خالدين» نظرًا لمعنى «من» في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾.

﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ﴾، «قد» للتحقيق، أي: قد أحسن الله لمن آمن بالله وعمل صالحًا، وأفرد الضمير مراعاة للفظ «من»، ﴿رِزْقًا﴾، أي: عطاءً، وأيُّ رزق وأيُّ عطاء أحسن من دخول الجنات والخلود فيها والتمتع بما فيها من ألوان النعيم ورؤية العزيز الحكيم؟! نسأل الله عز وجل من فضله.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

ذكر الله عز وجل في هذه السورة جملة من الأحكام آمرًا بها، وحذر من مخالفة أمر الله ورسوله بذكر ما حل بمن عصى وخالف من الأمم الماضية من العذاب الدنيوي وما أعد لهم من العذاب الأخروي، ممتنًا على عباده المؤمنين بإرسال الرسول الكريم وإنزال الآيات الشرعية، وما أعد لهم من الجنات والرزق، ثم أتبع ذلك بذكر عظم آياته الكونية، وكمال قدرته وسلطانه العظيم وعلمه المحيط بكل شيء.

قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾، أي: الذي أوجد وأنشأ سبع سموات، كما قال

عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ [نوح: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾، أي: وخلق من الأرض مثلهن أي: سبع أرضين، كما قال ﷺ: «من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين يوم القيامة»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «من أخذ من الأرض شيئًا بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»[2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خلق الله سبع سموات غلظ كل واحدة مسيرة خمسمائة عام، وبين كل واحدة منهن خمسمائة عام، وفوق السموات السبع الماء، والله جل ثناؤه فوق الماء لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم، والأرض سبع بين كل أرضين خمسمائة عام وغلظ كل أرض خمسمائة عام»[3].

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾، أي: يتنزل أمر الله الكوني بينهن، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾. [الأعراف: ٥٤].

أي: أن الله عز وجل خلقهن وأوجدهن، وأمره وتدبيره نافذ فيهن وفيما بينهن؛ لأنه عز وجل هو الرب الخالق المالك المدبر.

﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ اللام للتعليل، أي: أنه عز وجل خلق سبع سموات وسبع أرضين وأنفذ أمره فيهن وفيما بينهن لأجل أن تعلموا عموم قدرته وعظمتها، وسعة علمه وإحاطته بكل شيء. وهاتان الصفتان لب

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم- إثم من ظلم شيئا من الأرض ٢٤٥٣، ومسلم في البيوع- تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها ١٦١٢- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٥٤.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٧٨، والدارمي في «الرد على الجهمية» ص٢١، وابن خزيمة في التوحيد ص٧٠.

التوحيد: كمال القدرة، وكمال العلم.

والخطاب للمؤمنين؛ لقوله قبل هذا: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ هاتان الجملتان كل منهما في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿لِتَعْلَمُوٓا﴾، أي: لتعلموا قدرة الله على كل شيء، وإحاطة علمه بكل شيء.

وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء أي: على كل شيء من الأشياء صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا، خفيًا أو جليًا، دقيقًا أو جليلًا، أيا كان نوعه وكيفه وكمه.

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: ذو قدرة عظيمة تامة نافذة، فلا يعجزه شيء سبحانه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ معطوفة على الجملة قبلها، وقدم قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ لتأكيد شمول علمه وإحاطته بكل شيء، أي: لتعلموا كمال علم الله عز وجل، وإحاطة علمه بكل شيء وسعته كل شيء، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

ففي خلقه عز وجل السموات السبع والأرضين السبع، وتدبيرهن وما بينهن دليل على عظيم قدرته عز وجل وشمولها لكل شيء، وعلى إحاطة علمه وسعته لكل شيء وأن الذي يخلق، ويستحق اسم الخالق حقا هو سبحانه، إذ من لازم ذلك تمام القدرة على كل شيء، وتمام العلم وسعته لكل شيء، وليس هذا لأحد سواه سبحانه وتعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

الفوائد والأحكام:

١- التحذير من مخالفة وتكذيب أمر الله- عز وجل- ورسوله ﷺ بذكر ما حل بالمكذبين لأمر الله ورسله من الأمم السابقة من العقوبات الدنيوية وما ينتظرهم من

العقوبات الأخروية؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهَا﴾.

٣- أنه ما من قرية إلا خلا فيها نذير.

٤- أن أكثر الأمم درجوا على الكفر وتكذيب الرسل، فلا عبرة بما عليه أكثر الخلق.

٥- مرارة وشدة مخالفة أمر الله ورسله، والتهديد والوعيد لمن فعل ذلك، فحساب شديد، وعذاب منكر، وتجرع لعقوبة المخالفة، وعاقبة خيبة وخسران، وعذاب شديد في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

٦- أن النار موجودة معدة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

٧- وجوب تقوى الله- عز وجل- بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٨- تميز وفضل أصحاب العقول التي تدلهم عقولهم على معرفة الله عز وجل ومعرفة الحق والعمل به لهذا خصهم بالأمر بتقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٩- التعريض بذم من لم يستفيدوا من عقولهم بل هم أشباه البهائم كما ذكر الله عز وجل.

١٠- الامتنان من الله- عز وجل- على المؤمنين بإنزال القرآن العظيم وبعثة الرسول الكريم ﷺ والترغيب والإغراء بتذكر القرآن واتباع الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

١١- إثبات علو الله- عز وجل- على خلقه علوًا مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، فله عز وجل العلو المطلق؛ علو الذات وعلو الصفات، وعلو القدر وعلو القهر.

١٢- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق، ذكر وعظة لأولي

الألباب ؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

١٣- إثبات رسالة محمد ﷺ وتشريفه وتكريمه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- إقامة الحجة على الخلق بتبيين الآيات وتفصيلها؛ لقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾.

١٥- أن الهدف من إرسال الرسل ومنهم محمد ﷺ ومن إنزال الكتب ومنها القرآن الكريم هو إخراج الناس وبخاصة الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

١٦- أن الإيمان اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل الصالحات بالجوارح.

١٧- لابد لقبول العمل من كونه صالحًا، أي: خالصًا لله- عز وجل- وعلى سنة رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾.

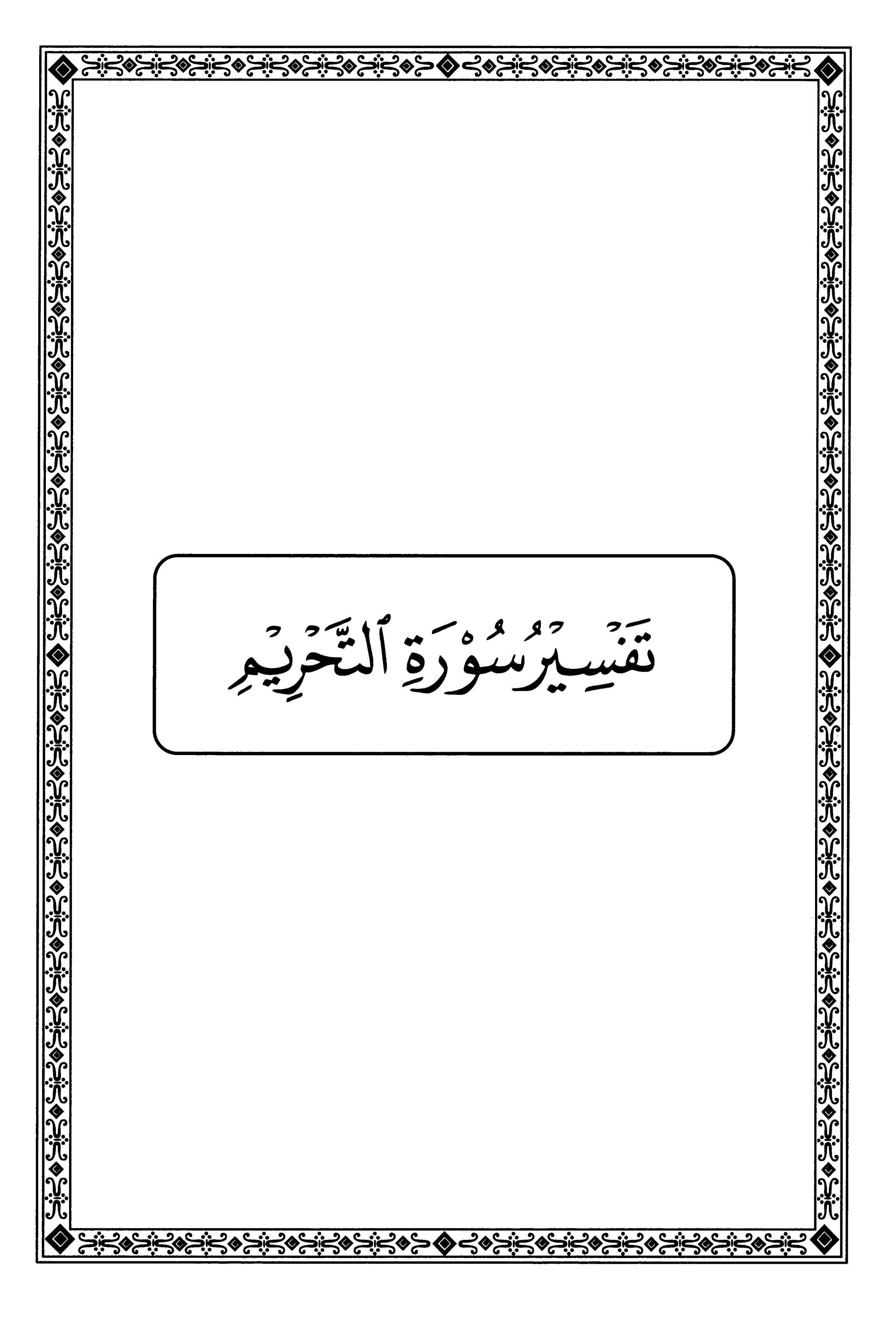
١٨- أن طريق الحق واحد وطرق الباطل كثيرة ومتشعبة؛ لإفراد النور، وجمع الظلمات.

١٩- عظم ما أعد الله- عز وجل- لمن آمن بالله وعمل صالحًا من الجنات وما فيها من النعيم والأنهار والخلود الأبدي فيها والرزق الحسن؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

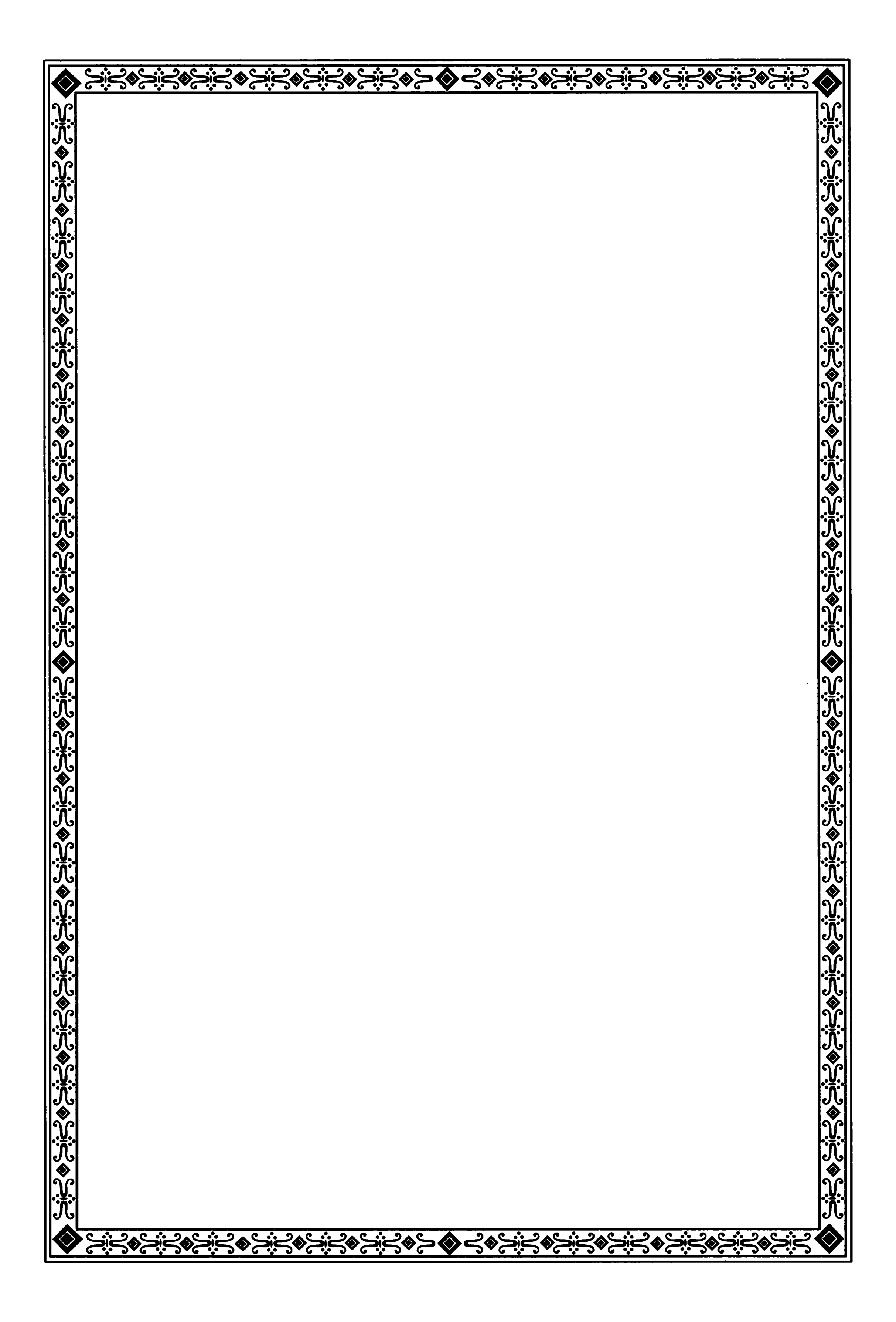
٢٠- بيان كمال قدرة الله- عز وجل- وقوته وسعة علمه وإحاطته بكل شيء في خلق السموات السبع والأرضين السبع، ونفوذ أمره الكوني فيهن، وفيما بينهن وأنه عز وجل وحده الخالق المالك المدبر؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

٢١- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وأحكامه الكونية والشرعية، وأنه عز وجل خلق السموات السبع، وخلق الأرضين السبع؛ لنعلم عموم قدرته على كل شيء، وإحاطته بكل شيء علمًا؛ فنعظمه ونعبده وحده لا شريك له.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلتَّحْرِيمِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة التحريم» بهذا الاسم؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾.

وتسمى: «سورة لم تحرّم»، و«سورة النبي ﷺ».

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [الآية:١]، بشأن تحريمه ﷺ شيئًا مما أحله الله طلبًا لمرضاة أزواجه.

٢- مشروعية التحلل من اليمين بالكفارة إذا كان غيرها خيرًا منها: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [الآية:٢].

٣- ذكر ما دار بين النبي ﷺ وبين بعض أزواجه، وعتاب الله لهن، وتخويفهن من طلاقهن: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾ [الآية:٥].

٤- أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار.

٥- لا قبول لاعتذار الكفار يوم القيامة.

٦- الحث على التوبة النصوح، والترغيب فيها بذكر ما أعد الله للتائبين.

٧- الأمر بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، ووعيدهم بجهنم وبئس المصير.

٨- ضرب مثلين أحدهما للذين كفروا، والآخر للذين آمنوا.

٩- امتداح مريم بنت عمران عليها السلام والثناء عليها.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من المرأتان اللتان قال الله فيهما: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾؟ قال: عائشة وحفصة، وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في يومها، فوجدته حفصة، فقالت: يا نبي الله لقد جئت إليّ شيئًا فريا، ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري، وعلى فراشي، قال: «ألا ترضين أن أحرمها عليّ فلا أقربها؟» قالت: بلى. فحرمها، وقال: «لا تذكري ذلك لأحد» فذكرته لعائشة فأظهره الله عز وجل عليه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ الآيات كلها فبلغنا أن النبي ﷺ كفر يمينه، وأصاب جاريته»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحدًا، وإن أم إبراهيم عليّ حرام» فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟، قال: «فوالله لا أقربها». قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة. قال: فأنزل الله: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾»(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٨، ٩٥، ٩٦، وقد أخرج أوله من حديث مطول البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١٣- ٤٩١٦، ومسلم في الطلاق- في الإيلاء ١٤٧٩، والترمذي في تفسير سورة التحريم ٣٣٧٤، وأحمد ١/ ٣٣- ٣٤.

(٢) أخرجه الهيثم بن كليب في مسنده فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٨٦ وقال ابن كثير: «وهذا إسناد =

وعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخر الآية»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلًا عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواصيت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير(٢)؟، إني أجد منك ريح مغافير فدخل على إحداهما النبي ﷺ، فقالت ذلك له، فقال: «لا، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش، ولن أعود له» فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ لقوله: «بل شربت عسلًا، ولن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحدًا»(٣).

وفي رواية عن عائشة أيضًا: أن التي أسقته العسل هي حفصة، وأن اللاتي تواطأن على تلك المقالة هن عائشة وسودة وصفية(٤).

قال ابن كثير(٥) بعد سياق هذه الرواية والتي قبلها: «والغرض أن هذا السياق فيه

= صحيح، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج».

(١) أخرجه النسائي في عشرة النساء ٣٩٥٩ والحاكم ٢/ ٤٩٣ وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

(٢) المغافير: شيء شبيه بالصمغ يكون في شجر الرمث فيه حلاوة. انظر مادة «غفر» في «الصحاح» للجوهري، «لسان العرب» وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٢٦٧، ومسلم في الطلاق- وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق ١٤٧٤، وأبو داود في الأشربة ٣٧١٤، والنسائي في الطلاق ٣٤٢١.

(٤) أخرجها أيضًا البخاري في الطلاق- باب ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ ٥٢٦٨، ومسلم في الموضع السابق.

(٥) في «تفسيره» ٨/ ١٨٩.

أن حفصة هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن خالته عائشة رضي الله عنها، وفي طريق ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة أن زينب بنت جحش هي التي سقت العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه فالله أعلم، وقد يقال: إنهما واقعتان ولا بُعْدَ في ذلك إلا أن كونهما سبب نزول الآية فيه نظر. ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان حديث ابن عباس: «لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله فيهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾»(١).

وقد رجح بعض المفسرين في سبب النزول قصة مارية؛ لأن الغيرة هي التي تحمل النساء على مثل هذه المواقف وبهذا قال جمع من مفسري السلف(٢).

ورجح بعضهم قصة شرب العسل منهم ابن العربي والقرطبي(٣).

وهكذا قال ابن كثير(٤): «والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل» ثم ذكر ما رواه البخاري وغيره.

ولا شك أن قصة مارية أقوى من حيث المعنى إلا أن الأولى اعتبار القصتين في سبب النزول، نظرًا لصحة إسناد كل منهما.

قال الطبري(٥): «والصواب من القول في ذلك أن يقال: كان الذي حرمه رسول الله ﷺ على نفسه شيئًا كان الله قد أحله له، فجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون شرابًا من الأشربة، وجائز أن يكون غير ذلك، غير أنه أي ذلك كان، فإنه تحريم

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ٨٣- ٨٨.

(٣) انظر «أحكام القرآن» لابن العربي ٤/ ١٨٤٤- ١٨٤٦، «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ١٧٩.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ١٨٧.

(٥) في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٩.

شيء كان له حلالًا فعاتبه الله تعالى ذكره على تحريمه على نفسه ما كان قد أحله، وبيّن تحلة يمينه».

وقال ابن حجر(١): «يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معًا».

وقال الشوكاني(٢): «فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين قصة العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعًا، وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه».

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب و«ها» للتنبيه و«النبي» صفة لأي، أو بدل منها. و«ال» فيه للعهد الذهني، أي: النبي المعهود المعلوم المعروف، محمد ﷺ.

والنبي مشتق من النبأ وهو الخبر؛ لأنه مُخْبَر من عند الله، ومُخْبِر لقومه، ومشتق من النبوة وهو المكان المرتفع؛ لعظم ورفعة منزلة الأنبياء عليهم السلام.

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الاستفهام للتنبيه والعتاب أي: لماذا تحرم الذي أحله الله لك من العسل، أو مارية القبطية، أو غير ذلك.

﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾، أي: تطلب وتريد رضا أزواجك عائشة وحفصة، أو غيرهما، كما جاء في سبب النزول.

وهذا يقوي أن الذي حرمه على نفسه هو مارية القبطية، وأيًا كان الذي حرم على نفسه ﷺ- فإن في هذا دليلًا على عدم عصمته ﷺ عن الصغائر وكذا سائر الأنبياء- عليهم السلام- من باب أولى لكنهم يوفقون للتوبة منها والرجوع عنها.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة، وذو الرحمة العامة والخاصة، ومن

(١) في «فتح الباري» ١٠/ ٢٨٣.
(٢) في «فتح القدير» ٥/ ٢٥٢.

مغفرته عز وجل ورحمته أن غفر لرسوله ﷺ ما حصل منه من تحريم الحلال على نفسه ورحمه ورحم أمته بفرض الكفارة.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾، «قد» للتحقيق، و«فرض» بمعنى أوجب، أي: قد أوجب الله لكم تحليل أيمانكم، أو التحلل من أيمانكم والخروج من تبعتها بالكفارة، وهذا إذا كانت على تحريم الحلال ونحو ذلك كتحليل الحرام فيجب التكفير عنها والحنث.

أما ما عدا ذلك فيجب الوفاء بها. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ﴾ [المائدة:٨٩].

قال ابن عباس: «﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] يعني أن النبي ﷺ حرم جاريته، فقال الله جل ثناؤه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ فكفر يمينه، فصير الحرام يمينًا»(١).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «في الحرام يمين تكفر وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]»(٢).

ففرض الله عز وجل وأوجب على من حلف على تحريم الحلال أن يتحلل من يمينه بالكفارة أيا كان هذا الحلال الذي حلف على تحريمه سواء جاريته أو طعامًا أو شرابًا،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٧.

(٢) أخرجها البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١١، ومسلم في الطلاق- وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق ١٤٧٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٢٠، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٧٣.

أو ملبسًا، أو أي شيء من المباحات، وهذا هو ظاهر قوله عز وجل: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ وقال ﷺ: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»(١).

وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فكفر عن يمينك وائت الذي هو خير»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن يحنث في يمينه قط حتى أنزل الله كفارة اليمين، وقال: «لا أحلف على يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني»(٤).

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾، أي: والله متولي أموركم، وناصركم ومعينكم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، «العليم» و«الحكيم» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو العلم الواسع والحكم التام والحكمة البالغة.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾، أي: واذكر حين أسر النبي إلى بعض أزواجه، وهي حفصة رضي الله عنها في قول أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم ﴿حَدِيثًا﴾ هو قوله لحفصة- رضي الله عنها- كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في سبب النزول

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٥١٨، ومسلم في الأيمان ١٦٤٩، والنسائي في الصيد والذبائح ٤٣٤٦، وابن ماجه في الكفارات ٢١٠٧ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور ٦٦٢٢، ومسلم في الأيمان ١٦٥٢، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٧٨، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٤.

(٣) أخرجه مسلم في الأيمان ١٦٥٠، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور ٦٦٢١.

في شأن مارية «ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها، قالت: بلى فحرمها. وقال: لا تذكري ذلك لأحد»(١).

أو هو قوله ﷺ: «بل شربت عسلًا ولن أعود، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحدا» كما جاء هذا في حديث عائشة رضي الله عنها في سبب النزول.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، أي: فلما أخبرت حفصة بما أسر به النبي ﷺ إليها عائشة رضي الله عنهما.

﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، أي: وأطلعه الله عز وجل على أن حفصة أخبرت عائشة.

﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ قرأ الكسائي: «عَرَفَ» بتخفيف الراء، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿عَرَّفَ﴾.

أي: عرّف حفصة بعض ما أفشت من حديثه ﷺ، ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، أي: تركه فلم يعرفها به، ولم يعرض له، كرمًا منه ﷺ وحلمًا.

وهكذا ينبغي لمن يعاتب أخًا له ألا يكثر عليه وأن يعرض عن كثير مما حصل منه، فليس كل شيء يذكر، فالعافية جلها أو كلها بالتغافل.

عن عثمان بن أبي زائدة قال: «العافية عشرة أجزاء، تسعة منها بالتغافل»، وقال الإمام أحمد: «العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل»(٢).

قال الشاعر:

ليس الغبي بسيد في قومه ... لكنَّ سيد قومه المتغابي(٣)

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾، أي: فلما أخبرها به، أي أخبر حفصة بعلمه أنها أخبرت بما أسر به

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٨، ٩٥، ٩٦.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ١/ ٥٧٥ (٨٠٢٨)، وأبو الطاهر السلفي في« السادس والعشرون من المشيخة السلفية البغدادية» ص١٦، وابن الفراء في التوكل» ص٦٥، وانظر: «الآداب الشرعية» ٢/ ١٧، «تهذيب الكمال» ١٩/ ٣٦٩.

(٣) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٢٠، «زهر الآداب» ١/ ١١٧.

إليها وأفشت سره لعائشة رضي الله عنهما.

﴿قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ﴾، أي: قالت حفصة رضي الله عنها من أخبرك.

﴿هَٰذَا﴾، أي: هذا الخبر وهو أني أفشيت ما أسررتَ به إليَّ، والذي لم يخرج منا، وكأنها ظنت أن عائشة رضي الله عنها أخبرته بذلك.

﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، «العليم» ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء، و«الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وعلى هذا فهو مطلع على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

لكن في حال اجتماع هذين الاسمين معًا يحمل «العليم» على العلم بالظواهر والجلائل والجليات، ويحمل «الخبير» على العلم بالبواطن والدقائق والخفيات.

والمعنى: قال أخبرني العليم الخبير بكل شيء، المطلع على الظواهر والبواطن، والذي يعلم السر وأخفى، والذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

هذا عتاب من الله عز وجل لحفصة وعائشة رضي الله عنهما وعرض للتوبة عليهما، وتذكير لهما بأنهما حصل منهما ما لا ينبغي.

قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، التوبة معناها: الرجوع والإنابة إلى الله- عز وجل- بشروطها، أي: إن ترجعا إلى الله وتنيبا إليه.

﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾، أي: فقد مالت قلوبكما إلى ما فيه مشقة عليه ﷺ، مما كان سببًا في تحريمه على نفسه ما يحبه.

وجمع القلوب مع أنهما قلبان للتخفيف وكراهة الجمع بين تثنيتين متواليتين وهذا كقوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾، أي: وإن تتظاهرا عليه، فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا، أي: وإن تتعاونا عليه بما يشق عليه ﷺ ويستمر هذا منكن.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه من المرأتان اللتان قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾؟ قال: «عائشة وحفصة»(١).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾، أي: متوليه وناصره ومعينه.

﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جبريل: هو ملك الوحي عليه السلام.

﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: ومن صلح من المؤمنين، أو: والمؤمنون الصالحون، الذين جمعوا بين الإيمان وإصلاح العمل، بالإخلاص لله عز وجل ومتابعة الرسول ﷺ كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وغيرهم من المؤمنين رضي الله عنهم.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، أي: ظهير له، أي: أعوان له ﷺ.

والمعنى: فإن الله هو متوليه وناصره ومعينه، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة أولياؤه وأنصاره وأعوانه- بعد الله- عز وجل، وفي هذا أعظم تشريف وتكريم له ﷺ، ودفاع عنه، وحفظ له، كما أن فيه من التحذير لحفصة وعائشة رضي الله عنهما ما لا يخفى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حدثني عمر بن الخطاب قال: «لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب. فقلت: لأعلمن ذلك اليوم» وذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة، ووعظه إياهما، وفي استئذانه على رسول الله ﷺ ثم قال: «فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت،- وأحمد

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١٣، ٤٩١٤، ٤٩١٥، ومسلم في الطلاق- باب في الإيلاء ١٤٧٩- وقد سبق تخريجه في سبب النزول.

الله- بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، ونزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، فقلت: أطلقتهن؟ قال: لا. فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] فكنت استنبطت ذلك الأمر»(١).

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾

ذكر الله عز وجل في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ الآية أنه متول رسوله ﷺ وناصره، وجبريل وصالح المؤمنين أيضًا أنصاره وأعوانه. وفي هذا من التخويف لأزواجه ما لا يخفى، ثم خوفهن بأمر يشق على النساء كثيرًا وهو الطلاق فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾.

سبب النزول:

عن أنس رضي الله عنه، قال: قال عمر رضي الله عنه: «اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن، فنزلت هذه الآية»(٢)

وعنه رضي الله عنه قال عمر رضي الله عنه: «وافقت الله في ثلاث، أووافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية

(١) أخرجه مسلم في الطلاق- باب الإيلاء ١٤٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٩٩- ١٠٠.

الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن، قلت إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيرًا منكن، حتى أتيت إحدى نسائه، قالت: يا عمر أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾»[1].

وفي حديث ابن عباس المذكور آنفًا: «قال عمر: فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنين معك... ونزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾».

«عسى» من الله واجبة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]، أي: وعد محقق منه عز وجل.

وفي إضافة «رب» إلى ضميره ﷺ في قوله: ﴿رَبُّهُۥٓ﴾ إضافة إلى تشريفه ﷺ وتكريمه إشارة أيضا إلى أنه ﷺ يلوذ بملاذ عظيم، ويأوي إلى ركن شديد هو ربه الذي بيده الخلق والملك والتدبير.

﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، أي: إن حصل منه تطليق وفراق لكن. وهذا فيه تخويف لهن كما سبق.

﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الإبدال والتبديل جعل شيء مكان شيء.

والمعنى: أن يرزقه بدلكن ومكانكن ويعوضه عنكن أزواجًا خيرًا وأفضل منكن مطلقا دينًا ودنيا. وهذا لو طلقهن، لكنه لم يطلقهن فبقين هن أمهات المؤمنين وأفضل

---

(١) أخرجه البخاري في «تفسير سورة البقرة- قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ ٤٤٨٣.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه فيما ذكره الزركشي في «البرهان» ٤/ ٢٨٨. وانظر «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ٢/ ٨٩٣- ٨٩٤.

نساء الأمة رضي الله عنهن.

قال السعدي[١]: «وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ﷺ ما طلقهن، ولو طلقهن لكان ما ذكره الله عز وجل من هذه الأزواج الفاضلات».

﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، أي: مستسلمات منقادات ظاهرًا بجوارحهن بفعل الأعمال الظاهرة.

﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾، أي: مصدقات منقادات باطنًا بقلوبهن، أي: أنهن منقادات ظاهرًا وباطنًا.

ويؤخذ من ذكر «مسلمات»، «مؤمنات»، ومن تقديم «مسلمات» على «مؤمنات» أن الإيمان غير الإسلام، وأن الإسلام أعم، وأن الإيمان أخص، وقد سبق الكلام على هذا في سورة الحجرات، وفي سورة الذاريات.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ القنوت دوام الطاعة، أي: مطيعات مديمات لطاعة الله عز وجل، وطاعة أزواجهن.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾، أي: راجعات إلى الله ومنيبات إليه.

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾، أي: مخلصات العبودية لله عز وجل متذللات خاضعات له سبحانه، قائمات بما يحب سبحانه.

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع، وفي الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾، أي: صائمات. بهذا فسرها جمهور السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وقال بعضهم: معنى ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾، أي: مهاجرات.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٢١.

والأول أقرب.

﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ الثيب: التي سبق أن تزوجت، والبكر: التي لم تتزوج بعد، أي: لم تفتض بكارتها.

وقد وسط الواو بين ﴿ثَيِّبَٰتٖ﴾، ﴿وَأَبۡكَارٗا﴾ دون بقية الصفات؛ لأنهما صفتان متنافيتان، لا يمكن اجتماعهما بخلاف بقية الصفات فقد تجتمع.

وقدم الثيبات على الأبكار- والله أعلم- لأن الثيبات عندهن من التجربة في أمور الحياة والرزانة ما ليس عند الأبكار.

وناهيك بموقف خديجة رضي الله عنها لما جاء ﷺ في ابتداء الوحي فزعًا يقول: «لقد خشيت على نفسي» فقالت رضي الله عنها: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق..»(١).

وموقف أم سلمة رضي الله عنها وحكمتها يوم الحديبية، لما قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال: فلم يقم أحد منهم، فشق عليه ذلك. فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. ففعل ذلك، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا»(٢).

ولم يعطف هذه الصفات بعضها على بعض بالواو لأجل التنصيص على ثبوت جميع هذه الصفات لكل واحدة منهن. ولو عطفت بالواو لاحتمل أن بعضهن يتصف بكذا وبعضهن يتصف بكذا، ولهذا لما أريد هذا المعنى في الثيبات والأبكار وسط الواو بينهن لتنافي هتين الصفتين وعدم اجتماعهما أما بقية الصفات فيمكن اجتماعها في الواحدة منهن.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٣، ومسلم في الإيمان ١٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٣١- من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

قال السعدي[١]: «فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

٢- نداؤه ﷺ بوصف النبوة تشريفًا وتكريمًا له.

٣- معاتبة الله- عز وجل- لنبيه ﷺ في تحريمه ما أحل الله له سواء جاريته أو العسل أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾.

٤- أنه ﷺ ليس معصومًا عن الوقوع في الصغائر، وكذلك سائر الأنبياء من باب أولى لكنهم يرجعون عنها ويتوبون.

٥- لا يجوز تحريم ما أحل الله من الطيبات كما لا يجوز تحليل ما حرم الله من الخبائث؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

٦- الحذر من إرضاء الأزواج، أو الأولاد أو غيرهم فيما يسخط الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾.

٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل- وصفة الرحمة الواسعة له سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

٨- وجوب التحلل من الأيمان والتكفير عنها إذا كانت على تحريم حلال أو تحليل حرام، ووجوب التكفير عنها مطلقًا إذا حصل الحنث فيها؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾.

٩- إثبات ولاية الله- عز وجل- للمؤمنين ونصره وتأييده وحفظه وتسديده لهم؛

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٢٢.

لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾.

١٠- إثبات اسم «العليم» و«الحكيم» من أسمائه عز وجل وأنه عز وجل ذو العلم الواسع والحكم النافذ والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، وقوله: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

١١- إسراره ﷺ إلى بعض أزواجه حديثًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾.

١٢- إطلاع الله- عز وجل- لنبيه ﷺ على شيء مما غاب عنه تأييدًا له ﷺ ومن ذلك إظهاره له على إفشاء إحدى زوجاته ما أسر به إليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

١٣- كرم خلقه ﷺ إذ لم يعاتب من أفشت سره ﷺ إلا على بعض ما حصل منها وأعرض عن بعض؛ لقوله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾.

١٤- فضل التغافل عن بعض ما يقع بين المعاشر وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾.

١٥- إثبات اسم الله- عز وجل- «الخبير» وما يدل عليه من سعة خبرته عز وجل واطلاعه على بواطن الأمور وخفاياها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾.

١٦- عتاب الله- عز وجل- لحفصة وعائشة- رضي الله عنهما- وحثهما على التوبة مما حصل منهما من ميل قلوبهما إلى ما فيه مشقة عليه ﷺ، وتحذير هما من التعاون عليه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ الآية.

١٧- دفاع الله- عز وجل- عن نبيه ﷺ وتوليه إياه بولايته الخاصة، وتولي جبريل والملائكة وصالح المؤمنين، له ﷺ، ونصرتهم إياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ

ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

١٨- إثبات ولاية الله تعالى لرسوله وللمؤمنين، وولاية جبريل والملائكة لهم، وولايتهم فيما بينهم.

١٩- إثبات وجود جبريل والملائكة، ووجوب الإيمان بهم.

٢٠- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه ﷺ لقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾، وتشريفه ﷺ وتكريمه بها، وبإضافة اسم الرب تعالى أو وصفه إلى ضميره ﷺ.

٢١- التهديد لأزواج النبي ﷺ بطلاقه لهن واستبدالهن بأزواج خير منهن فيهن أجمل الصفات وأكملها؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الآية، و«عسى» من الله واجبة، وفيها وعد من الله تعالى بإبداله- لو طلقهن- خيرًا منهن، لكنه ﷺ لم يطلقهن.

٢٢- إباحة الطلاق، وأنه جائز له ﷺ أن يطلق من شاء من أزواجه أو يطلقهن كلهن.

٢٣- أن الإسلام أعم من الإيمان فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا؛ لقوله تعالى: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾.

٢٤- الترغيب لأزواج النبي ﷺ ولغيرهن من نساء المسلمين بل وللمسلمين عامة بالاتصاف بالصفات المذكورة: الإسلام والإيمان والقنوت والتوبة والعبادة والسياحة- وهي الصيام- لقوله تعالى: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾.

٢٥- في تقديم الثيبات على الأبكار في الآية إشارة لمكانتهن؛ لما لهن من التجربة والرزانة- والله أعلم- لقوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، أي: اجعلوا لأنفسكم وأهليكم من أزواج وأولاد وغيرهم وقاية من النار بتقوى الله عز وجل بأنفسكم بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبتعليم أهليكم من أزواج وأولاد وغيرهم وإرشادهم، واختيار الطريقة الحكيمة في التعامل معهم وتوجيههم، وحملهم على تقوى الله عز وجل كما قال ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»[(١)].

وقدّم الأنفس لأن أول ما يجب أن يبدأ به المرء نفسه، فهي أمانة عنده يجب أن يحملها على ما فيه صلاحها واستقامتها وسلامتها ونجاتها؛ ولهذا جاء في النفقة قوله ﷺ «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[(٢)].

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- متى يؤمر الغلام بالصلاة ٤٩٥، والترمذي في المواقيت- متى يؤمر الصبي بالصلاة ٤٠٥، وأحمد ٣/ ٤٠٤ من حديث سبرة بن معبد الجهني رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وأخرجه أبو داود أيضًا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ٩٩٧، من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسم قال: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء فلذي قرابتك... الخ»، والنسائي في البيوع ٤٦٥٢.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «أفضل الصدقة ما ترك غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول..» أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٥، وأبو داود في الزكاة ١٦٧٦ والنسائي في الزكاة ٢٥٣٤.

وقرن الأهل بالأنفس إشارة إلى عظم مسؤولية الإنسان عن أهله، كما قال ﷺ: «فالرجل راع ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها» الحديث(١).

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»(٢).

وقوله: ﴿نَارًا﴾ بالتنكير، أي: نارًا شديدة عظيمة ليست كناركم المعروفة.

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ وقودها: ما توقد به أي: أنها توقد بالناس، أي: بجثث بني آدم، وبالحجارة، وليست توقد بالحطب والخشب كنار الدنيا.

والمراد بالحجارة حجارة الكبريت شديدة الاشتعال، وشديدة الحرارة، شديدة النتن، ومن ذلك الأصنام التي تعبد من دون الله من الأحجار وغيرها كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية: ٢٤].

﴿عَلَيْهَا﴾، أي: قد أوكل على هذه النار ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ وهم خزنة النار وزبانيتها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠].

ومن هؤلاء الملائكة: «مالك» خازن النار، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٩٣، ومسلم في الإمارة ١٨٢٩، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٢٩٢٨، والترمذي في الجهاد ١٧٠٥ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٥١، ومسلم في الإيمان ١٤٢.

﴿غِلَاظٌ﴾، أي: غلاظ القلوب والأكباد والطباع، قد نزعت الرحمة من قلوبهم بالكافرين.

﴿شِدَادٌ﴾ أقوياء الأجسام، تركيبهم في غاية الشدة والضخامة والمنظر المزعج.

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، «لا» نافية، ومعصية الله مخالفته بترك أمره أو ارتكاب نهيه.

﴿مَآ أَمَرَهُمْ﴾، «ما» مصدرية، والمصدر المؤول في محل نصب بدل من لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، أي: لا يعصون أمر الله.

ويجوز أن تكون «ما» موصولة ، أي: لا يعصون الله الذي أمرهم به.

والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها؛ فالمراد هنا: إثبات كمال طاعتهم لله عز وجل ومبادرتهم لتنفيذ أمره، وكمال قدرتهم على ذلك، وهو ما صرح به في قوله:

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: ويفعلون كل الذي يأمرهم الله عز وجل به، من غير توان ولا عجز.

وقوله: ﴿مَا يُؤْمَرُونَ﴾ دون أن يقول: ما يأمرهم الله به. لأنه معلوم أنه عز وجل هو الذي يأمرهم، ولقوله قبله ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: ياأيها الذين جحدوا وأنكروا وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه، أو شيئًا من ذلك.

وصدر الخطاب بالنداء للعناية والاهتمام، والتنبيه لهم. ونودوا بوصف الكفر إهانة وتحقيرًا لهم، ولبيان أن هذا الوصف وهو الكفر هو الذي أوقعهم فيما هم فيه من العذاب والمصير السيء.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾، «لا» ناهية، والاعتذار: تقديم العذر، وطلب المعذرة والمسامحة، والمراد باليوم يوم القيامة المعلوم المعهود الثقيل الشديد.

والمعنى: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم. وقد يكون النهي هنا بمعنى النفي: أي: لا عذر لكم يوم القيامة.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، «إنما» أداة حصر و«ما» موصولة، أو مصدرية، والمعنى: لا تجزون وتحاسبون وتعاقبون إلا بعملكم أو بالذي كنتم تعملون.

وقال ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دون أن يقول: بما كنتم تعملون، فكأن الجزاء هو نفس العمل للإشارة والتنبيه إلى أن الجزاء من جنس العمل تمامًا، وأن الإنسان كما يدين يدان كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] أي: موافقًا لأعمالهم.

والمعنى: لا تعتذروا فلن يقبل منكم، أو لا عذر لكم، ولن تظلموا إنما تجازون بالذي كنتم تعملون من غير زيادة ولا نقص، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: ارجعوا إلى الله، وأنيبوا إليه، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤].

﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بضم النون: «نُصوحا»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿نَّصُوحًا﴾.

و«توبة» مصدر، و«نصوحا» صفة لها، أي: رجعة وأوبة وإنابة صادقة، هي محض الصدق والنصح والإخلاص، لا غش فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٢].

قال ابن القيم(١): «النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٨٦- ٤٨٧.

انتظار، بل يجمع عليها كل إراداته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده.

لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول يتعلق بما يتوب منه، والثالث يتعلق بما يتوب إليه، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه.

فنصح التوبة: الصدق فيها والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة».

أي: توبة صادقة يتوفر فيها شروط التوبة الخمسة، الأول: الإخلاص لله تعالى، فلا تكون خوفًا أو رجاء من غيره ونحو ذلك.

الشرط الثاني: الإقلاع عن المعصية ومن ذلك رد حقوق الآدميين إليهم، فإنه لا يعتبر مقلعًا عن المعصية من لم تزل حقوق الآدميين في ذمته.

الشرط الثالث: الندم على فعل المعصية، وقد قال ﷺ: «الندم توبة»(١).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن التوبة النصوح، فقال: «الندم على الذنب حين يفرط منك، فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبدًا»(٢).

الشرط الرابع: العزم على عدم العودة إليها مرة ثانية، قال عمر بن الخطاب رضي

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٧٦، وابن ماجه في الزهد- ذكر التوبة ٤٢٥٢، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٢.

الله عنه: «التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه»(١).

وروي نحوه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه(٢).

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقتها المناسب، قبل بلوغ الروح الحلقوم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

وقال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٣).

وأن تكون التوبة قبل غلق بابها بطلوع الشمس من مغربها، وفي الحديث «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»(٤).

وقال ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»(٥).

وتقبل التوبة من الذنب، من العبد وإن كان مقيما على غيره، على الصحيح من أقوال أهل العلم خلافًا للمعتزلة الذين يقولون: لا يعتبر تائبًا من أقام على ذنب؛ لأن من تاب من ذنب يقال له: تائب مطلق توبة.

ومن عَدْل الله عز وجل أن يجازيه على توبته من ذلك الذنب، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٠٦-١٠٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٢.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٠٧.
(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٣، وأحمد ٢/ ١٣٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال الترمذي: «حسن غريب» وصححه الحاكم ٢/ ٢٤٩، ووافقه الذهبي.
(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٤٧٩، والدارمي في السير ٢٥١٣ من حديث معاوية رضي الله عنه.
(٥) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٩ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

[الزلزلة: ٧، ٨].

لكن لا يستحق الوصف بالتوبة المطلقة إلا من تاب من جميع الذنوب فهذا هو التائب التوبة المطلقة؛ وهي التوبة النصوح.

وليس من لازم قبول التوبة ولا من شرط صحتها أن لا يقع الإنسان في الذنب مرة أخرى، فمن توفرت فيه شروط التوبة السابقة فتوبته صحيحة، وهي مقبولة بإذن الله عز وجل، فإن عاد للذنب فعليه أن يتوب مرة أخرى، وهكذا ما لم يضمر في نفسه أنه سيعود إلى الذنب فهذا لا تصح توبته لأنه لم يعزم على عدم العودة إلى الذنب، بل أضمر أنه سيعود إليه أو عزم على ذلك فلا معنى لتوبته.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، «عسى» للترجي إذا كانت من المخلوق كما قيل:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب[(١)]

وقال الآخر:

عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر[(٢)]

وهي من الله واجبة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[(٣)].

والمعنى: أنها وعد من الله سيتحقق لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد ولهذا أضافها إلى اسم الرب؛ لأنه الذي بيده الخلق والملك والتدبير.

﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، أي: أن يمحو عنكم سيئاتكم ويزيلها، ويسترها عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبتها.

والسيئات: جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي، سميت بذلك لأنها تسوء صاحبها

(١) البيت لهدبة بن خشرم وهو في «ديوانه» ص٥٤.

(٢) البيت لمحمد بن إسماعيل كما في «حاشية شذور الذهب» ص٣٥١.

(٣) أخرجه البيهقي في سننه فيما ذكره الزركشي في «البرهان» ٤/ ٢٨٨.

في الحال والمآل، كما قد تسوء غيره بأثرها المباشر إذا كانت متعدية، أو بأثرها العام على البلاد والعباد إذا كانت غير متعدية.

﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: ويدخلكم جنات تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار المختلفة من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل.

فمن تاب إلى الله عز وجل توبة نصوحًا صادقة، فإن الله عز وجل يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، بل ويبدل سيئاته حسنات كما قال عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾، ﴿يَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ﴾، أي: لا يذل ولا يهين ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾، «ال» للعهد الذهني، أي: النبي المعهود، محمدًا ﷺ، وقد رُويَ أنه ﷺ قال في صلاته يوم الفتح «اللهم لا تخزني يوم القيامة»(١).

وهكذا قال الخليل عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]، وامتن الله عز وجل على نبيه صالح عليه السلام والذين آمنوا معه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

والمعنى: يوم القيامة لا يذل الله النبي والذين آمنوا معه، ولا يهينهم، بل يعزهم ويكرمهم غاية الإكرام وأكمله؛ لأنهم أكرم الخلق عنده، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والصفة هنا منفية، والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] فقوله: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ صفة منفية جيء بها لإثبات كمال ضدها، وهي الحياة.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٣٤، من حديث يحيى بن حسان عن رجل من بني كنانة قال: صليت خلف النبي ﷺ عام الفتح، فسمعته يقول: «اللهم لا تخزني يوم القيامة».

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾، أي: نور النبي ﷺ والمؤمنين معه يسير أمامهم يستضيؤن به، وعن أيمانهم لفضل اليمين- في عرصات القيامة على قدر أعمالهم.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يقولون: يا ربنا، خالقنا ومالكنا ومدبر أمورنا ﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾، أي: اجعل نورنا تامًا كاملًا مستمرًا معنا، وذلك عندما يرون نور المنافقين قد انطفأ.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾، أي: استر ذنوبنا عن الخلق وتجاوز عن عقوبتنا عليها.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: إنك ذو قدرة تامة على كل شيء، لا يعجزك شيء مهما كان.

وقدم المتعلق، وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ لتأكيد عموم قدرته ونفوذها في كل شيء.

عن أبي ذر وأبي الدرداء رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم» فقال رجل: يا رسول كيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ قال: «غر محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم بين أيديهم»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء تنبيها لعظم الأمر وأهميته؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وعلى امتثال ما بعد هذا النداء من أوامر؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٩.

٣- وجوب السعي في تخليص الأنفس والأهل من الأزواج والأولاد والوالدين والأقارب وغيرهم من النار بحملهم على طاعة الله تعالى وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾.

٤- شدة النار وعظمها وأن وقودها الكفرة من الناس وحجارة الكبريت التي هي في غاية الحرارة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾.

٥- غلظة زبانية جهنم وشدتهم وعدم معصيتهم لله، وفعلهم ما يؤمرون به من تعذيب الكفرة المجرمين والعصاة وغير ذلك وفي هذا أشد التحذير منهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.

٦- الإيمان بوجود الملائكة وطاعتهم المطلقة لله عز وجل بلا معصية، وفضيلتهم، لكن الرسل عليهم السلام وصالح المؤمنين، أفضل منهم[(١)].

٧- الوعيد والتهديد للكافرين وأنه لا يقبل منهم الاعتذار يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان وما ربك بظلام للعبيد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

٩- وجوب التوبة إلى الله توبة صادقة نصوحا؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾.

١٠- وعد الله- عز وجل- الذي لا يتخلف لمن تابوا وأنابوا إليه بتكفير سيئاتهم وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

١١- إكرام الله عز وجل لنبيه ﷺ والذين آمنوا معه غاية الإكرام يوم القيامة؛

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٠/ ٣٠٠.

لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾.

١٢- كما استنار النبي ﷺ والمؤمنون بنور الله بالإيمان والعمل الصالح في الدنيا كان ذلك لهم نورًا في عرصات القيامة يسعى أمامهم وعن أيمانهم مغتبطين به يسألون الله إتمام نورهم ومغفرته؛ لقوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾.

١٣- فضل اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله الخاصة للمؤمنين، وتكريمهم بها؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾.

١٥- إثبات قدرة الله- عز وجل- التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ سبق الكلام عليه في مطلع السورة.

﴿جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾، أي: ابذل الجهد في قتال الكفار الذين أظهروا الكفر بالله ورسوله، بالسيف والسنان، وجاهد المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر بالحجة والبرهان ودحض شبههم وفضح نفاقهم.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: شدد الغلظة عليهم، ولا تلن معهم، وهو أمر له ﷺ وللمؤمنين كما قال تعالى في وصفهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾، أي: ومأوى الكافرين والمنافقين، الذي يأوون إليه ومصيرهم الذي يصيرون إليه في الآخرة.

﴿جَهَنَّمُ﴾، أي: النار، وسميت بجهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: وبئس المرجع والمآل جهنم، وبئس المصير مصيرهم.

ولا يُقدر شدة قبح هذا المصير وسوئه، إلا الذي وصفه بهذا الوصف، وهو العليم الخبير.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ضرب المثل: هو تقريب الأمر والشيء المعنوي المعقول بتشبيهه بالشيء المحسوس لزيادة الإيضاح والبيان، والمثل: الشبه.

قال السعدي(١): «هذان المثلان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين، ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن، وقربه منه، لا يفيده شيئا، وأن اتصال المؤمن بالكافر، لا يضره، مع قيامه بالواجب عليه، فكأن في ذلك إشارة وتحذيرًا لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئا مع الإساءة».

قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: في عدم انتفاعهم من صلتهم بالمؤمنين ومعاشرتهم لهم وقربهم منهم.

﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾، أي: امرأة نبي الله ورسوله «نوح» عليه السلام، الذي هو أول رسل الله عز وجل، وأحد أولي العزم من الرسل.

﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾، أي: وامرأة نبي الله عز وجل ورسوله لوط عليه السلام.

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾، أي: في عصمتهما والمراد بالعبودية هنا العبودية الخاصة، ولم يقل تحت نبيين أو رسولين، وإنما وصفهما بالعبودية لأن العبودية لله هي أشرف ما يتصف به البشر.

ولهذا وصف الله بها أفضل رسله محمدًا صلى الله عليه في أعلى المقامات وهو مقام العبادة فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وفي مقام الإسراء، والقرب

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٢٥.

منه عز وجل، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

﴿صَٰلِحَيْنِ﴾، أي: مخلصين العبادة لله عز وجل، متبعين ما جاء عنه سبحانه وتعالى.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بعدم اتباعهما، وكفرهما بالله.

وليس المراد بالخيانة فعل الفاحشة فإن نساء الأنبياء عليهم السلام معصومات عن الوقوع في الفاحشة؛ لحرمة الأنبياء عليهم السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: «ما زنتا، أما امرأة نوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه»[(١)].

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا﴾، أي: فلم يغن نوح ولوط عليهما السلام مع مكانتهما عند الله وكونهما من رسله عن زوجتيهما.

﴿مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أي: فلم يستطيعا هدايتهما، ولم يدفعا أو يمنعا عنهما عذاب الله؛ لأنهما كفرتا بالله ﴿وَقِيلَ﴾، أي: وقيل لهما، أي: للزوجتين ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾، أي: مع جملة الداخلين فيها، وفي عدادهم.

قال ابن القيم[(٢)]: «قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهما».

وقال أيضًا[(٣)]: «فتضمن مثل الكفار: أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو صلة

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١١١- ١١٢.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٠.
(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٨٧- ٤٨٨.

صهر أو سبب من أسباب الاتصال، فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلا بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان، لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين، قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف أمره ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال، فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية، ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٣٣]».

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذا المثل في مقابلة المثل الأول: فضرب الله أولًا مثلًا للذين كفروا لا تنفعهم صلتهم بالمؤمنين الصالحين وقربهم منهم، ثم ضرب مثلًا للذين آمنوا، لا تضرهم صلتهم وقرابتهم للكافرين مع قيامهم بالواجب عليهم تجاههم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال قتادة: «كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعدهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها؛ لتعلموا أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه»(١).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٥- ١١٦.

وفرعون هو ملك مصر في عهد موسى عليه السلام وهو الذي ادعى الربوبية وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، كما ادعى الألوهية فقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨] أهلكه الله ومن معه بالغرق، وامرأته هي: آسية بنت مزاحم- رضي الله عنها.

﴿إِذۡ قَالَتۡ﴾، أي: حين قالت: ﴿رَبِّ﴾، أي: يارب ابن لي، ونادته سبحانه باسم الربوبية الذي معناه: الخالق المالك المدبر، ليكون أنجع في طلبها، فكأنها تقول: يا من له الخلق والملك والتدبير.

﴿ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ وقدمت ﴿عِندَكَ﴾ على ﴿بَيۡتٗا﴾ فاختارت الجار قبل الدار- رضي الله عنها- ويؤخذ من هذا الإغراء والترغيب في طلب جواره عز وجل بالإيمان والعمل الصالح والدعاء الصادق.

كما يؤخذ منه درس لاختيار الجار حتى في هذه الدار، وهذا أمر يغفل عنه الكثيرون، يأخذون في الحسبان عرض الشوارع المحيطة بالأرض وكونها جنوبية أو شرقية، لا غربية ولا شمالية وينسون اختيار الجار، وهو أهم من ذلك.

لأن الجار إما أن يكون تقيا محسنًا فتسعد به وإما أن يكون جار سوء فينغص عليك عيشك، إما بكونه لا يصلي، أو بفسقه، أو بكونه يلتقط على جاره الزلات، ويتتبع العورات، ولا تؤمن بوائقه، أو غير ذلك.

فالأول كأبي حمزة السكري؛ أراد جاره أن يبيع داره لحاجة أو دين، فقيل له: بكم؟ قال: بألفين ثمن الدار، وألفين جوار أبي حمزة. فبلغ ذلك أبا حمزة، فوجه إليه بأربعة آلاف، وقال: «خذ هذه، ولا تبع دارك»(١).

ولسنا نطالب الجيران بكل هذا ولا ببعضه، إنما نطالبهم بحسن الجوار، والألفة

---

(١) أخرجه في «تاريخ الإسلام» ١٠/ ٥٤٥، «تاريخ بغداد» ٤/ ٤٣٢، وانظر: «سير أعلام النبلاء» ٧/ ٣٨٧.

والسلام، والصلاة مع جماعة المسجد، والتعاون على البر والتقوى.

وأما النوع الثاني من الجيران وهو جار السوء المؤذي لجيرانه بقوله وفعله، والذي لايسلم جيرانه من تبعاته لتخلفه عن الصلاة وارتكابه المنهيات وتتبعه الزلات والعورات، ونحو ذلك فهو الذي أمر النبي ﷺ بالاستعاذة منه فقال: «تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام»[١].

وهذا ينطبق عليه قول القائل:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذا وصوَّت إنسان فكدت أطير[٢]

فالكلاب أحسن جوارًا منه؛ لأنها قد تحرس المنزل، وتأكل بقايا الطعام أما الجار الذي هذه صفته وبخاصة إذا كان لا يصلي أو يظهر فسقه فإنه أشبه بالنار المحرقة يخشى أن تلتهم بيت الجار.

فانتبه أخي الكريم لهذا وارغب في جوار الله عز وجل بالعمل الصالح مع دعاء الله وسؤاله واختر من الجيران في الدنيا من يكون عونًا لك على أمر دينك ودنياك، أو من تسلم من شره على الأقل، ولا إخالك سالمًا.

قوله: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾، أي: خلصني وأنقذني من فرعون وتعذيبه ومن عمله السيء وكفره وهي في هذا تعلن براءتها منه ومن عمله.

عن سلمان رضي الله عنه قال: «كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة»[٣].

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: وخلصني وانقذني من فرعون وقومه

---

(١) أخرجه النسائي في الاستعاذة، ٥٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيت للأحيمر السعدي. انظر: «الحماسة الصغرى» ص٣٤، «الحيوان» ١/ ٢٥١، «حماسة الخالديين» ص٤٥، «اللآلي في شرح أمالي القالي» ١/ ١٩٥.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٥.

الظالمين، الذين ارتكبوا أعظم الظلم وهو الكفر والشرك بالله والظلم لمن آمن من عباد الله كآسية رضي الله عنها.

فالتجأت رضي الله عنها إلى من إليه الملتجأ، كما كان دعاء أنبياء الله عز وجل والمؤمنين، قال نوح عليه السلام: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]، وقال لوط عليه السلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩]، وقال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، وقال قوم موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٦].

قال ابن القيم[1]: «ووجه المثل: أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئا إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئًا في الآخرة وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله، فتأتي عامة فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به، وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما، وهما رسولا رب العالمين».

قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

كقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٩١].

ومعنى ﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، أي: التي حفظت فرجها من الحرام وصانته بالعفاف.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، أي: فنفخنا في فرجها روحًا ﴿مِن رُّوحِنَا﴾، أي: من روحنا التي ننفخها في المخلوقات، فتدب فيها الحياة، كما قال تعالى عن آدم: ﴿فَإِذَا

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٨٨.

سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ [السجدة: ٩].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في خلق الإنسان: «ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح»(١).

فأرسل الله عز وجل جبريل عليه السلام والذي هو الروح كما قال عز وجل: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ [النبأ: ٣٨] والمراد بالروح في هذه الآيات جبريل عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: ١٧- ١٩].

فنفخ عليه السلام بفيه بفرجها فخُلق عيسى عليه السلام بأمر الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١].

أي: أن الله عز وجل خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب بقوله: «كن»، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قال الطبري(٢): «يقول: فنفخنا فيه، في جيب درعها، وذلك فرجها، ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من جبريل، وهو الروح».

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء- خلق آدم ٣٣٢٢، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٨، وابن ماجه في المقدمة ٧٦، وأحمد ١/ ٣٨٢، ٤٣٠.

(٢) في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٦.

وقال ابن كثير(١): «أي: بواسطة الملك، وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها، فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام».

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم بضم الكاف والتاء من غير ألف: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ على الجمع، وقرأ الباقون بكسر الكاف وفتح التاء وألف بعدها: «وكتابه» على الإفراد.

أي: وصدقت بكلمات ربها الشرعية والقدرية، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾، أي: وكتبه التي أنزلها على أنبيائه ورسله.

قال الطبري(٢): «وآمنت بعيسى، وهو كلمة الله ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ التوراة والإنجيل».

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، أي: من المطيعين الصديقين، المداومين على طاعة الله عز وجل بخشية وخشوع كما قال تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون»(٣).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كمل من الرجال

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٠.
(٢) في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٧.
(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣.

كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[١].

وفي ختم هذه السورة بهذه الأمثال الثلاثة ما يناسب ما بدئت به السورة، وهو ذكر أزواج النبي ﷺ، وما حصل منهن، كما جاء في سبب النزول، ففي ضرب المثل الأول تحذيرهن من التظاهر عليه ﷺ، وتخويفهن وغيرهن من معصية الله ورسوله، وتذكيرهن وغيرهن بأنه لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط كونهما تحت نبيين من أنبياء الله عز وجل.

وفي ضرب المثل الثاني: حث لأزواج النبي ﷺ وغيرهن على التمسك بطاعة الله ورسوله.

وفي ضرب المثل بمريم: إشارة إلى أنه لم يضرها قذف أعداء الله اليهود ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله منه، وهي الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين.

فلا يضر في الرجل الصالح والمرأة الصالحة، قدح الفجار والفساق فيهما.

وفي هذا تسلية لعائشة رضي الله عنها أم المؤمنين، إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك.

فتضمنت هذه الأمثال الثلاثة التخويف والتحذير لأزواج النبي ﷺ ولغيرهن من معصية الله ورسوله، والحث لهن ولغيرهن على الطاعة، والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن أو من غيرهن.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤه بوصف النبوة تشريفًا له وتكريمًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء- باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ ٣٤١١، ومسلم في الفضائل- فضائل خديجة أم المؤمنين ٢٤٣١، والنسائي في عشرة النساء ٣٩٤٧، والترمذي في الأطعمة ١٨٣٤، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٨٠.

٢- وجوب مجاهدة الكافرين الصادين عن دين الله بالسيف والسنان، ومجاهدة المنافقين بالحجة والدليل والبرهان والغلظة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ﴾.

٣- أن مآل الكافرين والمنافقين ومأواهم ومصيرهم نار جهنم وبئس المصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وفي هذا تحذير من مسالكهم.

٤- ضرب الأمثال للناس في القرآن؛ لتقريب المعاني، وهداية الخلق، وإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾.

٥- أن اتصال الكافرين بالمؤمنين وقربهم منهم لا ينفعهم ولا يدفع عنهم عذاب الله ولهذا لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط كونهما تحت نبيين من أنبياء الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾.

٦- شرف العبودية لله عز وجل لهذا وصف الله بها نبيه نوحًا ولوطًا عليهما السلام، كما وصف بها غيرهما من رسله وبخاصة سيد الرسل محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا﴾.

٧- خيانة امرأة نوح عليه السلام له بمخالفته وتكذيبه ورميه بالجنون مع قومها ولهذا استحقت دخول النار والخلود فيها.

٨- خيانة امرأة لوط عليه السلام له بمخالفته وتكذيبه ودلالة قومه على ضيوفه لهذا استحقت دخول النار والخلود فيها.

٩- أن اتصال المؤمنين بالكافرين وقرابتهم لهم لا تضرهم إذا قاموا بالواجب عليهم تجاههم؛ لهذا لم يضر امرأة فرعون كونها تحت فرعون، لما آمنت بالله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي

عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾.

١٠- ثناء الله- عز وجل- على آسية امرأة فرعون في إيمانها وطلبها جوار ربها والنجاة من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١١- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي﴾، وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾.

١٢- فضيلة آسية رضي الله عنها، وتوفيق الله لها في دعائها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ ولم تقل: «بيتًا عندك»، بل اختارت الجار قبل الدار، فقالت: ﴿عِندَكَ بَيْتًا﴾. ويؤخذ من هذا الإغراء في طلب جواره عز وجل والمنافسة في ذلك، بالإيمان والعمل الصالح والدعاء الصادق، كما يؤخذ منه أهمية اختيار الجار حتى في هذه الدار.

١٣- ثناء الله- عز وجل- على مريم ابنة عمران عليها السلام بإحصانها لفرجها وحفظها له وتصديقها بكلمات ربها الشرعية والقدرية وكتبه ومداومتها على الطاعة ولهذا طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

١٤- قدرة الله تعالى التامة في إيجاد عيسى بن مريم عليه السلام من أنثى بلا ذكر، حيث أرسل الله عز وجل «الروح الأمين» جبريل عليه السلام، إلى مريم عليها السلام، فنفخ فيها من روحه بأمره عز وجل، فحملت بعيسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *


دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958